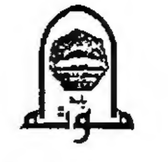


جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

البنية الدلالية والسردية في رواية " أرض السواد " لعبد الرحمن منيف

إعداد الطالب

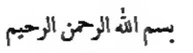
صخر علي المحيسن

إشراف

الأستاذ الدكتور محمد الشوابكه

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة
الماجستير في اللغة العربية وآدابها
قسم اللغة العربية

جامعة مؤتة، 2005





MUTAH UNIVERSITY
Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم(13)

إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالب صخر علي المحيسن والموسومة بـــ:

" البنية السردية والدلالية في دراسة ارض السواد لعبد الرحمن منيف "

استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها.

القسم: اللغة العربة .

	التوقيع	التاريخ	
أ.د. محمد الشوابكة		2004/12/29	مشرفاً ورئيسا
أ.د. سامح الرواشدة		2004/12/29	عضواً
د. ابراهيم البعول		2004/12/29	عضواً



عميد الدراسات العليا

أ.د. أحمد القطامين

MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤتة – الكرك – الاردن
الرمز البريدي :61710
تلفون :03/2372380-99
فرعي 5328-5330
فاكس 03/2 375694
البريد الالكتروني
الصفحة الالكترونية

الإهداء

إلى من استطاعوا أن يزرعوا بمعاول الصبر والكفاح شجرة وارفة الظلال أتفيء ظلها على الدوام رغم تغيرات الزّمن: والدي ووالدتي حفظهما الله تعالى .

إلى روح عبد الرحمن منيف صاحب مدن الملح وعاشق أرض السواد في عالمها الغيبي كي تستريح .

إلى رفاق الطريق، أخوة أوفياء، ورسل محبة لم تتقطع أوصالها يوماً ما. والذين كانت كلماتهم شمعة ضوء، وشعاع أمل يدفع إلى فضاءات ارحب من الطموح والتقدم .

أهدي لكم جميعاً هذا الجهد المتواضع

صخر المحيسن

شكر وتقدير

لا يسعني في هذا المقام وبعد فترة من الزمن عكفت من خلالها على إنجاز هـذا العمل المتواضع إلا أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان لأستاذي الدكتور محمد علي الشوابكة الذي كان أباً وأخاً عطوفاً تقبل أخطائي وعثراتي عبر مسيرة هـذا البحـث بطيب الخاطر، ناصحاً عطوفاً، وموجهاً رؤوفا، مما كان له في نفسـي عمـيق الأثـر, ذاكرة لا تنسى على مدى الأيام، كما لا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لأعضاء لجنة المناقشة المكونة من الأستاذ الدكتور سامح الرواشدة، والدكتور إبراهيم عبد الجواد على تفضلهم بقبول مناقشة هذا البحث وما تحمّلـوه مـن عبء دراسته؛ لتظل توجيهاتهم نقاطاً مضيئة أركن إليها الآن وفي قابل الأيام .

صخر المحيسن

فهرس المحتويات

الملخص

البنية الدلالية والسردية في رواية " أرض السواد "

صخر علي المحيسن

جامعة مؤتة، 2004م

تهدف هذه الدراسة إلى التعريف برواية أرض السواد من خلال زاويتي الرؤية والتشكيل، وقد حاول الباحث في هذه الدراسة الإفادة من علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي إضافة إلي المنهج التاريخي والبنيوي، ولا تغفل الدراسة أهمية المكان والزمان والرؤية السردية، انطلاقاً من كونها البنى الأساسية التي يستند إليها العمل الروائي، وفي هذه الدراسة يحاول الباحث الحديث عن مفردات الحياة الاجتماعية من قيم وعادات وتقاليد، وكذلك الحديث عن التحولات السياسية والاقتصادية التي غلفت حياة الناس وامالهم وتطلعاتهم آخذاً بعين الاعتبار السلوكيات الإنسانية التي كانت نتاجاً لحراك الطبيعة من جانب، وسلوك المستعمر وتدخله في المؤسسة العراقية من جانب آخر .

Abstract

The Semantic and narrative structure in The Darkness Earth Novel

Shaker Ali Al- Mhaasen

Mutah University, 2004

This study aims at defining The Darkness Earth Novel through vision and forming aspects . In this study , the researcher tries to get benefit from the Social and the Psycho- social science in addition to the historical and structural method . This study doesn't ignore the importance of place and time and the narrative vision because it is the basic structure that the Novel's work based on . In this study the Researcher tries to talk about the social life (Traditions) and also to talk about the political and economic changes that cover people's hopes taking in consideration the human behaviors that were resulted from the motion of the nature from one hand and the behavior of the imperialist and his interference in the Iraqi society on the other hand .

الفصل الأول

البعد الاجتماعي

1.1 المقدمة :

حظـــي الروائي العربي عبد الرحمن منيف باهتمام الدارسين؛ وذلك لغزارة إنتاجه والموضوعات التي عالجها, فضلا عن التقنيات السردية المتنوعة التي وظفها فـــي مراحل كتابته,فدرست معظم رواياته على مستوى الرؤية والتشكيل,وكانت هذه الدراســـات تواكـــب كتاباته وتكشف عن تطور الأساليب الفنية لديه, وتطور وعيه بالإنسان والأشياء, فقد أثبتت الدراسات السابقة أن ثمة مسافة في الوعي بين رواياته الأولى" كالأشجار واغتيال مرزوق" عام 1973م و"قصة حب مجوسية"عام 1973م، "وشـــرق المتوسط" عام 1975م، و"حين تركنا الجسر"عام 1976م، و"النهايات" عام 1977 م، "وسباق المسافات الطويلة" عام 1979 م ورواياته الأخرى " "كمدن الملح "وعروة الزمن الباهي" وغيرها. بيد أن آخر إبداعاته الروائية وأقصد ثلاثية" أرض الســـواد" لم تَحْظَ بما تستحق من الدراسة والتحليل العلمي الجاد – على وفق ما أعلم سوى مقالاتٌ صحفيَّة بسيطة .

ومـــن هـــنا يأتي هذا العمل محاولا تحليل هذه الرواية ودراستها من زاويتـــي الـــرُّؤية والتشـــكيل, والكشف عن مدى تطوّر الأسلوب الروائي والوعي الاجتماعي والسياسي عند الكاتب ومحاولة رَبْط ذلك كُلّه ومقارنته بالسياق الروائي، أي مجمـــل إنـــتاج عـــبد الرحمن منيف، حيثما كان ذلك ضروريّاً ولقد عولت في دراستي لرواية أرض السواد على مناهج نقدية متعددة دون الركون إلى منهج بعينه :فقـــد اســـهم المـــنهج النفسي في إضاءة طبيعة الشخصيات الروائية ومدى تفكيرها ,وماهية الأيديولوجية التي تستند إليها في مواقفها من القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعـــية إضـــافة إلـــى الاســـتفادة مـــن المـــنهج الشكلاني والمدرسة البنيوية (بناء السرد) التي أسهمت في توضيح البنى السردية التي تجسدت في العمل الروائي (الزمان والمكان والرؤية السردية) وقد جاءت هذه الدراسة في خمسة فصول :–

الفصل الأول : البعد الاجتماعي

ورصدت فيه الملامح الاجتماعية العامة التي سادت المجتمع العراقي خلال

الفـترة التاريخية التي يرصدها عبد الرحمن منيف روائياً زيادةً على الإشارة إلى تحولات المجتمع العراقي إبّان المراحل المتعددة في العمل الروائي وهذا الفصل يتضـمن حديـثاً عن الأحلام والأمنيات التي يحلم بها الإنسان العراقي ،فضلاً عن الحديث عن توحد المجتمع العراقي في مواجهة الطبيعة والمستعمر،رغم المشاحنات والمنافرات التي عانى منها المجتمع الروائي؛ فإن هذا الفصل كشف توحد العراقيين وانسـجامهم فـي بوتقـة واحدة، إزاء كل ما يدور حولهم من مخططات استعمارية تهدف إلى النيل من وطنهم وهويتهم الإنسانية .

الفصل الثاني : البعد الثقافي والاقتصادي

وفي هذا الفصل تأكيد على مسألة الثقافة العربية وتحدياتها وهي قضية دائمة ظلت تشغل عبد الرحمن منيف على امتداد أعماله الروائية ابتداءً من (الأشجار واغتـيال مـرزوق وانتهاءً بـ (أرض السواد)، التي تعد محور الدراسة التي بين أيديـنا، وفـي هذا الجانب أشرت إلى قضية اللقاء الحَضَاريّ بين الشرق والغرب، وكيفية تعامل منيف مع هذه القضية، وما يميزه عن غيره في طرحها ضِمْن أعماله الروائية، ولا يقف هذا الفصل عند القضية المحورية بل يتطرق إلى عوامل ساهمت فـي تشـكيل تحـولات الحياة الإنسانية في المجتمع الروائي والتي يظهر فيها البعد الاقتصادي بشكل جلي، إذ أشارت الدراسة إلى بعض الظروف الاقتصادية الصعبة التـي يحياها المجتمع العراقي ضمن بنية منيف الروائية؛ ولا يغفل هذا الفصل بيان قضـية الامتـيازات الأجنبية التي كانت إحدى الطرائق التي نفذ بها الاستعمار إلى العالم العربي خاصّةً العراق، وهنا يثبت العراقيون رغم ضنك العيش وقسوة الحياة تآلفهم وتوحُّدهم في وجه المستعمر الذي ما انفك يمارس المخططات التي تهدف إلى إخضاع الأرض والإنسان.

الفصل الثالث : بناء الزمن

وفـي هذا الفصل حاولت تطبيق بعض المصطلحات المتعلقة بالزّمن كآليات المفارقة السردية (الاسترجاع والاستباق)، وكذلك الحركات السردية سواء ما كـان مـتعلقاً مـنها بتسريع السرد كالحذف والإضمار والتلخيص أو ما كان متعلقاً

بتبطيء السرد كالوصف للإنسان والمكان، زيادةً على الإشارة إلى المشاهد الحواريّة والمتحركة .

الفصل الرابع : المكان "إطار نظري وإنتاج دلالة "

وفي هذا الفصل تناولت الدراسة المكان على النّحو الذي وَرَدَ عند النقاد والدارسين نظرياً، إضافة إلى مفهوم المكان لدى منيف؛ فقد بدت "أرض السواد" غنية بالتفاصيل المكانية سواءً ما كان منها على مستوى المدينة (بغداد ، الموصل) أم على مستوى الأماكن الجزئية التي تشكل تفاصيل المدينة (الكرخ،الرصافة) . ولم يقف منيف عند الأماكن الكبرى في روايته بل جاء حديثه مستطرداً عن الأماكن المتصلة بحياة الإنسان اليومية كالبيوت والمقاهي والشوارع والأزقة .

الفصل الخامس :الرؤية السردية

وفي هذا الفصل تناولت الدّراسة أنواع الرواة ومفاهيم الرؤية عِنْدَ النقاد، ثُمَّ الحديث عن طبيعة الراوي في "أرض السواد"؛ فقد أثبتت الرواية هيمنة الراوي كلي العلم عليها والذي تم من خلاله رصد جملة من العادات والتقاليد الاجتماعية التي اكتنفت مسيرة المجتمع الروائي، ومن خلال هذا الراوي استطاع منيف النفاذ إلى حياة الناس اليومية بكل تفصيلاتها؛ إذ لم تستطع الفوارق الاجتماعية والطبقية أن تَحُدَّ من هذا التواصل .

وتجدر الإشارة إلى أنّ الدراسة لا تدّعي استيعابها لكل مفردات التشكيل الروائي ، فالشخصيّة مثلاً، لم يفرد لها فصل مستقل وإنما جاء الحديث عنها من خلال النظر في الأبعاد وارتباطها بالتشكيليّن الزماني والمكاني، كما أن مسائل كالتناص والأسلوب اللغوي وتوظيف التاريخ، لا تقع ضمن البنية السرديَّة العامة على النحو الذي جاءت فيه في أدبيات المنظرين المعاصرين من أمثال تزيفان تودوروف و جيرارجنيت وجان بويون و وين بوث وغيرهم؛ فضلاً عن أن مثل هذه المفردات تستحقُ دراسةً مُفصّلةً يتمنّى الباحث أن يجعلها موضوعات لدراسات مستقبليَّة ضمن النظر في أعمال منيف الروائيّة .

وفي الختام أتمنى من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت في هذا العمل المتواضع الذي أضعه اليوم بين أياديكم كثمرة لِجَهْد مُضْنٍ مؤمنا بقول الحكيم "لكل مجتهد نصيب" وما اعتصامي إلاّ بالله .

2.1 علاقة الرواية بعلم الاجتماع :

لقد بات من المسلمات القول إنّ الأدب يعد انعكاساً للمجتمع،يصور مفردات الحياة الاجتماعية،ويحلّل منظومة القيم والعادات والتقاليد،ويكشف العلل والعيوب الاجتماعية ويعريها،دون أن يعني ذلك أنّ الأديب ملزمٌ- دائماً-بالبحث عن حلول لهذه العلل،أو إعداد صيغ محددة تعالج المشاكل،وقد ذهب بعض الدارسين في علم اجتماع الأدب إلى أبعد من ذلك،عندما تحدثوا عن نظرية الكمون التي ترى أن العلاقة بين الأدب والمجتمع ليست فقط على مستوى الوظيفة التي يقوم بها الأدب،وإنما أساساً على مستوى الماهية،أي أن الأدب ليس جزءاً أو كياناً مستقلاً عن المجتمع كما يبدو في"نظرية الانعكاس"،ولكن المجتمع كامن داخل النص الأدبي(1).

إن الأدب على وفق هذا التصور نشاط إنساني، وفعل بشري، ومظهر اجتماعي، والرواية على وجه التحديد، هي إعادة صياغة الواقع، أو محاولة إيجاد واقع جديد، يحاول الكاتب من خلالها أن ينقل خبراته المتراكمة إلى المتلقي، وبصرف النظر عن نمط الرواية سواء أكانت تحليلية أو تاريخية أو متخيلة كلياً أو جزئياً – فإن المجتمع بمفرداته الثقافية، ونظامه السياسي والاقتصادي يظل المرجعية الأساسية التي يستقي منها المبدع مادّته ويعيد تشكيلها منطلقاً – بالضرورة – من موقف فكري أيديولوجي، ورؤية خاصة تجاه الإنسان، بيد أن هذا الانضباط والالتزام لا يعني بحال من الأحوال تحويل الرواية إلى سجل حافل بالعادات والقيم والأعراف والعلل والأدواء الاجتماعية، وإنما يعني الكشف عما سبق من خلال رؤية فنية لا تسمح للالتزام بالإطاحة بجماليات التشكيل .

وتجدر الإشارة هنا إلا أن الرواية – باعتبارها من الفنون الزمانية إلى حد كبير – هي رحلة في الزمان والمكان، وهي لذلك معنية بمتابعة الحراك الاجتماعي، والتغيرات التي تطرأ على الإنسان على المستويين الفردي والجماعي وهي في الآن

نفسه تأريخ بشكل أو بآخر لحركة المجتمع، وتصوير لأنماط الإنتاج والتفكير، ولعل الرواية التاريخية تعدُّ أوعبَ من غيرها لحركة المجتمع؛ لأنه من السهل على الأديب استحضار الأحداث والشخوص التاريخية وإعادة تشكيلها بضمن قالب روائي .

وتُعَدُّ "أرض السواد" من الروايات البارزة في هذا الاتجاه؛ لأنها تعالج فتــرة من حياة العراق في العصر الحديث، فترصد التغيرات التي طرأت علــى المجتمــع العراقي، وتحلل جزيئات الحياة الاجتماعيّة، محاولة القبض على أشكال الوعي الذي يتشكل وينمو من خلال رَصْد الأحلام الفرديّة الصــغيرة إلــى الأحــلام الجماعيــة الساعية وراء التغيير، ولا غرابة في ذلك، فالبيئــة الاجتماعيّــة بمثابــة "التنويعــة الإنسانية التي تتآلف من جميع العوالم الاجتماعية التي عاش فيها الناس ويعيشــون، وتنقل هذه التنويعة مجتمعات بدائية لم تتغير، كما تصور دولاً قوية" (2)، ولعلنا نظفر بمثل هذا الصراع الذي يقدمه منيف في "أرض السواد" التي تعبر عن صور حية من التناقضات تتمثل في رصد أشكال الهوة التي تفصل بين شرائح متعدِّدة من المجتمــع الروائي، فنلمح بين الفينة والأخرى نماذج إنسانية معذبة تقاسي من الفقر والحرمــان والاضطهاد، في حين نرى في المجتمع نفسه أنماطاً تســتغل موقعهــا السياســي أو القبلي لمصادرة خيرات العراق، و "أرض السواد" في تصويرها الفني لذلك تتصادى مع ما يراه "لوكاتش" من كون الروايــة : - "عمــلاً ديالكتيكيــاً" يعكــس الحيــاة المتصارعة وأشكال القوى الاجتماعية" (3). وقد توسل منيف في رصــده لمظــاهر الصراع بالنفاذ الى تحليل مفردات الحياة اليوميّة للعراقيين في أحلامهــم المتمثِّلــة بصراع سلطتهم السياسية من أجل خلق نموذج عراقي يشابه النموذج الذي صــنعه "محمد علي باشا" في مصر، بعد أن أخذت الدولة العثمانية تتَهاوى، وكــذلك أحــلام المثقفين والشباب في التحرر ومحاولة صنع مستقبل جديد بعيد عن مخططات الدولة العثمانية التي جثمت سنوات عدة تستنزف خير البلاد وتقطع الطريق على الاستعمار الذي بدأ يخطِّط للتناوب بالوصاية على أملاك الدولة العثمانية، ولا ســيما العــراق والسجل الفني الذي يقدِّمه منيف لا يقف عند طلب الحرية بل هــو رصــد لعــادات وتقاليد اجتماعية انسحبت على ممارسات الإنسان اليوميــة، كــالأفراح والأحــزان

وزيـــارة الأماكـــن المقدسة، ودور العبادة، وجوع الإنسان وتحمله المشاق في سبيل لقمة العيش التي تبدت غاية صعبة لا تدرك بسهولة .

3.1 تحولات المجتمع العراقي :

من خلال تتبع مفردات المكان كبغداد والموصل وهيت والسليمانية وغيرها من المواقـــع يحـــاول منـــيف الولـــوج إلـــى "أرض السواد"، مقدّماً وراصداً مظاهرها الاجتماعـــية والسياسيّة والثقافيّة والاقتصاديّة، لذا لم تكن "أرض السواد" بهذا النسق وثـــيقة تاريخيَّة بحتة، بل هي سجلٌ يوميّ فني يؤرخ لحياة الإنسان العراقي بضمن مجـــتمعه المحـــيط، انطلاقـــاً من أن "الفرد اجتماعي بطبعه، ويفضل أن يكون على اتصال دائم بالآخرين ويشاركهم حياتهم ونشاطاتهم، ولا يميل إلى العزلة إلا لفترات قصـــيرة وأهداف محددة " (4) . والرصد الاجتماعي المتناول روائياً قديم زمنياً، إلا أنه متجدد في الأحداث والوقائع فالمجتمع مضطرب في مجال حياته المختلفة، وهذا الاضـــطراب الـــذي يتـــبدى على ملامح الشخصيات وحراكها الاجتماعي نابع من الأحـــداث التاريخـــية والكـــوارث الكبرى التي تعرض لها العراق. ومنيف في هذا الجانـــب لا يقف جلاداً للأنظمة السياسية أو وجهاً سلبياً يرصد أنّات الأمة وعثراتها بـــل يحاول أن يضيء لنا فترةً تاريخية مهمة مرَّت بها كتب التاريخ مروراً عابراً، وهـــذه الإضـــاءة هي فنية بحتة يستأنس بها القارئ لربط الأحداث والوقائع بالتاريخ الحقيقي .

يعمـــد منـــيف فـــي رصده لمراحل التحول التي أصابت المجتمع العراقي إلى الاتكـــاء علـــى عنصـــري الـــزمان والمكان، ومحاولة المقارنة- من خلال السرد الموضوعي غالباً – بين الصحراء وما يرتسم على حياة أفرادها من البداوة في كل شـــيء، والمديـــنة بتـــنوعها الإنساني وفقاً لأصول وعقائد مختلفة، وهذا التضارب الســـكاني للمجتمع العراقي يفرز بضرورة ملحّة جانباً كبيراً من صراع القيم سواء أكـــان ذلـــك بين الناس أنفسهم من جانب أم بين السكان المحليين والآخر من جانب آخر .

4.1 البعد السياسي بوصفه مفرَدَةً اجتماعيةً :

إنّ الحالــة السياسية التي ترصدها "أرض السواد" للمجتمع العراقي تتجلى في حالــة غــير مسبوقة من الضعف والتخلُّف؛ إذ نلمس من رصد الرواية في جزئها الأول حالــة مــن البون الشاسع بين الطبقة الحاكمة – رجال سعيد باشا وأعوانه- وطــبقة المجــتمع على اختلاف انتماءاته السياسيّة، فما أن بدأ داود باشا في حصار بغــداد لإســقاط السلطة فيها حتى جاء رد الشارع العراقي واضحاً؛ إذ تمثل بإقامة المســيرات والمؤتمرات الخطابية التي تندّد بسياسة الوالي سعيد ورجاله، وليس أدلَّ على حالة العزلة التي يحياها الوالي عن مجتمعه إلا ما قاله الرحَّالة الإنجليزي : "إن الباشا مشغول بالمظاهر، وبرياضته اليومية أكثر من أيِّ شَيْءٍ آخر " (5) وحتى عند انــتهاء الحــاكم أو موتــه يظلُّ الإنسان البسيط الجهة المستعبدة ويبقى رهيناً للظلم والقلــق الاجتماعي، وما حديث "عبود الأعرج ورزوقي" إلا نماذج صادقة تدل على مدى الحيرة والخوف من المجهول الذي بات يُؤرِّقُ الإنسانَ العراقيَّ (6).

وفــي ظــل اضطراب الدولة وحصارها يرسم العراقيّون صورة متجانسة من الــتوحد والــتآلف الاجتماعــي؛ إذ تبدو بغداد من خلال أهلها الذين يؤمنون بالقيم الإنســانية ولايــة متفرّدة فقلب الفرد منشغل بالآخرين, ورغيف الخبز البسيط يكفي المجمــوع والنظام السياسي لم يبقَ على حاله, فرغبة العراقيين في التغير أدَّت إلى وصــول " داود باشا " إلى الحكم. والرواية في رصدها لتغير السلطة الرسمية تبرز حالــة التغير الذي أصاب الطبقة الحاكمة " فسعيد باشا و عبد الله التوتنجي " اللذان فرضــهم الغرباء لم يكونا يوماً من اختيار المجتمع, وهذا موقف يتنافى مع شرعيّة حكــم " داود باشا " فقد كان وصوله مستمداً من تأييد الناس والقادة الداعمين للثورة. ورغــم الحرية التي مارسها المجتمع في اختيار حاكمه، إلاّ أنها بدت آنيّة, فسرعان مــا تلاشــت، فقــد أصبح المواطن العراقي أمام همٍّ جديد يتمثل في القهر السياسي والكبت الفكري اللذين ما أنفكت الدولة تمارسها ضد أفرادها على المستوى الرسمي والشــعبي, وفي " أرض السواد " ما يشي بسياسة القهر الاجتماعي والكبت السياسي تجــاه المجتمع العراقي حتى في أبسط الأشياء التي يمارسها في حياته اليوميَّة والتي لا تشــكل عائقاً في مسيرة الدولة ونظامها الحاكم, وهذا التوجُّس يرصده منيف من

خلال وصفه لأحاديث النَّاس الذين يرتادون قهوة الشط والذي دفع في النهاية " عقلاء صـــوب الكرخ دعوة صغار السن المندفعين بالحماسة إلى ضرورة الحيطة والحذر، واســتخدام العبارات الممزوجة خاصة تجاه الأمور المتعلقة بالسراي " (7) – وأمام هــذا الاستبداد السلطوي يبقى لسان العراقي مؤمناً بسياسة التغريب والعزلة القائمة بيــنه وبين مؤسساته الرسمية(8)، ولا يقف النظام السياسي عند الحرب النفسية التي يمارســـها تجاه القوى السياسية الناهضة في المجتمع بل تتوسع دائرة الكبت إلى قتل جماعـــي " فصـــلب الباشاوات " الذي مارسه والي العراق دليل أكيد على ضرورة فــردية الســـلطة السياسية حتى تبقى حُرَّةً وغير مسؤولة أمام مجتمعها " لأن الموت السري لا يترك أثراً ولأن الموت الصغير لا يعني أحداً " (9)

إن سياســـة التبايـــن المُطَّرِد بين السلطة والمجتمع، جعل السلطة في حالة من العـــزلة والحـــزن تتعرقل معهما مساعي الإصلاح والبناء التي تسعى إليها، والذي يدخل معه الوالي رحلة أمانيَ وأحلامٍ نتيجة واقع صعب؛ إذ يتمنى لو أن الشمس أقل توهجـــاً فـــي بغداد وأن فيها بشراً من طبيعة أخرى. والمرحلة السياسية المضطربة التـــي ترصـــدها "أرض الســـواد" لم تكن قائمة على طرفي معادلة أساسها "السلطة والشـــعب" بـــل يـــنفذ منيف إلى أعماق صنع القرار السياسي، فينقل لنا عالماً مليئاً بالتناقضات والصراعات بين القادة والعسكريين، إذ يرى كل واحد منهم أنه الوريث الشـــرعي للسلطة في العراق ولا يدّخر جهداً في إحباط الآخرين، وتهميش أدوارهم الأمـــر الذي يدفع الباشا إلى إبراز نفسه رغم جهل رجاله فهو يرى أنّ "بعض الناس إذا كثرت عليهم الأسئلة أو تراكمت يضيعون" (10) .

تظل البيئة الاجتماعية في كثير من الأحيان جانباً مؤرقاً للنظام السلطوي يسعى فـــي كثـــير مـــن الأحيان إلى تمزيق نسيجها الاجتماعي المتلاحم، فلم تعد العشيرة العراقية نظاماً قبلياً نابعاً من حاجة القبيلة ومتطلباتها الحياتية بل ظهر –على النقيض مـــن ذلك– نمط مُخْتَرَقٌ من قبل السلطة التي باتت تعين شيوخ القبائل العراقية حتى تضمن ولاءَهم في جميع الأوقات (11) .

إن العامل الطبيعي بكل تجلياته على المكان والإنسان بات دافعاً أساسيّاً يفرض علـــى النظام السياسي تنويعةً إنسانية تختلف في السلوكيات والتوجهات؛ ففي الوقت

الـــذي تفرض فيه المدينة مجتمعاً متحضراً تسهم الصحراء في خلق نقيض لذلك؛ لذا فقــد شكل المجتمع البدوي ركيزة مهمة في تركيبة المجتمع العراقي ولا سيما تقوية الحــاكم العراقـــي . ويبدو دوره مهماً انطلاقاً من دور وجهائه ولا سيما "حمود بن ثامر" الذي لم يكن مجرد شيخ قبيلة بدوية بل يكتسب دوره القبلي بعداً سياسياً أكبر، ويتضـــح ذلك من خلال مقولة " دواود باشا" بحقه : " فهذا البدوي الجلف وحده الذي يستطيع بتخليه عن سعيد أن يسقطه، فقط إذا لم يستجب لنداءاته أو لعويل أمه"(12)

وأمـــام هـــذا الـــتواجد المقلق لفئة البدو بما يمثلونه من عصيان مستمر على قوانين الدولـــة، تبقى البداوة بكل عناصرها السلبية التي تشكل عائقاً في تقدم المجتمع سداً منـــيعاً ســـعت الدولة من خلال الحملات العسكرية التي استهلكت جُلَّ مقدراتها إلى تحطـــيمه مـــن أجل الالتفات إلى قضايا أكبر، الأمر الذي فرض عليها إعادة النظر وفرض الهيبة بين الفينة والأخرى ليس أمام البدو وحدهم بل أمام أعداء كُثر فوجود الآغـــا في منطقة الشمال كما يرى "داود باشا" " ... يشكل سداً أمام الرياح الشرقية، بحيث لا يجرؤ أي طامع، أن يفكر باجتياز الحدود" (13) .

من الطبيعي أن يكون الكيان البدوي على الرغم مما يتمتع به من ذكاء فطري وتـــراكم قيمـــي عاملاً سلبياً في تقدم الدولة العراقية التي يحاول "داود باشا" إرساء دعائمهـــا، ويـــبدو موقـــف الســـلطة تجاه هذه الفئة الاجتماعية مبرراً وفق الرؤية الروائية؛ "فهم مخلوقات غامضة مليئة بالشر والقسوة، وهم كالشياطين لهم ألف وجه لذلـــك يجـــب الاحتراس منهم دائماً"(14) وهذا الخطر لم يكن حاسماً بالنسبة للسلطة السياســـية، فقد ظل معلقاً من فترة إلى أخرى، إذ أدركت السلطة أن قتالها المستمر ســـيهلك القـــوى، فأمـــام الدولـــة مهمات جسام أجدى من قتال البدو تتعلق بالنهضة الحديثة ومواجهة القوى الخارجية التي تهدد العراق وتحاول إخضاعه .

وإذا كانـــت الحالة السياسية التي تقدمها "أرض السواد" مأزومة تسودها جملة مـــن عوامـــل الهَـــدْم التي يساهم التنوع الاجتماعي أحياناً في جزء منها، فإنَّ الحياة الثقافـــية التـــي تَرْصَدُ روائياً ليست بعيدة عن ذلك، فلم تعد الثقافة تحتل جانباً يثري الحـــركة السياسية والاجتماعية في مجتمع "أرض السواد"، فقد مال المثقف العراقي إلى حالة من العزلة ونأى بنفسه عن المجتمع المحيط، فلم تعد الثقافة هنا كما يصفها

تايلــر "الكل المركب الذي يشمل على المعارف والقصائد والفن والأخلاق والقانون والعـــادات وغـــيرها من القدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع" (15)، ولعل مردَّ هذا الشعور الانعزالي نابع من الدرجة الثقافية التي يحتلها الجمهــور المخاطـــب، رغـــم المحاولات التي حاول المثقف من خلالها بث رسائله بأبسط الكلمات والأوصاف من خلال استغلال منظومة العادات والتقاليد الاجتماعية، فقـــد كانـــت الأفـــراح ولا ســـيما احتفالات الخطوبة أرضاً خصبة استثمرها "ناجي البكري"ميداناً لبث آرائه التحررية ضد النظام السياسي تصريحاً أو تلميحاً أحياناً(16).

لقـــد بـــات تركـــيز المثقفين، ولا سيما مثقفي الجماهير منصباً كما سنرى في الفصل الثاني على نقد سياسة الطبقة الحاكمة ولم يغفل منيف في ثلاثيته الروائية عن نقـــد هذا التوجه الذي يبدو هشاً لا يتعرض لجوانب الحياة الشمولية، فقد أخذت اللقى الأثـــرية والمخطوطـــات القديمة التي ترصد تاريخ الحضارات الإنسانية تُصادر من قـــبل الآخر إلى المتاحف الغربية في الوقت الذي تنشغل فيه الأنظار بمراقبة حالات الصـــراع والتـــنافر علـــى كراســـي الحكم والثروات (17) وليس غريباً أن يبدو هذا التقصـــير بيناً على المستوى الثقافي؛ إذ إنَّ المسيرة الثقافية في "أرض السواد" تبدو نمطـــاً مـــن الاجتهادات الفرديّة، ولربما ميزت جملة من الجهود الخاصة مثقفاً عن غـــيره، وهذه النخبة الثقافية التي أسهمت بـــ "ثورة الشرق" وكذلك زيارة الخارج لم تظهـــر إلا من خلال فئة قليلة تجسدها الرواية في "ناجي البكري ويعقوب حوحو" أو كما أطلق المجتمع على تسميتهم "بالأستاذ والمسيو" على عكس ما لمسناه لدى "محمد على باشا" في مصر الذي بعث حملات من أبناء مصر للتخصص في ميادين الآداب والعلـــوم والسياسة الأمر الذي دفع المثقف إلى تقليص دوره، ولعلّ هذا ما أشار إليه "ناجـــي الـــبكري" عندما كان يتحدث لجمهور الحاضرين بأن عمره قد بلغ السبعين، وهـــذا الأمـــر يمـــثل له خروجاً على منظومة المجتمع مؤكداً على توريث الرسالة الثقافـــية لمـــن يأتي بعده إيماناً بأهمية الدور الثقافي فهو كما يرى "يِنْراد لبغداد بَعَدْ سنين وسنين" (18).

لقد ظلت الحركة الثقافية في "أرض السواد" مرهونة بالأحلام والأماني الفردية التـــي كانت تراود مخيلة "داود باشا" بين الفينة والأخرى فالمساجد والزوايا ومدرسة

الخط العربي التي أقسم على إنشائها لم تعد إلا مشاريع لفظية تم صرف النظر عنها تـبعاً للأحـداث الجسـيمة التي أخذت تعترض مسيرة الدولة (19) . وبهذا التقصير الرسمي الذي لم يكن ينعكس على بغداد وحدها بل تناول أجزاء العراق كافة . أراد منـيف أن يبشر بتلاحم فئات الشعب العراقي في حالات الرخاء والشدّة، ولعلّه أراد أن يحذِّرَ من أنّ مأساة الشعب العراقي تكمن في تناحره وتفككه ولا سيّما في أوقات الأزمـات، فأهل الشمال لم يكونوا أحسن حالاً من البغداديين، ويبرز ذلك من خلال رحلـة "ريـتش" إلـى الشمال فهناك تبدو الحياة الثقافية في صورة سلبية نتيجة لقلة معلومـات أهـل الشمال وعدم متابعتهم لأخبار العالم، وليس أدلّ على ذلك إلا حالة "عـثمان آغـا" الذي سأل عن معركة "واترلو" كما أطلق على نابليون بونابرت لقب "الإمـبراطول" فضـلاً عن تعجبه من وصول بريطانيا إلى الصين وتعيين سفيرٍ لها هناك، وهكذا فإنّ العزلة الثقافية كانت جانباً مهماً في ضعف أهل الشمال ومحدودية تفكـيرهم إزاء الوافـد الجديـد وماهية المشاعر التي يحملها إزاءَهم وإزاء العراق كاملاً، فقد انحصر التفكير لديهم بكيفية اختراع البندقية، وكيف أن المسدس الصغير قادر على قتل ثور كبير (20).

لقـد ظلـت الـثقافة الإنسـانية في مجتمع "أرض السواد" محافظة على قيمها الإنسـانيّة والاجتماعيّة متجذِّرة رغم التغيرات التي ألمت بالفرد والجماعة الإنسانيّة، ويـبدو هذا الأمر جلياً من خلال ما واجهه "ذنون" من رؤية ثقافية، فالفرد ظل عابداً للمـال اعـتقاداً مـنه أنَّه الحاكم، فكل شئ لديه يمتاز بالحكمة إلا الإنسان فإنه يبقى جـاهلاً ولا يتعلم من الحياة شيئاً فهو "الذي ولد من العماء والطين، وبعد رحلة من المشـقة والعـذاب، سيذهب إلى العماء والطين مرة أخرى" (21) ، كما أنه لا يمكن الحكم على التواصل بين الثقافة والسلطة، بل ظلت العلاقة على حالة من التعليق، إذ مـا اسـتثنينا بعض الأدوار الثقافية التي مارسها المثقفون الرسميون، فقد استعانت السـلطة بأصواتهم بين الفينة والأخرى خاصةً في شرعية مقاومة الفتن الداخلية، فقد مثل صوت مجموعة من علماء الدين والشعراء تأييداً لمشروع "داود باشا" الذي يرى في قتال البدو عاملاً من عوامل الاستقرار والأمان للعراق (22) .

5.1 نظرة المجتمع للسلطة الدينية :

يعــد النظام الديني في المجتمع العراقي جزءاً مهماً في حياة الفرد أياً اختلفت مستوياته المعيشيّة، وطبقاته الاجتماعيّة، ولعلّ مردّ ذلك كما يرى أحد الدارسين –في سـياقٍ مختلف – "أنّ ثمّة متطلبات وظيفية ملحّة تجعل من الدين نظاماً ضرورياً في المجـتمع، فـالخوف مـن الموت، والهوة بين المُثُلِ والواقع والمعاناة غير المبررة والشـرور التي لا تجد عقاباً تشكل بعض الظروف التي تجعل الدين نظاماً لا غنىً عنه " (23) .

وإزاء ذلـك فقـد ظـل الديـن مرجعاً أساسيّاً للفرد العراقي وإن شطت به النوازع والآراء والمعـتقدات الشخصـيّة، وقد شكل هذا الأمر نهاية موحدة لمعظم شخوص "أرض السواد".

إن المجتمع الذي تعامل مع السلطة الدينية في "أرض السواد" لم يكن سلبيّاً في نظـرته إلا تجاه القائمين عليها، وما توجه بعضهم "كالملا حمادي" إلى كسب المال غير المشروع تحت مفردات عقائدية "الصدقة وزكاة الصوم" وغيرها إلا عاملٌ مؤثرٌ في هذه النظرة التشاؤمية، ولعلّ أدلّ ما يكشف عن عمق هذه السخرية ما قاله "سيفو المحمـود":– "إذا كـانِ مؤذناً من ديرة الواق واق، وخطيبناً من أهل البشناق، فأمة العـراق، يـا جماعة، بألف خير..." (24). ولعلّ في واقع السخرية من ممثلي الدين، عـدم الإلمـام بالأحكام الشرعية إذ أثارت الأحكام إضافة إلى الصمت والعجز الذي أبـداه الملا من حكم الزواج من النصرانية علامة دالة على اتساع البون بين الطبقة الدينية وأفراد المجتمع العراقي، وإذا كان ممثل السلطة الدينيّة عاجزاً عن أداء مهامه فإنّ الإنسان العراقي لم يشعر باليأس إزاء ذلك، فقد ظلت المساجد والمقامات الدينية أماكـن حافلة بالناس في مجتمع "أرض السواد" إذ مثلت بقدسيتها ملجأ للإنسان إزاء ما يتعرض إليه من أنّات ومصائب(25) .

إن التنوع المذهبي الذي يسود العراق، ولا سيما في التيارات الدينية المختلفة "السـنة، الشـيعة" بـدا جلـياً في عمل منيف الروائي؛ وذلك انطلاقاً من حجم هذه الظاهرة وامتدادها في البنية الاجتماعيّة على وجه العموم، فقد أبرز منيف حيزاً من تـنافس هذه المذاهب وامتدادها في البنية الاجتماعية على وجه العموم؛ معتمداً على

العنصر المكاني في ذلك، فقد رأى "بكري الدده" خادم جامع أبي حنيفة رجالاً يدعون إلـــى فـــك "سعيد باشا"، أما "رزوقي مفتاح "، فقد رأى الزوار يضعون الشموع عند المـــرقد، لأنـــه بـــبركة الشـــيخ عبد القادر استجاب لدعائهم بنصر داود على القوم الظالميـــن، وهـــنا فإن الحلم الإنساني شكل دافعاً للسلطة الدينيّة، ولعلّ في ازدواجية الـــرؤية دلـــيل علـــى أن كل مذهب ديني يسعى للحصول على الدعم السياسي الذي يـــنطوي تحـــته هبات تقوي المبادئ والأفكار الدينيّة(26)، وأمام هذا التنافر المذهبي يظهر الدين المسيحي عنصراً حيوياً يدعم حركة الاستشراق التي أسهمت بشكل جلي فـــي خدمة السياسة، ولا سيما دورها البارز في دعم الاستعمار والتدليل على أماكن اللقى الأثرية والتسهيل من أجل محاولة نقلها إلى الخارج (27) .

لـــم تقـــف المؤثرات الاجتماعيّة ومشاغل الفرد عائقاً يُغْفِلُ المسلمات الأساسيّة التـــي تشكل جوهراً أساسياً في كيان الإنسان، فقد دفعته للوقوف أمام "فكرة الموت" مدققاً ومحللاً، وأن غلف حياته في كثيرٍ من الأحيان طابع الترف والانصراف وراء الملـــذات الشخصـــية دون وعي للدور الأساسي الذي أنيط به،ويبدو اعتراف الفرد بالتقصـــير واضـــحا، انطلاقاً من قول العمة زاهدة التي تصف حالة الضعف الديني الذي يلف مجتمعها الإنساني بقولها:- " تمر أيام جمع هواية والواحد لا يتصدق، ولا يـــزور موتاه، وبغير رمضان ما يصومون، وتجي ليالي المحيا وشعبان وتروح وما يقدمون النذور، ولا يتفطنون لزيارة الأوليا" (28) .

إن مسألة البعد الديني لم تنحصر في مجموعات بعينها "المجتمع الكرخي"، بل جـــاء الجـــزاء – مـــثلاً – لأفـــراد بعينهم، إذ سرعان ما تناولت يد الموت بدري. والرواية في عرضها لمسيرة "بدري العلو" تكشف لنا عن ضعف العقيدة الدينيّة لديه وهـــذا فسرته الإجابات التي بررها تجاه الناصحين له، ولا سيما "العمة زاهدة"، فبعد أن اكتشـــفت أنـــه غـــير صائم في رمضان كان رده ساخراً إذ "إنه على سفر، وإنه ســـيعوض الأول والتالـــي" (29)، ورغم ذلك يظل موقف المجتمع العراقي ثابتاً إزاء الســـلطة الدينـــية، إذ يؤمن أبناؤه في أنهم في عراك مع القدر، فيتجلى العراق كما يصـــوره الأجـــداد والمسنون لم تسده جوانب الراحة انطلاقاً من ظلم الطبيعة نفسها

بالفيضـــان والجـــراد والمحل، وكذلك ظلم الإنسان نفسه والمتمثل بالحرب والويلات المتعاقبة(30) .

إن مـــنظومة الآيدولوجيا الدينيّة التي ترصدها "أرض السواد"، وإن شابها جزء مـــن الـــتفاوت بين الاعتقاد والتحريف تبقي الجانب الديني رمزاً مكانياً حاضراً في نفـــوس العراقيين، ولا سيما في الأوقات التي يقف فيها الإنسان العراقي فريسة بين أنّـــات القلـــق والخـــوف من المستقبل القادم، وأثناء هذا الرصد الدقيق لتلك الأماكن تتكشـــف بعض الطقوس الدينية التي يقدمها الإنسان تكفيراً عن خطاياه (31) . وعلى الـــرغم مـــن هذا الحضور الحافل للمقام الديني، فقد ظل المواطن العراقي في أغلب أوقاته غارقاً في همومه اليومية، إذ لم يقف الأمر عند حدود ذلك بل تعداه إلى إيمان الإنســـان العراقـــي البسيط بأن منظومة السلطة الدينية هي صنيع السياسة ورجالها، وهـــذا الموقف يشكل بعداً خطيراً أمام شريحة كبرى من المجتمع العراقي، فقد اعتقد بعض الأفراد أن موت سعيد اختلال في مسيرة الدنيا؛ نظراً للمنصب الذي يشغله(32)

لقد أصبح من الثوابت الراسخة " أنّ السلطة الدينيّة التي فرضت على المواطن العراقـــي جانـــباً مـــن جلد الذات، والتي عبّر عنها- بين الفينة والأخرى- بطقوس يومـــية، كـــالدوران وتوزيـــع الملابس على الفقراء وإضاءة الشموع ..." (33) تظل مهيمـــنة و الفـــرد يـــبقى مؤمناً بسلطة القدر ويده الطولى التي لا تعرف التأجيل أو الســـماح، ففـــي الوقـــت الذي تخلى فيه "رجل الدين" عن دوره باحثاً عن مصالحة الشخصـــية، أخـــذت بعـــض الفئات الاجتماعية تبرر مواقف السلطة السياسية ، إذ ظهـــرت لغة الحاكم من منظورها قريبة من لغة الرسول، ولهذه اللغة دور جوهري في إثارة الرعب في نفوس الخارجين عن الدولة .

6.1 جوانب من القيم المادية والاجتماعية :

في مجتمع "أرض السواد" يقدم العامل الاقتصادي دوراً كبيراً ومهماً في تشكيل مفـــردات الحـــياة الاجتماعـــيّة، فمن خلاله تم إحداث نوع من التمايز الطبقي وفقاً للمصالح التجاريّة ومستويات الدخل، وإن لم تقدم "أرض السواد" فئات طبقية بعينها، ولا بد من الإشارة هنا إلى مدى الخطر الذي عكسه هذا العامل على مجالات الحياة

في الدولة العراقيّة، ففي الجزء الأول نجد مجتمعاً تسوده عوامل الفقر والضعف التي انعكسـت نتيجـتها علـى الحياة السياسية وتبعاتها إذ "لم يبق دكان في جميع أسواق المـتاجر والعطاطـير والبقاقـيل، التي لا عدّ لها،إلا وفتحوها ونهبوها،ونهبوا حتى الأقفال"(34) وقد ظل المجتمع العراقي تحت وطأة هذا العامل، فبدا كما يصوره منيف مجـتمعاً تسوده مشاعر الخوف بعد فوضى ارتفاع الأسعار إضافة إلى القلق الناجم عن هجمات البدو، ولذا فقد ظل الإنسان العراقي البسيط مثقلاً بهموم الحياة وتبعاتها، يفـرغ آلامه الدائمة من خلال جلوسه المتواصل في المقهى ، الذي ظلّ عنواناً يومياً يعـبِّر من خلاله عن ذاته الطافحة بأنّات الحزن وويلات الزمن، وإن بدا هذا التعبير فـي كثـير من الأوقات على جانب كبير من السريّة والتكتم (35)، وأمام هذه المعاناة الشـديدة، فقد انصرفت السلطة السياسية لتلبية رغباتها ورغبات أفرادها، فأصبح الجـزء الأكبر من واردات العراق المالية يقدم للدولة العثمانية وهذا ما جاء صراحة علـى لسان الخاتون بقولها : "لكي يبقى رأس والينا مرفوع " (36) والتي عللت من خلاله كثرة التبعات المالية التي لحقت العراق وهكذا فإن فئات المجتمع الفقيرة ظلت تجلـد كل يوم بسياط الجوع والحرمان . وفي ظل الوضع الاقتصادي المأزوم، يبقى الـتاجر العراقـي طـرفاً قوياً في المعادلة السياسية للدولة، تسعى الدولة باستمرار لضمان إخلاصه وولائه، فتجار بغداد كما يراهم "داود باشا"

> ... مـثل ذكور بعض الحيوانات ما توفره الإناث يسرقه الذكور، يحبون المساومة، والمماطلة، حتى لو باع الأب لأبنائه، وكان يريد أن يعلمهـم درسـاً يجب أن لا ينسوه، أما إذا تأمن الربح للتاجر، فيصبح أكثر وداعة من الخروف، يطيع الراعي، الذي يسمنه، ولا يفكر أنه يهيئه للسلخ (37)

وإزاء التركيـبة الاقتصادية المتباينة، يظل هاجس الشعور بالفقر وتباين الناس وفـق المدخولات الاقتصادية عاملاً مؤرقاً لحياة الإنسان العراقي، خاصة "البغدادي" الذي يبقى مؤمناً بأن " بغداد راح تظل صوبين واحد للمسعدين والثاني لغيرهم" (38).

لقد فرض الوضع الاقتصادي عبئاً ثقيلاً على المجتمع العراقي الذي أخذ أفراده الالـتفات إلـى الأماكن العامة، فباتت المقاهي كـ "قهوة الشط والكمرك وغيرهما" أمكـنةً خصبةً تنبت فيها الأحاديث التي ينصرف جلّها إلى نقل الروايات والحوادث

اليومية ، والتعريض ، والسخرية والاستهزاء بضعاف النفوس، وهذا الأمر لم يظهر لـدى منـيف فـي تناولـه لمجتمع "مدن الملح" كما يرى أحد الدارسين "فقد أصبح المجـتمع أقـل ميلاً لقضاء أوقاته بالأحاديث والجلوس حول القهوة، وإنما اشتغلوا بالـتجارة وبـناء المشاريع، وجمع المال والدخول في مضاربات، وشراء عقارات وأراض " (39)، وسيُصـار إلى تناول الجانب الاقتصادي في فقرة منفصلة في مكان لاحق من هذا البحث .

ظـل مجـتمع "أرض السواد" وفيّاً لمعتقداته وقيمه الاجتماعيّة التي ورثها عن الآباء والأجداد، فلم تدفع الحاجة الملحة العراقيين إلى التخلي عن مقتنياتهم الشخصية التـي تعكـس مفـرداتها معاني وذكريات مقدسة في حياة الفرد العراقي؛ فقد "ظلت الخيل ذات مكانة مرموقة في نفسية العراقي – وإن تخلى عنها البعض – فقد أصبح أكـثر تمسكاً بها، يتحمل بسببها عظّات الجوع، وإلحاح الحاجة، كما أصبحت مقياس العِفّة والمكانة الخلقية، فهي وفق منظور حسون – أحد شخوص الرواية – "... مثل البنات، إما ترفع الرأس أو تطمسه بالوحل" (40) . ولا يقف موقع الخيول العربية في ذاكـرة العراقيـن عند هذا الحد بل تعكس لهم ذكرى دائمة بأناس فقدوهم، وهذا ما يدعـو المواطـن العراقـي لمواجهة طلبات التجار الذين يودون الحصول على هذه المقتنـيات الاجتماعـية إلـى العصبية والثورة غير المسبوقة التي تنتاب أحاسيسه ومشـاعره (41)، ولـم يقـف الأمـر عند ذلك بل في كثير من الأحيان بدت الخيول "صورة إنسانية" يقدرها صاحبها ويبذل كل الجهود المضنية في سبيل إرضائها، فكما يقـول بـدري بحق حصانه: "العصا لمن عصا، ومهيوب لا يستاهل الضرب حتى بوردة" (42) .

إن مـنظومة القـيم الاجتماعيّة التي يتناولها منيف في طرحه لمجتمع "أرض السـواد" لا تقـوم علـى الرتابة والثبات، بل هي قيم إنسانية متغيرة وفق الأحداث والـتحولات التي تصيب الفرد أولاً ثم سرعان ما تنتقل إلى المجموع، لذا فقد رصد المجـتمع الروائي جانباً كبيراً في هذا المجال، ولا سيما مسألة صراع الأدوار وهي مسـألة تـبدو جلـية في المجتمع، أو على وفق "بارسونز" "أن الفرد يقوم في إطار الـنظام الاجتماعـي الـذي يعـيش فيه بعدد من الأدوار الاجتماعية قد يكون بينها

الاخـــتلاف والاختلاط والتعارض، ويحدث الصراع عند تعارض الأدوار واختلافها وتناقضـــها" (43) . وطبيعي أن يرصد منيف هذه الظاهرة، إذ إنَّ الفرد العراقي كان فـــي حقـــبة من الحقب التي يجابهها ضمن مجتمع الرواية يعاني الانقسام والتناقض الـــذي تـــناول العديد من شخوص الرواية، إذ شكلت هذه القضية هاجساً كبيراً في نفســـية "بـــدري صــــالح العلو" الذي أخذت الحيرة تنتابه من وقت إلى آخر فالحب الجـــارف الـــذي تملـــك نفســـه تجاه "نجمة" رغم المكانة الدونية التي تحتلها بسبب ممارســـتها الرقص والسلوكيات المتحررة، جعل بدري يقف على مفترق طرق بين حـــبه غـــير المتوقع ، والمكانة الوظيفية والسمعة الاجتماعية التي يمتلكها (44)، وقد جـــاء الـــرد الاجتماعي جلياً من خلال ما تلفظ به "سيفو المحمود" الذي أكد أن "ابن الصــــالح العلو مخبّل، أكيد مخبّل وواحد مثله ما يجي بعيني وآغاتي، يجي بجرة إذن وعين حمرا، وما أكون سيفو إذا ما خليته يجوّز من هالـــ..." (45) . إن صراع القيم والأدوار متبدٍ بشكل جلي في حياة مجتمع "أرض السواد" وهذه القضية لازمت بدري فـــي معظـــم أدوار حياته، فظل متنازعاً بين دوره ضابطاً في السراي وإلحاح الوالد علـــى ضـــرورة عودتـــه لمهـــنة الآباء "التجارة، إذ حاول إقناعه مستشهداً بأقوال المثقفيـــن":- "لا تقرب السلطان أو الوالي، إلا كما تقرب الأسد فإن طاوعته أتعبك، وإن خالفته أتعبك"(46) .

فـــي المـــراحل المـــتقدمة مـــن مسيرة "أرض السواد" يثبت منيف أن مجتمعه الروائي ينبثق "عن درجة عالية من التجانس الثقافي الذي يمكن القول معه بنوع من المجـــتمع المتـــنفذ والمتكامل من حيث الوظيفة السوسيولوجية؛ مجتمع يحكمه نسق اجتماعـــي واحد وينهض على آليات الاعتماد الفردي المتبادل بين أفراده وجماعاته وشـــرائحه الاجتماعـــية المختلفة، وهذا الاعتماد لا يخلو من توتر، ولكنَّ توتراته لا تـــبلغ درجة الصراع ..." (47)، ففي ظل التأزم الإنساني يبقى الإنسان العراقي مؤمناً بالـــتوحد واللحمة الاجتماعية إذ لا غنى للفرد عن الجماعة، فكل إنسان في المجتمع مـــنوط بـــه دور محـــدد عليه القيام به، ويتجلى هذا المبدأ الإنساني في قول الأسطة عـــواد ": هاي الدنيا، وهاي بغدادنا: الواحد للثاني، ولولا حسون وأمثال حسون جان

خربـــت، جان فنيت، لكن الدنيا أبد ما تخلى، فيرحم البطن اللي جاب هالابن الحلال .. حسون" (48) .

لقـــد بدا المجتمع العراقي يعي الأخطار المحيطة به والتي معها يبدو الإحساس بالوحدة دافعاً قوياً وهذا التحول الاجتماعي بدا ملموساً على لسان الآخر "عجيب أمر أهـــل بغـــداد، يحـــبون بإسراف، ويكرهون بإسراف، ولا أعرف لماذا تغيروا بهذا المقـــدار، خـــلال هـــذه الفترة القصيرة" (49). وفي خضّم الخطر الذي يتهدد الوطن "العـــراق" يـــتخلى الفـــرد عن مصالحه الفردية؛ ليجسد صورة صادقة من الوطنية المخلصـــة تجاه الأرض التي يعيش عليها، فقد اتخذت الدموع التي يذرفها الفرد في نهايـــة الرواية جانباً من الفرح الإنساني، ولا سيما للمثقف الذي تجسد تحرير وطنه بالبكاء "ما كو أحد يبكي حسون، بس بكا عن بكا بفرق ... وأنا اليوم فرحان" (50) .

7.1 الحلم وسيلة لإبراز السعي نحو التغيير والتحرر :

يعـــد الحلـــم الإنســـاني ملمحاً بارزاً في حياة الإنسان الذي يحاول تمثله في ميادـــين حياته المختلفة، السياسيّة، والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وهذا ينسجم مع رؤية "جاســـتون باشلار"بأن الحلم قدر الإنسان يسكنه ويلازمه ولا يقف الأمر عند ذلك بل يعده عصا الإنسان السحرية التي تسلطه عمًا يشاء وتمكنه ممّا يشاء (51) . ولا يقف الحلم الإنساني عند ذلك بل يبلغ حالة من السمو والتقديس، وفق رؤية "سلامه موسى" مـــتجاوزاً بذلـــك حالـــة النعـــيم والسرور التي يحققها (52)، و"أرض السواد" تشمل مســـتودعاً مفعمـــاً بـــتطلع الإنســـان نحو التغيير على وفق الظروف التاريخية التي يعيشـــها، إذ يدخل عبد الرحمن منيف من خلاله إلى البيوت العراقية على اختلاف مســـتوياتها الاجتماعـــيّة والمعيشـــيّة، مصوراً وناقلاً دقيقاً لتفاصيل حياة الإنسان، ولاســـيَّما الصـــانع الحقيقـــي الـــذي ينسج الأحداث والوقائع، وما منامات العراقيين وأحلامهـــم إلا جزء مقدس يمثل لهم هروباً من الواقع الذي آلمهم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، علهم في ذلك يرسمون واقعاً جديداً ينافي حاضرهم المرفوض كلياً، وهذا الأمـــر يـــبدو من المسلمات الثابتة انطلاقاً من قول منيف نفسه:."إنما مفهوم الرواية

بشكل عام، وقيام الرواية مرتبطان بالتناقضات، بعملية التغيير، بالاختلاف بين الواقع والحقيقة (53).

غطّى الحلم مساحة من "أرض السواد" بدءاً من نفسية الحاكم السياسي وانتهاءً بالإنسان العادي البسيط الذي لا يكاد يملك قوته إلا بشق الأنفس، وهكذا فإن كلّ فردٍ في عالم الرواية، يرى في حلمه واقعه المنشود الذي يسعى إلى تحقيقه، وإن فشل في ذلك، فإن الحلم يبقى لديه دافعاً قوياً للأمل والإقبال على الحياة .

إن الإنسان العراقي مليء بالأماني والأحلام التي يستوي فيها الحاكم والمحكوم؛ فداود باشا تنتابه بين الفينة والأخرى هواجس وأحلام كبيرة، لعل جلها يتصل ببناء الدولة العراقية، وهذا الهم اليومي ينطبع في مخيلته، فينعكس صورةً حقيقيةً في المنام، فطيف " محمد علي " لا يفارق وعي الباشا، ويقدم الحلم دافعاً حماسياً له، مشجعاً على بناء عراقٍ جديد يشبه مصر(54)، ولا بد لنا أن نظفر بحالة من التنافر بين الواقع والحلم، وهذا ما يلمس صراحة على لسان الراوي، فعندما كان الباشا يحلم ببناء دولة تشبه دولة الإسكندر الكبير قوة ومساحة جغرافية، نلمس اعترافاً صريحاً وتدخلاً سافراً من قبل منيف على لسان الراوي –كان الحلم يصطدم بالواقع الذي يبدو في نظره داءً يسيطر على الناس في بغداد دون غيرها من المواقع(55).

لا يقف الحلم الإنساني عند حدود الأمل والثورة الصامتة على الواقع القائم بل يتجاوز ذلك إلى ما يشبه البحث عن الحرية إزاء أناس يمارسون القهر تجاه المجتمع الإنساني، وما حديث الأسطة إسماعيل وتخيله الحمامة التي جاءت لتخبره بمصير"سيد عليوي " موتاً محققاً ما هي إلا تفريغ لكبت نفسي عميق(56) . والحلم الإنساني لا يتناول أفراد المجتمع العراقي وحدهم في "أرض السواد"؛ لأنه ليس حصراً على أحد يتحكم الإنسان بامتداده ومساحته بل يلامس الحلم نفسية المستعمر وأعوانه، ولذلك نرى "سيد عليوي" ينظر إلى المرآة، وقد تخيل نفسه الحاكم المطلق للعراق، فيكون حلمه تجسيداً لحلم المستعمر الذي يرى نفسه المتحكم الأوحد في مصير العراق بإنسانه وثرواته الطبيعية .

وأحياناً يعكس الحلم الفردي في "أرض السواد" حالة من تخليد الذات وتميزها، وتعبيراً عن الاعتداد والزهو، فنجد أنفسنا أمام إنسان عراقي يمثل النرجسيّة ملتفتاً قروناً إلى الوراء معتزاً بذاته وقدراته الفردية، ويبرز لنا هذا النمط الإنساني في شخصية "ناطق أفندي" الذي نقله حلم اليقظة إلى مقابلة السلطان العثماني، لبيان الخطر الذي يهدد العراق جراء الوجود الإنجليزي في المنطقة، وبهذا النموذج الذي تتجلى فيه النزعة الفردية، يقدم عبد الرحمن منيف صورة من صور المقاومة الوطنية التي يحاول من خلالها بث الوعي واليقظة في نفسية المقاوم العراقي إزاء ما تتعرض له المنطقة العربية من مخططات استعمارية لا تنتهي .

إذا كان الحلم تجسيداً لقدرات الفرد، وبيان دوره في مسرح الحياة السياسيّة والاجتماعيّة، فإنه يشكل صورة لسلاحٍ يجد فيه الإنسان حداً من حتمية القدر، انطلاقاً من ضعف الأيدولوجيا الدينيّة أحياناً أو إيماناً بمخلفات خرافية وأسطورية جسدها الأجداد في عقول الأحفاد ، ولا بد من الإشارة إلى أن الحلم الإنساني لم يكن اتجاهاً جديداً في "أرض السواد" بل نلمس توظيفاً واضحاً لهذه الظاهرة في روايات منيف الأخرى، فلا يكاد عمل روائي يخلو من هذا المظهر الإنساني، وهذا ما تجسد على لسان أنيسة في رواية "شرق المتوسط" التي عبرت عن ذلك بقولها :-"حلمت أول أمس أنك خرجت من السجن .... لم تخرج ماشياً، خرجت على نقّالة إسعاف، تصوّر يا أخي لم أستطع أن أذوق طعاماً منذ أول أمس، وطوال الليل أبكي" (57) فقولها دليلٌ ناصعٌ على استثمار الحلم في الكشف عن مظاهر القمع والكبت والحرمان، والتبشير بالحريّة .

إنّ ظاهرة الحلم وتوظيفه ليست مقتصرة على "أرض السواد" دائماً، وإنما تعد ظاهرة قديمة وظّفها منيف في "شرق المتوسط" و"الأشجار واغتيال مرزوق" و "النهايات" وغيرها، فمثلاً نشيرُ هنا إلى حلم إلياس نخلة بزوجته الذي عبّر عنه بقوله"وبدأت حياتي تتعكر من جديد، ولكن حنه تعكرها هذه المرة، لأن الطيف بدأ يزورني كل ليلة" (58)، وينطبق على آلية تشكيل الأحلام في "أرض السواد" والمعاني التي يفرزها الحلم ما يقوله أحد الدارسين:- " أن الأحلام في روايات منيف تحمل معنيين الأول:- يتمثل بحلم الليل الذي اقتبس من الليل سواده، ومثّل زيادة في حزن

الأبطال، ولم تقف شخصيات منيف عند ذلك، بل تعدتها إلى ما يسمى بأحلام اليقظة، وهي كثيرة متنوعة المعاني والأشكال والأجواء(59).

فــي ظل ما تقدّم نظفر في "أرض السواد" بحالة جديدة من الحلم الإنساني، وإن امــتزج مــا بيــن الليل واليقظة، فيظهر الحلم كحالة للهروب الإنسانيّ من الواقع، والقارئ لمجتمع الرواية يحس أنين الشخصية من خلال ركضها وراء الحلم للتمسك بــه، فهــو لــم يعد يشكل إرهاقاً بل فضاءً من الحرية تحاول من خلاله، بث الأمل والإقبال على الحياة من جديد.

8.1 المرأة والأسرة :

إنّ ظهــور المــرأة في روايات عبد الرحمن منيف، ولا سيّما المرأة العربية أصــبح مــن المسـلمات الأساسـية؛ نظراً لما تحتله من مساحة كبرى في الحراك الاجتماعــي، فهــي كمــا يرى الكاتب نفسه "كائن إنساني له حاجات ومتطلبات فإذا قمعـت هــذه الحاجات أو غطيت بهموم من نمط مختلف، فلا بدّ أن تعبّر عن نفسها بشــكل غــير مألوف"(60)، ويقدر عبد الرحمن منيف صراحة وجود ثلاثة أنماط من تشكيلات المرآة، أولها المرأة المتجبرة المسيطرة ويتمثل هذا النموذج بالنساء اللواتي يــتخذن مــن مهــنة العرافة، وقراءة الحظ صوتاً لإيصال كلمتهن ، وتحقيقاً لوسائل العــيش والــراحة الاجتماعيّة، ويوظف منيف هذا النمط الإنساني في روايته "أرض السواد" إذ تمثل "مزيونة" بعداً اجتماعياً مهماً من خلال ما تقدمه من مخططات عامة تــتعلق مثلاً بمعايير المؤسسة السياسية العراقية؛ وفقاً لما طلبه منها "داود باشا" الذي آمن بدورها دون النظر لتشكيلها الإنساني –حسب ما يرى – فهي بهذا الدور تسجل تضــحية وطنية تتمثل ببيان المخاطر والفتن التي تهدد العراق أرضاً وإنساناً، ويبدو صــوتها مسموعاً من خلال قولها الآتي، الذي يكشف عن مراوغة تفصح عن رغبة فــي إراحــة الوالي عن طريق الإرجاء "تواجه أعداءً كثيرين، تتغلب عليهم، لكن لا يهــدؤون، فــإذا مر ربيع ثم صيف، وجاء الربيع الثاني فأيامك عز طويل"(61)، ولا يقف هذا النموذج النسوي عند "أرض السواد" وذلك لأن عنصر العرافة وقراءة الحظ لا يقــف عــند حــدود مجــتمع إنساني معين بل هو متأصل في حياة الشعوب على

اخــتلاف مســتوياتها الثقافــية والحضارية، فقد ظهر جلياً في "الأخدود" من خلال شخصــية "أم زهــوة" التي أخذت تمارس سيطرتها من خلال العرافة والسحر وذلك التاريخ الخفي الذي يكوِّن ذاكرة مجتمع معين (62).

ومــن الصور التي يرصدها منيف في أعماله الروائية "المرأة المكافحة التي تحــاول بكثير من الدأب والجد، التغلب على قسوة الحياة أملاً في تحقيق لقمة عيش كــريم لهــا ولأســرتها، وفــي اعتقادي أنّ "أرض السواد" لم تقدم النموذج النسويّ الــثوري، إذا اســتثنينا بعض الحالات العارضة التي تمثلت في شخصيتي "روجينا ونجمــة وغيرهما" وهذه النماذج النسائية مثلت ثورة على قيم المجتمع وتقاليده ولعل فــي ثورتهــا انعكاساً حاداً تجاه قسوة الحياة والزمن، الأمر الذي مهد الطريق إلى بــروز حالــة غــير مســبوقة تهدف إلى هدم منظومة القيم الأخلاقيّة، ولعلّ موقف المجــتمع العراقــي بحكم قوانين التقاليد والأعراف الاجتماعية حال دون ظهور هذا النمط من أنماط المرأة، نظراً للفترة التاريخية التي يدور في فلكها مجتمع الرواية بل علــى النقــيض مــن ذلك، ظهرت المرأة وحيدةً تسيطر على مشاعرها تجاه غربة المجــتمع المحــيط بها إذ أصبحت تمتهن التسوّل الذي بدأ بدعوى البحث عن حقوق ضــائعة فــي ظــل فقدان المعيل والدخل الكافي الذي يسد رمق الحاجة ويغني عن الســؤال، ويــتجلى ذلك في حياة "زينب كوشان" فقد بدا موقف المجتمع متبايناً تجاه قضــيتها متنازعاً بين العطف والحزن تارة وبين السخرية والتهكم تارة أخرى، فمرةً تؤمــن بعدالة القضية التي تؤرق حياتها، وأحيَاناً تجد أنها تبحث عن سراب وكل ما تملكــه من ذلك سخرية الأطفال اليومية" (63)، والمرأة هنا وإن بدت مستسلمة لقدرها إلا أنهــا فــي نماذج روائية أخرى لدى منيف تبدو على قدر من المسؤولية واحترام الــذات، فمصائب الدهر جعلت من "أم حسني" في رواية الأخدود نمطاً حياً للمرأة التي لم تستسلم لقدر الواقع الأمر الذي دفعها إلى حالة من التنقل والترحال الطويل، بحثاً عن مصدر رزق كريم؛ يعفيها من مذّلة السؤال (64).

ومــن النماذج التي يقدمها منيف في أعماله الروائية " المرأة النرجسيّة" التي تجعــل مــن جســدها، وسيلة لجذب الآخرين، تحقيقاً لرغباتها التي تسعى للحصول علــيها، وتبرز "أرض السواد" أثناء رصدها لعمليات التفاعل الاجتماعي نموذجا حيا

لذلــك، فقد مثلت بيوت اللَّهو مكانا خصبا لطلاب الهوى الذين كان جلهم من رجال السياســة والقادة العسكريين، فكانت أشبه بالمنتديات السياسية التي يتناول فيها هؤلاء مســيرة الدولة وخططها المستقبلية بعد أن أخذت دولة الخلافة الإسلامية بالتهاوي، ولــم يكــن دور هــذه البيوت يقف عند ذلك، بل وظف أفراد هذه البيوت من خدم وحراس عيونا استخبارية تلاحق المتمردين على نظام الدولة، وفي هذا الاتجاه يؤكد منــيف أن غــرف النوم تشكل المكان الأمثل لإصدار القرارات السياسية في مناطق الشــرق، فروجيــنا والبنات اللواتي يعملن على خدمتها، ما هن إلاّ دليل بارز على مــدى الخطر الذي يدبره المحتل تجاه الأمة العربية، ولا ريب أن يلقى هذا النموذج النســوي رفضا من المجتمع، ليس لما يمثله من سلوكيات طارئة على القيم والتقاليد المحافظــة بل لتعاونه مع المستعمر، ففي الوقت الذي يعتريه الوهن يستثنى حتى من قــبل الداعمين له، اذ لم يعد يجدي نفعاً، وما حديث "سيد علوي" حول مقتل نجمة الا دليل على ما تعانيه هذه الأنماط الإنسانية من قهر اجتماعي وأخلاقي شديد . (65)

تعــد الأســرة كمــا تشــير الدراسات الاجتماعية "اللبنة الأساسية في هيكل المجــتمع، وهــي النقطة الأولى التي بدأ منها التطور، تبعا للوظائف المختلفة التي تؤديهــا للمجتمع، لتعزز عرى التواصل والتوافق بين أفراد المجتمع" (66) وليس ثمّة مــن صــعوبة لدى القارئ في التقاط هذا الدور، ولكنه دور يختلف باختلاف الطبقة الاجتماعــية التي تنتمي إليها الأسرة، فضلاً عن اختلاف الوعي الذي تمتلكه الأسرة والهــدف الذي تسعى إلى تحقيقه، فالأسرة الحاكمة تبدو في الرواية متعددة الأفراد، ولعــلَّ مــرد هــذا التعدد نابع من حرص الحاكم الأكيد الذي يرى في كثرة الأبناء وتعددهــم عنصــراً مهماً يحفظ من خلاله "كرسي الحكم" . وهكذا تبرز الأسرة ذات أهمية كبرى؛ إذ ينظر كثير من الدارسين إليها انطلاقا من كونها" نظام مركب معقد، وهــي تــنظم له بــناؤه ووظائفــه، ومــن ثم فإنها تؤثر وتتأثر بالمناخ الاجتماعي والاقتصــادي والسياســي (67)، ونتيجة هذه الغايات والمبررات المعقدة، يقدم منيف صــورة صامتة، للمرأة التي لا تبدي صوتا مسموعا، إزاء ما يهدد رغباتها وبنائها الأسري ومكانتها الاجتماعية، وقد يشفع لهذا النمط من النسوة صلة القرابة بالحاكم، فالخــاتون آمنت دوماً أنها جزء مهم في حياة "داود باشا" بل تجاوزت ذلك، لتعطي

نفسها الأحقيَّة في هذه المكانة الاجتماعيّة؛ لأنها ابنة سليمان الكبير الذي بنى العراق، وأسس لمكانة اجتماعيّة كبرى لولاه لم يكن لداود أن يحتلها الآن (68).

لا يمكـــن القـــول أن المـــرأة العراقية وفق ما تقدم باتت في "أرض السواد" عنصـــراً مغيـــباً بحكـــم منظومة القيم والتقاليد الاجتماعيّة التي تقيد عملية الحراك الاجتماعي، بل على النقيض من ذلك فقد كان للمرأة العراقية وضمن إطار مجتمعها الـــذي تعيش فيه يدٌ طولى في مسائل تشكيل البنى الاجتماعيّة ولا سيما مسألة زواج الأبـــناء والبـــنات التي تعد من اختصاص المرأة دون غيرها، وصوتها هنا مسموع الأمـــر الذي دفع "بدري" بعد الإلحاح المتكرر بضرورة الزواج، والانصياع لرغبة الأم لـــيس بالموافقـــة على فكرة الزواج بل الرضا باختيارها (69) وان تعددت آراء الأسرة ومقترحاتها فمن خلال حراك "أسرة بدري" يسلط منيف الضوء على العادات والتقالـــيد الاجتماعـــيّة التي تسود المجتمع العراقي في مسألة عقد القران، إذ تكمن قضـــية اختيار الزوجة وفق ما تتحلى به من جمال ومال ومكانة اجتماعيّة مرموقة، الأمـــر الـــذي يجعل الرجل في مجال ملائم لإجراء عنصر المفاضلة والتمايز الذي يكسر مستقبلاً أي مجال لقضية عدم التكافؤ والانفصال الأسري .

9.1 التراث والأغاني الشعبية في مسيرة المجتمع العراقي :

يعد الغناء على اختلاف أنماطه وأشكاله جانبا مهما في حياة المجتمع الإنساني بل يتجاوز ذلك في كثير من الأحيان ليظهر بمثابة الهوية التراثيّة والحضاريّة التي تعكس مدى رقي المجتمع وتقدمه، وهكذا فقد بات من الطبيعي أن يرصد منيف هذه الظاهـــرة فـــي عمله الروائي والتي من خلالها يضعنا في صورة المجتمع بعاداته وتقاليده التي تحكم إنسانه .

إنّ حالـــة التـــنوع الإنساني التي يرصدها منيف تنعكس على جميع الجوانب الحياتـــيّة التي يتناولها المجتمع من ثقافة واقتصاد وكذلك الفنون الإنسانية المتنوعة التـــي يشـــكل الغـــناء فـــيها جانـــباً مهماً؛ إذ نقف أمام سجلٍ عراقي متنوع وثري بالمصادر والروافد، حيث يدخل منيف القارئ إلى مجتمع "أرض السواد" ولا سيما بـــيوت الغـــناء والترفـــيه التي شكلت جانباً مهماً في مسيرة التحولات الاجتماعية

والسياسـية داخـل المجـتمع، فالغناء لم يكن يقتصر على المسلمين بل تعداهم إلى الأقلـيات المخـتلفة "كالـيهود وغيرهم" فقد كانت "سلطانة رجوان" أبرز من يغني "البستة" في الحفلات، وهنا يرافق الغناء مراسم خاصة بهذه الطوائف فمثلاً حفلات الزواج تخضع لسلطة الدين إذ يقوم "الحاخام" اليهودي بمباركتها (70) وهذه البيوت التي تبدو في ظاهرها أماكن للتسلية والترويح عن النفس، لا تقف عند هذا الحدّ بل تقتحم السياسة أبوابها، وذلك لما تمثله من مكان آمن وموطن خصب لرجال الدولة الفاريـن مـن قبضة السلطة، إذ تبدو غنية بعنصرين مهمين هما الخمرة والجنس، فمـن خـلال الخمرة يستطيع هؤلاء أن يخلقوا لأنفسهم عالماً خاصاً، أما الجنس : فيمـثل جانباً من عودة الثقة إلى النفس، وإطفاء العجز الناجم عن الحقد في مجالات أخـرى (71). ولا بـد من الإشارة إلى دور الأغنية الشعبية في حياة العراقيين التي تحمـل أحـياناً طابعاً يمتاز بالحزن والحسرة يواري بها الإنسان موقفه من السلطة والأوضاع الاقتصادية الصعبة التي يمر بها من حين لآخر (72) .

10.1 تآلف النسيج الاجتماعي :

لعله من الغني عن البيان القول إن المجتمع العراقي يتشكل من شرائح مختلفة مـتعددة بـل ومتبايـنة مـن حيـث اللغـة والطائفة والمذهب، بيد أن هذه اللوحة الفسيفسـائية، على الرغم من تعقيدها وتنوعها – ظلت على مدى العصور – باعثاً مـن بواعـث التلاحم والغنى الثقافي والاجتهاد الفكري، والتنافس في العمل وغيره، ويرشح هذا البناء الاجتماعي مفهوم الوحدة في التعدد، وثمة عوامل مختلفة مرتبطة بـتطور الظـروف السياسية والاجتماعية تعمل على وحدة هذا النسيج الاجتماعي، وتحاول هذه الفقرة الإشارة إلى بعض عوامل التوحد :

أ- الإنسان في مواجهة الطبيعة :

تمـثل الطبـيعة عنصراً أساسياً في حياة الإنسان، فهو محاصر بعناصرها، ولابُـدَّ له أن يدخل معها حرب بقاء واستمرار، فالإنسان "يصارع الفناء، يكافح من أجـل الـبقاء، يغالـب الجـوع، يتقي البرد، وحياته كلها حرب مع الموت، ولكن انتصـاره مؤقت، ثم يدمره الزمان الذي ما انفكّ يعمل في جسده إتلافاً " (73)، وأمام

هــذا القــانون الطبيعي المعقد، فإنّ المجتمع الذي يرصده منيف ليس مجتمع أفراد، تسـيطر علــيه الــنزعة الفردية، وليس مسكوناً بهاجس الأنانية، وإنما هو مجتمع متكافل يتجسد الفرد فيه عضواً في جسد واحد، بصرف النظر عن التكتلات القبلية والطائفية التي تشير إليها الرواية بين الفينة والأخرى .

ولعــلّ أبرز لحظة تتوحد فيها المشاعر، وتتآلف فيها الآمال والأهداف هي لحظــة الضيق والحصار، سواءٌ أكان ذلك من الطبيعة أم من تدخُّل الأجنبي – كما ســنرى– فــإذا مــا أنّ شخص في طرف من أطراف المدينة، أحست به الجماعة الإنسانيّة وما يلم بشخص يلم بالآخرين إحساساً لا واقعاً، والمجتمع الروائي مجتمع مــتوحد الأحاسيس والمشاعر، إزاء الطارئ رغم اختلاف المشارب والأصول؛ إذ نلمــس فيه العربي وغير العربي، وتحت ذلك تتدرج دوائر عدة من التنوع الفكري والعقــائدي، وهــذا ما لا يمكن حصره، فــ "عبد الرحمن منيف" يحاول أن يسمو بالمجــتمع العراقي رغم ما نلمسه من مشاحنات وخلافات في الرأي تكاد تقوم على أسس دينية وعرقية متنوعة .

يــتجلى صــراع الإنســان مع الطبيعة في "أرض السواد" – مثلاً – ضمن مواجهــة حركة الفيضان السنوية، ويبدو صراع الإنسان العراقي مع هذه الظاهرة معلقــاً، إذ تــتأرجح الطبــيعة بين الانتصار والهزيمة، ويتجسد الصراع بملامحه المــتعددة عــبر عنصر مكاني، يحتفل منيف به أكثر من غيره ويتمثل "ببغداد" ولا سـيما بجناحــيها "الكــرخ والرصــافة" – الشاهد الحي والحقيقي لمسيرة الأزمات والكــوارث التــي مرت بالإنسان العراقي عبر مسيرة زمنية طويلة، وفي صورة الــتلاحم الأســطوري المقدمــة روائــياً، يثبت منيف أن المفردات السلبية المتمثلة "باجتماع الفيضان والأغراب والظلام" تصبح أمراً قابلاً للحلّ وحافزاً للتحدي وهذا يتفق مع ما ذهب إليه أحد الدارسين في سياق مختلف (74) .

فالإحســـاس ليس فردياً؛ نظراً للمساحة الجغرافية الكبرى التي يهددها الفيضان الأمر الــذي يؤكــد أن الخطر المائي لا يتناول أفراداً بعينهم بل يهدد مجتمعاً إنسانيا كاملاً بكــل أفراده ومنجزاته الحضاريّة، وهذا يتناغم إلى حداً ما – رغم وجود اختلافات ملموســة – مــع رؤيــته عــند حديثه عن الطيبة التي تشكل في روايتي " الأشجار

واغتــيال مرزوق " و " النهايات " موطن العذاب والألم والتحدي، ولا تبقى كذلك بل هــي رمز الأرض العربية التي لا يتخلى عنها أولئك الذين يفتتون بالأرض ويمدون جذورهم فيها (75) .

إن التشــابه يــبدو جلياً فيما يعانيه الإنسان العربي هنا وفي مناطق أخرى من قحط وعذاب ومكابدة ومقارعة لسنيّ المحل، وعظات الجوع وتفجر الفيضانات، بيد أن التشــابه بين بغداد والطيبة وغيرها يبدو مفارقاً في نتائجه على الرغم من التشابه في المعاناة، ولعلّ منيفاً لجأ إلى ذلك ليكسب مكانه المحبَّب نوعاً من التفرد، وإنسانه الشــاغل لهــذا المكــان المتشكل فيه نوعاً من القوة والفرادة، وإذا كانت الروايات الأخرى ترصد أشكالاً متعددة من النهايات للإنسان والأشياء والحيوانات، وإذا كانت "الــنهايات " تبشر رغم الموت والتلاشي بمستقبل مشرق آمن، فإن "أرض السواد " ترصد حالة من التوحد الفريد بين الجماعات من جهة، وبينها وبين الأرض من جهة أخــرى، إذ تظل الأرض – العراق – هي علة وجود الأشياء والناس وسبب البقاء، ومجمع السعادة والشقاء .

لقــد أظهر الإنسان العراقي – بمختلف انتماءاته السياسيّة والعرقيّة والمذهبيّة– توحــداً كــاملاً ابــتداءً من رأس الهرم السياسي " داود باشا " الذي أخذ لسانه يلهج بكلمات الحماسة، وبث الهمة في نفوس جنده حتى يتخلص العراقيون من هذا الخطر القــاتل، وانتهاءً بالإنسان البسيط الذي آمن على مضض بضرورة التوحد مع النظام السياســي، لا ســيما وأن الخطــر يســتهدف الإنســان بغض الطرف عن تركيبته الآيديولوجيّة ومواقفه المؤجلة .

إن الفيضان المائي بكل ما يحمله من مفردات السّلب، استطاع أن يحرك الناس ويخرجهم عن طباعهم العامة، الأمر الذي يبدو جلياً وفق التغيير الذي ألمّ بحياة الجند فسرعان ما يلبون النداء الوطني؛ لأن الخطر يستهدفهم مع غيرهم، فتتغير الأولويات لديهــم، ويختلف الولاء آخذاً بالتنامي فيكون موجهاً للأرض والإنسان معاً(76)، وإذا كــان الفيضــان رمزاً للخوف الآسر الذي طوق حياة المجتمع إلا أنه بدا في أعين بعض الأفراد نمطاً من التحدي، وهذا يؤكد أن ردود الأفعال تجاه تحركات الطبيعة لا تــبدو واحــدة، بحيث ينصاع المرء لهيمنة الطبيعة وقسوتها، بل على العكس من

ذلــك، نجد أن الطبيعة تخلق بقسوتها شكلاً فريداً من أشكال التحدي، نرصده بجلاء في مجال أعمال منيف الروائية "كالنهايات ومدن الملح"، ولا نستثني من ذلك "أرض الســواد" حيــث يكون الفيضان سبباً من أسباب القوة، والاتكاء على الذات والشعور بأهمــية الإنســان، ولا يقف الأمر عند ذلك بل يدفع المرء أحياناً إلى الإصرار على الحياة وديمومة الامتداد البشري (77).

يقــدم منيف من خلال توظيف صورة الفيضان المائي، روائياً، مبدأً إنسانيا، يتمثل في قتل المحلية الضيقة والجهوية، فالخطر الذي يواجهه العراقيون لا يقدم فئة اجتماعــية علــى أخــرى، أو بقعة جغرافية على غيرها، لذا فقد تجلَّى التجانس بين الأرض والإنسان والنسيج الاجتماعي الجغرافي في أبهى صورهِ،" فسكان الكرخ بما حباهم الله به من موقع جغرافي يقيهم الفيضان القادم، لم يثنهم عن الشعور بالحزن، والإســراع لنجدة أهلهم"سكان الرصافة"، دون النظر لاعتبارات مكانية وفكرية(78)، وفــي هذا الوصف الدقيق للبنى المكانية وطريقة انسجامها، يقرر منيف جازماً نجاح المــبدأ الوحــدوي، وهــذا ما أثبته التاريخ الإنساني، فالعراق الذي احتوى فعاليات إنسانية متعددة " الأرمن والأكراد والآشوريين " ظل جزءاً واحداً غير قابل للتقسيم .

إن الفيضــان بكــل سوداويته وسلبيته ساهم في الحفاظ على البنية الاجتماعيّة التي أسهمت المرأة فيها بشكل أساسي، فهي تقف إلى جانب الرجل، لأن مصير كل مــنهما مــنوط بالأخر، وجهدها في مواجهة الفيضان لا يقل عن جهود الآخرين؛ إذ يأتي وفق تركيبها الفسيولوجي، الذي تمثل بإعداد الطعام للعاملين وبث كلمات الهمة والعــزيمة فــي نفوسهم (79)، وتؤكد هذه الأدلة أن صوت المرأة مسموع هنا، ولها حضور بارز في منظومة الحراك الاجتماعي في حين يبدو هذا الحضور غائباً لدى منيف ولا سيما في روايتي "النهايات" و "مدن الملح"، فيختفي صوتها في "النهايات"، ولا نجد لها حضوراً بارزاً إلا في جنازة "عساف"، وقد جاء هذا الحضور منقولاً من خلال السارد كلي العلم وليس عن طريق سماع صوتها المباشر.

ومن الصور التي تتزاحم في ذاكرة منيف أثناء رصده مجريات حراك النّاس فــي مواجهــة الفيضــان "الــتجانس الفكري بين الأجيال "، فالشباب الذين وظفوا ســواعدهم وقوتهــم المتدفقة في مواجهة الفيضان، كانت تحركاتهم مستمدة من آراء

كبار السن، وهذا التآلف الفكري، يعد محاولة من منيف لردم الفجوة الثقافية، وإزالة ما اصطلح الدارسون على تسميته بصراع الأجيال، فصوت كبار السن يبقى مسموعاً في مجمل أحداث الرواية، فقد استطاع هذا الصوت أن ينجح في مواجهة الفيضان ويوفر الأمن لموعد مؤجل، غير أن هذا الصوت يبدو نمطاً مغايراً لدى منيف في "النهايات" فرغم الاستعدادات التي خطط لها المسنون إلا أن قرار الطبيعة جاء صارخاً وكان أن "بدأت إذن تلك الأيام الصعبة القاسية وحل القحط في الطبيعة، فتم ذلك الاستقطاب، الذي هو ضرب من الخيال، ولسوف يقابله هوج ماحق تنفجر به الطبيعة لتقتل عساف بالذات، ذلك الذي كان أشد الناس تقديسا لشرائعها(80) .

لقد أصبح من الثوابت المسلم بها أن الطبيعة رغم ما توقعه من فعل سلبي على الإنسان يتمثل بأنواع متعددة من الممارسات على مختلف تنوع فصول السنة واختلافها، تبقى عنصراً دافعاً للديمومة والإنجاز، فهو يبدو متحدياً للطبيعة يهرب من فعلها السلبي مؤكداً على الحياة عن طريق الزواج الذي يضمن له الامتداد الإنساني (81) . ولم تكن هذه حالة الإنسان العراقي وحده في مواجهة الكوارث الطبيعية بل نلمس هذا التوجه عند الوافد الذي يرى أن خير تحدٍّ للطبيعة هو الإقبال على العمل؛ لأن العمل هو الهدف الأساسي الذي شكل مجيئه إلى هذه الأرض، وأمام هذا الهدف الوطني تتماهى الرّغبات والملذات الشخصية الأمر الذي دفع ريتش إلى الاعتقاد الجازم بأنه "لا يمكن التغلب على العذاب الذي يواجه الإنسان في هذه البلاد إلا بالعمل" (82)، والإنسان العراقي إن حفظ وجوده وكيانه الإنساني رغم أنف الطبيعة إلا أنه يبقى أسيراً لظلمها ولو على مستوى السلوك الإنساني، والدليل على ذلك إلا ما قدمه الراوي لطبيعة أهل الكرخ الذين يمتازون بسلوكيات إنسانية لا يمكن رصدها وفق نمط محدد فهم مبالغون في الكرم والشجاعة، سريعو التأثر والحزن، حتى يكاد المرء يجد نفسه أمام الكرخي كأنه أمام إنسان تسكن تحت جلده أرواح عديدة تزيد على أيام الأسبوع دلالة على التقلب في الأهواء والأمزجة (83)، وَهُنَا يجد القارئ نفسه أثناء تتبع المجتمع الروائي واقفاً أمام جدارية متنوعة للسلوك الإنساني، ففي الربيع نلمس حالة من الجرأة في التصرفات والأقوال،وأحياناً يتحد السلوك الإنساني ليصل إلى حالة من العناد البشري الدائم(84)

فـــي ظـــل ما تقدم لا يمكن الحكم جزافاً على أن الطبيعة كانت عنصراً سلبياً على الدوام، بل ظهرت الطبيعة في فترات زمنية عاملاً إيجابياً وإن لم يكن ذلك على ألســـنة الـــناس المحليين بل ظهر على لسان الآخر، وإن كان في مواطن معينة من الـــرواية يقـــف ســـلبياً تجاه الطبيعة والذي تمثل دائماً بشكواه المتكررة من الحرارة الشديدة والجراد وحمى الملاريا، إلا أنه يبدو منصفاً في نظرته إلى الطبيعة أحياناً إذ تـــتفجر أساريره على شعور الإعجاب والدهشة للوحات المتعددة التي تقدمها الطبيعة فقـــد ســـعى إلى مصادرة الطبيعة ومحاولة نقلها إلى الوطن الأم (85) ولم يقف الأمر عند ذلك بل كما يصف –الراوي– فقد كانت الطبيعة عنصراً إيجابياً وقف إلى جانب "ريـــتش" فقـــد أصـــبح أكثر قدرة ومرونة على التحرك والاتصال بمن يريد، ولبّى دعوات مؤجلة منذ وقت طويل (86) .

ب ـــ وحدة الأحاسيس والمشاعر:

يمكن القول إنّ القلق الاجتماعي يعد نتاجاً طبيعياً في مجتمع "أرض السواد"؛ ولعل مرد ذلك شبكة العلاقات الإنسانية الشائكة بين أفراد المجتمع العراقي، فالقلق الفردي ينصرف كما هو الحزن من الفرد إلى الجماعة فلا يقرّ للفرد قرار، ولا يهدأ لـــه بـــال، إلا إذا أســـهم في إيجاد حلول للآخرين، فالإنسان العراقي مرتبط بأخيه الإنســـان بحكم المضير المشترك الذي يتناول المجموع وإن تبدت بين ثنايا الرواية لمحـــات مـــن المشاحنة والخلاف، "فبدري" الذي شكلت له نجمة هاجساً قوياً وحلماً مؤرقـــاً دفعه إلى الزواج منها، يقابل بقلق اجتماعي صادق تجاه ما ينويه ولا سيما المحيطيـــن بـــه، "فسيفو المحمود" يرى في هذا الزواج خرقاً للقيم والتقاليد العربية الأصـــيلة ولكـــي يحول دون ذلك يقدم قسماً غليظاً بعدم تحقق هذا الفعل وفي هذا الموقف يكشف منيف عن مدى تماسك الروابط الاجتماعية واقعاً لا قولاً (87)، ومن الـــنماذج التـــي يرسخها القلق الاجتماعي "إبراز قيمة التضحية والإيثار، إذ نجد أن صـــوت "الأنـــا" بدا يتلاشى، ليحل محله صوت المجموع "نحن"فالحاج صالح العلو الـــذي فـــرض علـــيه خـــبر مقتل ولده بدري عزلة اجتماعية ضمن محيط الأسرة والمجتمع المحيط فيعمم الحزن لكي لا يمس العائلة وحدها بل تناول المجتمع كاملا بحيـــث خيم السواد على جميع أركانه، ومثلما كان التوحد حزنا كان فرحاً، إذ كان

ظهـــور الحـــاج صالح العلو في القهوة فجأة بعد معرفة قاتل ولده دافعا في نفوس المجتمع بضرورة استيعاب الآخر، حفاظا على الهوية التراثية – الذي يشكل "صالح العلـــو" معلما بارزا من معالمها، لما في ذاكرته من سجل حافل بالأحداث والوقائع اليومـــية، " وهكذا فإن دعوته – كما يبين الراوي تصادفت مع عودة ريتش لذا "فإن عـــودة الأخير لم يفطن لها الكثيرون، وحين عرفوا هزوا رؤوسهم، وقد أثقلهم الهم وتوقعوا أشياء كثيرة بعد أن أخذت تتراجع في العقول والقلوب ذكريات أيام سابقة(88)، والموقـــف الســـابق يؤجـــج ذكريات العراقيين مؤكدا أن خلافاتهم الشخصية، وتـــناحرهم اليومـــي ليس ألا وسيلة تهدف إلى إضعاف الصف الداخلي الأمر الذي سيســـهل علـــى المحـــتل اختراقها واستباقها ماديا ومعنويا، ولا تقف صور الإيثار والتضـــحية عـــند ذلك بل تتجاوزه؛ وهذا ما نلمسه من خلال موقف المجتمع تجاه "ذنـــون الحـــاج حسن" الذي خسر تماثيله الفنية جرّاء الفيضان ولم يلق مساندة من النظام السياسي ألا أن الشارع الشعبي لم يهمل دوره إنسانياً وثقافياً، لأنه جزء مهم ضـــمن مـــنظومة البنـــية الاجتماعـــيّة، وهنا يوظف منيف لإبراز النظام الصارم، مجموعة من الأمثال والحكم الشعبية عن طريق استثارة الذاكرة الجماعية، ولا ريب فـــي ذلـــك فالاسطة "إسماعيل" صوت البيئة التي تعبر عنها، وموقفه تأكيد صريح لموقف البيئة المحلية تجاه ما يشغل انسانها من قضايا وهموم، الأمر الذي يدعو إلى عدم الاستسلام؛ لأن الحضارات الإنسانية التي تود تخليد آثارها، لا بد لها من القوة والتحدي إزاء ما يتهددها من أخطار إنسانية وطبيعة (89) .

ولا يقـــف قلق الأسطة "إسماعيل " عند ذلك القول الذي هدف من وراءه بث العزيمة في نفس "ذنون" بل يتجاوزه إلى مرحلة العمل فنجده يهذب "ذنون" بالحلاقة والتزيـــن، ويتعهد له بالبحث عن عمل مع الآخرين (90)، والقلق الاجتماعي لا يقف عند حدود أفراد بعينهم بل يتجاوز الأسطة إسماعيل الى "سيفو" الذي تمنى بعد ترك مهـــنة السقاية الوقوف إلى جانب "ذنون"؛ لمساعدته في عمله الفني الكبير، كما أن القلـــق الاجتماعي المتناول روائيا لا يقيم حدودا فاصلة خلال نظرته لمعاناة الأفراد انطلاقـــا من الثوابت والفوارق الطبقية، بل على النقيض من ذلك، "فأرض السواد" تـــنظر إلى الفرد بحكم إنسانيته وموقعه في المجتمع بغض النظر عن درجة الدور

الــذي يقــوم بــه وأهميته، وما قضية "زينب كوشان" وقضية الأرض التي تسعى لتخليصها إلا دليل حي على أن "ارض السواد" لا تنظر إلى أفراد المجتمع العراقي نظــرة ازدواجــية، ففي الوقت الذي ترى فيه زينب يأساً بين الناس نجد أنّ الفرد المتميز إنجازاً وحضوراً في المجتمع يلقى الشيء نفسه وكذلك الإنسان البسيط الذي يبحــث عــن قــوت يومه وما "زينب كوشان " وموقفها القائم على عرض أحقيتها لامتلاك أراضي في محلة الشيخ بشار إلا نمط حقيقي على قلق الناس اتجاهها، فهذه المــرأة التــي لم تتجاوز قضيتها حواجز الأبواب الرسمية تلقى تعاطفاً من المجتمع المحــيط بهــا، فالحاج شلبي تعود على تقديم كل ما تحتاجه زينب من مال وطعام، وانقطاعه عنها فجأة حرك العديد من الناس من أجل مساعدتها(91)، وهذا لا يختلف عمــا تعرض له "سيفو المحمود" الذي قررّ ترك مهنة السقاية، فقد شكل هذا القرار همــاً جماعياً على الكبير والصغير مما دفع الحاج علاوي مختار المحلة لثنيه عن قــراره؛ لأن عمله شريف مقدس، يقدم له الشكر من السماء جراء سقايته العطشى مــن الإنسان والحيوان ويتطور القلق الاجتماعي إلى حالة من قلق الأسرة ولا سيما الأســرة البسيطة التي لا تملك إلا قوتها جراء العمل البسيط، ومعاناة الأسرة تتجسد فــي زوجــة "سيفو" "قطيم" التي لا تكف عن دفع الآخرين لثناء زوجها عن قراره وهنا يلامس منيف آلام الطبقة الفقيرة التي تصارع الطبيعة أملاً في الحصول على رزقها البسيط الذي يضمن لها الحياة .

إن المشــاحانات والــنزاعات التي تبرزها " أرض السواد " هي مسائل آنية ســرعان ما تزول، فالفرد المخطئ سرعان ما يجلس مع ذاته يراجع الأخطاء التي وقــع فيها؛ فالملا حمّادي الذي طالما اتهم سيفو بالإلحاد والجهل الديني، سرعان ما تــتراءى صورته في مخيلة سيفو الذي يحزن جراء ما ألحقه به من أذى وألم(92)، ومــن الــنماذج الإنســانية التي يتوحد فيها قلق الإنسان العراقي على أخيه، القلق الاقتصــادي فــرغم الهواجس شغلت بغداد أثناء الاستعدادات للحملات العسكرية، واخــتفاء السلع التموينية من السوق لم تشكل في نفسية الأسطة عواد صاحب قهوة الشط حالة من الجشع والطمع، فرفعه لأسعار المشروبات التي يقدمها لمرتادي قهوة الشــط ســوف يفكك في نظره هذا التكاتف الاجتماعي إذ بدا واعياً مقدماً مصالح

أهلـــه الاجتماعية على مصلحته الذاتية، وهنا يقدم منيف نموذجاً من جلد الذات في سـبيل المصالح الجماعية (93) وإذا كان ما تقدم هو صورة للهم الفردي، إلا أنه في الحقيقة تجسيد لهم الجماعة الإنسانية، فموت بدري وما شكله من هواجس في نفوس البغداديين يجسد صورة من التوحد الجمعي لأفراد المجتمع العراقي كافة على اختلاف أجناسهم الطائفية والدينية يمثلون نسيجاً متلاحماً في الوحدة الاجتماعية التي لا تنفصل عراها. لقد خلق الحزن حالة من التوحد الجمعي الذي يعكس صفاء المشاعر الإنسانية، ونبل العلاقة العاطفية فحسون لم يترك مكان العزاء ساعة واحدة، وقد قدم الماء للناس ولسان حاله يردد "اشربوا وترحموا على روح الغالي" دون ذكر اسم بدري لأنه سيغرق في البكاء الشديد ويبدع منيف في تجسيد المساحة السوداء على البياض، فينعكس هنا السواد على مساحة كبرى من الإنسان والمكان ليشمل الكل "سيفو، زكية، حسون " إذ يقسم حسون أن لا يبيع الفريرات للأطفال وإذا باعها، فأنه سيجعلها باللون الأسود(94)

وزكية تخفي فستان العرس الأبيض معلنة أن الزمان والمكان يتطلب السواد .

إن القلق والهم الاجتماعي الذي تقدمه " أرض السواد" يتناسب في تقديري مع رؤية منيف في النهايات " فموت بدري الضابط المخلص في الجيش العراقي على يد المتآمرين على الوطن، خلق حالة من صحوة الضمير لدى الإنسان العراقي للتنبه لما يدور حوله، وفي هذا النموذج الإنساني يقدم منيف رمزاً يحترم من الناس ويقتدى به.

وهذه المسألة الأخيرة تنطبق على عساف، فكما يرى أحد الدارسين " أن الموت الفردي يظل مصدر حياة الجماعة الإنسانية إذ تطور وعي الناس لأنفسهم وللعالم المحيط بهم، ولعل في ردود الأفعال التي يرصدها السارد من المختار وأبناء الطيبة وأبناء القرى المجاورة ما يدعم هذا الوعي الجديد وفضلاً عن ذلك فقد ظل عساف مثلاً يحتذى في الالتفات والالتصاق في أعماق الأرض(95).

ج ـ الإنسان في مواجهة المستعمر

إنّ القلق الاجتماعي الذي ترصده " أرض السواد " ساهم في تشكل بنية اجتماعية صلبة في وجه الآخر "المستعمر " ولعل مردّ هذا التماسك الاجتماعي يعود

إلـــى الفيضـــان الـــذي واجه العراقيين ثم ما تعرض له الأفراد من مصائب إنسانية جعلت جلهم يعيد النظر في مواقفه وتوجهاته، فالخطر القادم همّ يؤرق الإنسان بكل عالمـــه المحـــيط والذي يعني هنا الوجود أو اللاوجود الإنساني، فالفرد الذي عانى بحـــثاً عن حقه الضائع الذي تمثل بـــ" زينب ملا ضيف" التي أرقتها الليالي لا تفتر عن البحث عن حقها الضائع، رغم ما مثلته السلطة السياسية من تجاهل لها حتى أن المجـــتمع المحلـــي جعل منها أضحوكة للأطفال، ورغم هذا الألم النفسي الذي سببه المجـــتمع لها إلا أن نفسها سرعان ما تتفجر عن وطنية صادقة فالعراق الذي تمتلك أرضـــاً فـــيه يتعرض لغزو المستعمر الذي أتى لمصادرة هويته وتراثه، وإزاء ذلك تخـــتزن همها الذاتي جاعلة الهم الوطني الأجدر بالدفاع والاستقلال، فضياع العراق يعنـــي لهـــا ضياع حقها الشخصي، وهذا ما يجعلها تتوحد مع السلطة السياسية التي تـــرى فيها المنقذ الحقيقي؛ لأنها السلطة الشرعية في حكم العراق وإدارة أهله، وهذا يتجســـد علـــى لسانها بقولها " ... وبعدما جانا من نسل حيدر، بعد ما صار الطوب بصـــوبنا، ارتفـــع بيرقـــنا، وهسة بحيل صدر نقدر نحجي ونقدر نقول" (96) وبهذا الصوت الصّارخ يؤكد منيف دور المرأة العربية ولا سيما المرأة العراقية التي لبّت نـــداء الوطن في جميع الأزمات والمحن، فهي إلى جانب الرجل تحمل معه السلاح، وتبـــث في نفسه الهمة والعزيمة، وهكذا يصبح المقاتل العراقي أمام همين أساسيين "المـــرأة والوطن" يقاتل بكل شراسة حتى لا يخسر الجزئين اللذين يشكلان في نفسه وديعة مقدسة (97)

يقـــدم منيف صورة أخرى من التوحد الوطني، فمهمّةحماية الوطن لا تقف عند حـــدود الســـلطة الرسمية بل تتجاوز ذلك إلى جميع الفئات الشعبية، فسيفو المحمود الـــذي أرهقـــه نقـــل الماء وأصبح بعد ذلك لا يجد مصدراً لرزقه يلهج لسانه بالهمة والشـــجاعة إذ يطلـــب من الجند تعليم الناس البسطاء على عمل المدفع حتى يتمكن هـــؤلاء مـــن الدفاع عن أرضهم (98)، وبعد مسيرة طويلة يستقر المدفع بالقرب من جامع الشواكة مقابل القنصلية البريطانية وفي هذا التوجه بعكس منيف أن الاستعمار لا يقف عند حدود الموارد والثروات الوطنية بل يحمل في طياته جانباً من الصراع بين التيار الإسلامي والكنيسة المسيحية .

الفصل الثاني

البعد الثقافي والاقتصادي

1.2 مدخل :

إن الـــثقافة بكـــل مـــا تمثله من مخزون المجتمع الإنساني من تراث ورموز وتقاليد ومعارف من أجل تهذيب الحس النقدي للفرد تحتل مكانة بارزة في الدراسات الفكـــرية (100)، فضلاً عن أنها تشكل هاجساً عند كثير من المبدعين، وتعد موضوعاً ملحّـــاً في الرواية العربية التي أنتجها أصلاً مثقفون يبدون أكثر من غيرهم إحساساً بهمـــوم الأمـــة وطموحاتها، لقد نذر المثقف نفسه ــ في غالب الأحيان ــ للتصدي للمشاكل وتعرية القيم والعادات والتقاليد، والجوانب التربوية والسياسية والاقتصادية التي تشكل بعض مفردات الثقافة .

إن احـــتلال الكُـــتّاب واجهة التعبير عن ضمير الأمة وَضَعَهم بالضرورة في مواجهـــة مباشرة مع من يتحكم بمصير هذه الأمة، وكأنهم في حالة صراعٍ دائم مع الثابـــت الذي يحاولون خلخلة مفرداته . "إن المثقفين السياسيين يواجهون عاملاً ثابتاً فـــي صـــراعهم مع الاحتلال الأجنبي أو الحكام المحليين، وعليه يتوقف ــ على ما يـــزعمون ــ مصـــير اتجاهـــاتهم الفكـــرية ســـواء أكانوا إصلاحيين أم ثوريين أم محافظين، ويخرج من هذه الدائرة ما يسمى بالمثقفين الهروبيين" (101) .

إن المحـــدق فـــي أعمال منيف يجد أن المثقف يشكل حضوراً متميزاً، ويمثل محـــوراً محـــركاً للأحداث، بل إن شخصية المثقف تبدو فاعلة ومنفعلة وقادرة على خلق العلل السرديّة ولهذا لا يبدو المثقف عند منيف دائماً هو القارئ الجيد أو الكاتب الجـــيد، وإنمـــا يـــبدو الإنسان القادر على التنوير وإيجاد التغيير، وكثيراً ما نواجه شخصـــيات بسيطةً حدّ الأميّة ولكنها تحتضن من التجارب ما يؤهلها لإحداث التغيير أو مواجهـــة الآخـــر، ولعـــلّ "متعـــب الهذّال" و "شمران العتيبي" في "مدن الملح" و"عساف" في " النهايات" تعد نماذج معبّرة عن قدرة الخبرات المتراكمة على حماية الإطار العام لمجمل القيم والعادات والتقاليد، زيادة على قدرة هذه النماذج على تقديم رؤيا خاصة بها .

بَـيْدَ أنـنا هنا نلتزم بمفهوم المثقف على النحو الذي استقر في وعي الناس : المفكـر، الكاتـب القادر على تمثل حالة أمته واستيعابها ومن ثم القادر عن التعبير عنها وتحريكها، دون أن يعني ذلك استبعاد الفئات التي أشرت إليها نهائياً .

قلمـا نجد نصاً من نصوص منيف يخلو من وجود هذه الشخصية المحورية التـي ترسـم في علاقة عدائية غير منسجمة مع السلطة، ترفض الحاضر "المدنس بالهزيمة، ولا تحن مطلقاً إلى الماضي المسؤول عن الصورة السلبية للحاضر، ولهذا فهي شخصيات تربط ما بين الماضي وهزائم العرب التاريخية" (102) .

إنّ "أرض السـواد" تشكل قاسماً مشتركاً في تناولها لشخصية المثقف العربي مـع روايـات منيف الأخرى ولكي تتجلي صورة المثقف العراقي هنا وانسجاماً مع أهـداف البحـث الـذي يلـتزم بالمقارنة، لا بد لنا من الإشارة إلى صورة المثقف ومعاناتـه فـي بعـض أعمال منيف الأخرى؛ لأنها من القضايا التي تؤرقه، فمنيف مـدرك لدور المثقف بشكل عام، ودور المثقف الذي يحاول تقديمه فنيّاً بشكل خاص كمـا أنه مدرك للمعاناة التي يعيشها هذا المثقف في مقارعته مع الحياة ومع السلطة معـاً، ويؤكـد منيف هذه المسألة عندما يرى أن المثقفين أصبحوا "بين ذهب المعز وسـيفه وأغلبهم في حالة من الحيرةِ بحثاً عن اللّقْمة أو انتظاراً لهبات السلطان، ولذا فـإنّ الكثـير منهم تخلوا عن مهماتهم وانشغلوا بالهموم اليومية، وابتعدوا عن هموم الأمة التي ينتمون إليها (103) .

يؤكد منيف على أن ثمة أشياء كثيرة بحاجة إلى إنجاز والتي يمكن من خلال تـراكمها واسـتمرارها أن تـؤدي إلى تغيير نوعي في مجمل الحياة الثقافية (104) . ويتـناول منيف في أعماله الروائية ولا أقصد "أرض السواد" دون غيرها، تشكيلات العملـية الثقافـية وأبعادها كافة، وهو بذلك يبرز دور الروائي والكاتب في الحراك الثقافـي فـي علاقة متشاركة مع النشر والرقابة أو كما يقول أحد الدارسين :- "إن عملـية الكـتابة والكتـب احتلـت أهمية كبرى في الشرق وهذا الاهتمام نابع من الممارسين لها وهم الكتاب والمروجين لها وهم التجار ومراقبيها وهم رجال السياسة والقضاة والزاعمون أنهم حماة للفضيلة" (105) .

ومــن الــنماذج الروائــيّة المثقفة لدى منيف التي تناولها الباحثون بالدراسة والتحلــيل شخصــية "منصــور عبد السلام" المثقف العربي الذي قام بترجمة كتاب "كومونة باريس" الذي يتناول تجارب هامة في حياة الشعب الفرنسي ولا سيما الثورة المســلحة التي قام بها الباريسيون فكانت شعاراً للطبقة العماليّة ضد الطغيان وسلطة الرأسماليين وهم بذلك يؤسسون أول حكومة في التاريخ أمكن للعمال المشاركة فيها، إلا أن منصــور عبد السلام بعد أن أعد كتابه الذي استغرق وقتاً طويلاً باحثاً ومدققاً كي يخرجه كما يريد، صُدم برفض دار النشر التي لم يتوانَ الناشر فيها عن دعوته إلى ترجمة كتاب "ألف ليلة وليلة" بعيداً عن السياسية وإجهاد الفكر(106).

إن حالــة الإحباط التي أصيب بها منصور عبد السلام خلقت في نفسه حسرةً وألمــاً، فهــو ما زال ملاحقاً من السلطة التي لم تكتفِ بفصله من عمله الجامعي بل لاحقــته فــي لقمــة خبزه، إلا أن المثقف هنا رغم ما تعرض له يصر على سياسة التغيير من خلال رفع يده وإطلاق النار على صورته، فهو وإن أصابه الجنون يرى في هذه الحالة أولى حركات التغيير والثورة على الواقع (107) .

ولعلّ من النماذج المعبّرة الأخرى شخصية "رجب إسماعيل" في رواية "شرق المتوســطِ" الذي آمن بالديموقراطية مسلكاً وحيداً لصيانة حقوق الشعوب ، والحرية – مطلــباً أساســياً – لا حياة للشعوب في عز وكرامة من دونهما، الأمر الذي أدى للقــبض عليه وأدخله عنوة في دورة التدجين والترويض لتنتزع منه أفكاره "الثورية الانقلابــية" ولــيعوّد عقلــه علــى الخمول والعطالة، فالسياسية حكز على أصحاب الســلطة، انطلاقــاً من أن مجرد السعي للمشاركة في الحياة السياسية جريمة يعاقب علــيها القــانون، وهكــذا تكثر الممنوعات في العالم العربي إذ تصبح المظاهرات السياســية، والكتابات المعارضة، والأحزاب والمجالس كلها ممنوعة (108). وفي هذا الصدد يقول رجب إسماعيل : "آه يا أهل باريس لو جئتم بكتبكم إلى شاطئ المتوسط الشــرقي لقضيتم حياتكم كلها في السجون، سيأكلكم الندم، سوف تكفرون بكل شئ، واحــذروا كثــيراً أن تفكــروا بالأحزاب؛ لان أية كلمة تجد من يلتقطها، ويجعلها مؤامرة وتخريباً، وتدفعون ثمن كلمات حياتكم كلها في السجون الصحراوية، وهناك تصابوُن بالسل والتيفوس، وتموتون" (109) .

يقـــدم منـــيف نقـــداً للأنظمة الشرقية التي ما تزال في حالة من الظلم والقهر السياســـي، فشخصـــية "رجـــب إســـماعيل" تعكس في قولها السابق حالة من البون الديموقراطـــي الشاسع بين الشرق والغرب، فالغرب يؤمن بالتعددية ويحيا حالة من الـــتطور العلمـــي والاقتصـــادي والثقافي في حين يقدم الشرق من منظور المثقفين ولاســـيما رجـــب إســـماعيل على أنه مجتمع قائم على الأحكام العرفية، وشعارات الحرية والمساواة تحدث في وجه أنظمته حالة من عدم الانسجام والتوحد .

إن مـــا يكتـــبه المـــثقفون عن الحقوق والحرية يثير الساسة عليهم فيحاربون ويقصون فلا يبقى من الكتب إلا التافه البسيط الذي لا ينمي وعياً ولا يعمل فكراً ولا يكشـــف وضعاً بل هو على العكس من ذلك يساهم مساهمة كبيرة في تغييب الوعي وتخدير الشعوب وتدجينها (110) .

إنّ مـــا يمـــيز رجب إسماعيل أنه لم يصمم على كتابة الرواية إلا حين عزم علـــى النضـــال، ومقاومة الظلم ومضمونه وهو أن ينظم الشعر بخلاف الشخصيات الروائـــية الأخرى، فقد كان في مرحلة عشقه وأمنه، أي قبل أن يعمل في السياسة، ويخـــوض مغامـــرة النضـــال، وحيـــن جرب السجن وعذاب النضال ، أنكر شعره وكـــرهه، فالشـــعر كـــان أقرب إلى روح التسليم منه بالخصوص من روح الرفض والمقاومـــة (111) . يقـــول رجب إسماعيل بطل شرق المتوسط مبرزاً رفضه للشعر كأســـلوب فـــي التعبير، وطرح الهموم "إن الشعر لا يمكن أن يكتبه إلا إنسان واحد؛ لأنـــه سيل من الأحاسيس الداخلية في لحظات هاربة فإذا لم يستطع الإنسان السيطرة على هذه اللحظات توارت وانتهت" (112) .

إنـــه لمـــن البديهـــي القـــول إن الشعر شأن كل إبداع هو وليد أطر سياسية واجتماعية ونفسية وثقافية محيطة به ومفرزة له سواء أكان كاتبه في برجه العاجي، أم مطـــارداً مقهـــوراً يعـــيش حالة استلابه واستلاب الآخرين، فالسخط الاجتماعي والمواقـــف مـــن السياسة أو ما يسميه سارتر الكراهية السياسية، بما ينجز عنها من أحاســـيس، هما مصدر كل شرر "لكنهما لا يعبران عن نفسيهما فيها .. فكلما عرض الناثر عواطف ما ، أوضحها ، أما الشاعر فهو على النقيض من ذلك، إنه يكف عن

تعـــرف أهوائه إذا ما صبّها في قصيدة، فتأخذها الكلمات وتتغلغل فيها وتمسحها ولا تعود تدل عليها حتى في نظره" (113) .

ففي العجز عن الجهر بالحقيقة بسبب الحدود والضغوط الفنية، هزيمة أدركها رجب إسماعيل، فاختار الرواية أسلوبه وليس الشعر، ولعلّ هذا يبين أن عبد الرحمن منـيف – مــع تحفُّظ الباحث على رؤيته – لم يثق في صمود كل الشعراء ولا في تفــاعل كل الناس مع الشعر الملتزم وهذا ما جاء صراحة عند "زكي النداوي" بطل رواية "حين تركنا الجسر" الذي وصف الشعر بالهزيمة- ليس أي شعر-"ليس الشعر الـــذي يهـــزم البشـــر، البشر يهزمون الشعر عندما يتركونه وحده يحارب .....لو حـــاربوا مع الشعر لانتصروا " (114)، فمن الشعر ما خان رسالته فصار يقود الناس إلى الغفلة والرقود والتسليم، ومنه ما ناضل ليضل شريفاً، لكن الناس خانوه فحبسوه، بعـــدم تفـــاعلهم معه واقتدائهم به في إسار الكلمة التي تحولت إلى زخرف وبهرج، وفـــي كلتا الحالتين تحول الشعر إلى أداة بيد السلطة تخفي به الفشل عن أعين الناس وتلهـــيهم عنه (115)؛ لأنَّه "في المجتمع الشديد الاندماج أو الديني، تخفي الدولة الفشل أو يعوضـــه الديـــن، أمـــا فـــي المجتمع الأقل اندماجاً والعلماني كما هو الحال في ديموقراطيتـــنا، فـــإن مهمـــة تعويضه تقع على عاتق الشعر (116)، لهذا كره "زكي الـــنداوي" الشـــعر بعـــد هزيمة حزيران وحتى كلبه "وردان" كرهه، فحملت نظراته احـــتجاجاً ملحوظاً حين همّ زكي بقراءة بعض الشعر عليه، فنكسة العرب قد حدثت أمـــامَ أعيـــن الجميع، وعاش زكي كل مراحلها وأطوارها، لكن الشعر ينفيها فيتغنى بالنصـــر ويمجـــده؛ ساعياً إلى إعانة الساسة على مخادعة الشعوب وتزييف الحقائق عنها، بدل أن يفضح الحقائق ويعرّيها ويصرخ صراخاً بالهزيمة النكراء (117).

إن حالـــة الاضطهاد في مجتمع منيف الروائي ليست بجديدة فالدارس لرواية "الآن هـــنا أو شرق المتوسط مرة أخرى" يلحظ أن القمع والعنف متعدد الأشكال فقد أصـــبح حالة عارمة تجتاح الوطن العربي، إذ لم يعد السجن مجرد الجدران الأربعة أو الجـــلاد أو حالـــة التعذيب بل أصبح يهدف إلى خوف الإنسان ورعبه، وهذا ما يـــريده الجـــلاد الكبـــير "الحاكم" إذ يصبح الإنسان دائماً سجيناً وما شخصية "طالع

العريفــي" إلا نمــوذج حي تعكس رسالة السجون وامتدادها كملمح مكاني مميز في أقطار الوطن العربي (118) .

2.2 أنماط المثقف :

إنّ "أرض الســواد" شــأنها شــأن الأعمال الروائية الأخرى أبرزت صورة المــثقف العربــي الــذي هو قديم بقدم الحضارة الإنسانية وتطورها التاريخي، ولا غــرابة فــي ذلك؛ نظراً للفترة الزمنية التي يتناولها منيف من حياة الدولة العثمانية وهيمنــتها علــى أجــزاء كبيرة من الوطن العربي آنذاك، ونقف هنا أمام نموذجين ثقافييــن أولهمــا :- مــثقفو الجماهير الذين أخذوا على عاتقهم همّ الشعب، إذ يمثل "يعقــوب حوحو وناجي البكري" وغيرهما أمثلة حية على هذا النموذج الثقافي، رغم أنهــم ينتمون إلى الطبقة الوسطى أو الوسطى الصغيرة، وهذا ظاهر من خلال عدم اشــتراكهم فــي أنشطة الحياة اليومية وميادينها المتنوعة كالزراعة والتجارة، الأمر الذي دعاهم لحصر عملهم في تصدير مبادئ الثورة من خلال طقوس يومية اعتادوا علــى ممارستها ولا سيما الجلوس في "قهوة الشط"، وهنا يحرص منيف على إبراز مثقف الشعب الذي أخذ يفقد رسالته الإنسانية بسبب قمع الأنظمة في "أرض السواد" فلــم يعــد المــثقف معرّياً وكاشفاً للحقائق بل اكتفى بحالة من الانطواء والتلميح في مناســبات محددة اقتصر دوره على بيان محاسن "ثورة الشرق" التي يدعو إليها، فقد ظلت الثورة لديه بكل ما تحمل من مبادئ الحرية والعدالة الاجتماعية للشعب هاجساً يوحــي بالإحــباط، وهذا ما تبدى صراحة على نفسية ناجي البكري إذ أصبح مثقفاً مخــنوقاً لا يملــك هويــة قومية؛ نظراً للبون الشاسع بين رؤيته الفكرية وأولويات المجــتمع المحــيط به وهكذا فقد ظل صوته غير مسموع روائياً ويحاول منيف في "أرض السواد" أن يخلق جدلاً بين مفردات العمل الفني و البُعْد الثقافي، ويبرز حالة المــثقف مــن خــلال إدراك شبكة العلاقات بين الإنسان والمكان والزمان، فمثقفو الجماهير لا يتشكلون من خلال الشرط الاجتماعي فحسب، بل تسهم الطبيعة في كل ذلك، فالفيضان وما مثله من عامل سلبي على النواحي الاقتصادية والسياسية والفنية ظلّ يضع شخصية "ذنون" الفنان العراقي المبدع في إشكالية نفسية يهيمن عليها القلق

والإحـــباط نظـــراً لافتقارها الدعم من قبل الدولة الحاكمة، وحالة القلق لم تقف عند المستوى الفردي لـــ "ذنون" بل ظهر إلى جانب ذلك قلق المجتمع الإنساني عليه من خـــلال شريحة الناس البسطاء أمثال "سيفو المحمود" و "الأسطة إسماعيل" و"الأسطة عـــواد" ولعلّ هذا التعاطف الشعبي يبدو جلياً من خلال بروز المشاعر الإنسانيّة التي تزول معها المصاعب والأنات ولو لفترات زمنية محدودة (119) .

ولعـــلّ فـــي شعور "ذنون" بالغربة بينه وبين السلطة التي لم تدعمه وتقدم له الإمكانات ليعوض التماثيل الفنية التي فقدها، محاولة من منيف لكشف حالة المجتمع العربي الذي أهمل حملة الفن والثقافة ساعياً وراء المادية المفرطة التي تخدم أفراداً دون جماعـــات، وتخلـــى عن مبدعيه ومثقفيه في أصعب الظروف وأقساها، ومنيف بذلـــك لا يدين السلطة الرسمية وحدها وإنما يدين المحبطات الاجتماعيّة والاقتصاديّة في الآن نفسه .

إنّ الصـــراع بيـــن الســـلطة والمثقف الشعبي صراع مستمر لا يحدّه الزمان والمكـــان مـــا دامـــت الاهتمامات والأولويات الإنسانية غير متجانسة وموحدة وهذا الأمـــر يتـــنافى إلـــى درجة الاعتقاد كما يرى "ذنون" بقوله "كانت بغداد وراح تظل صوبين، واحد للمسعدين، والثاني لغيرهم" (120) فيرى أن صراع المثقف مع السلطة مستمر ما دام لا يوجد قواسم مشتركة تجمع الطرفين الذين يخاف أحدهما أن يتنازل عن مكتسباته للآخر، فالمثقف إن اتفق مع السلطة يظهر في نظر الجماهير عنصراً انـــتهازياً وصولياً، أما إذا كان التنازل من جانب السلطة فتصور الحالة من منظور المجـــتمع على أنها حالة ضعف واستسلام واستكانة مما ينعكس سلباً على توجهات الســـلطة الحاكمة مستقبلاً وهكذا تبدو العلاقة بين السلطة والمثقفين قلقة تتأرجح بين مـــد وجـــزر انطلاقـــاً من مقولة : "إن الحرب ما انتهت ووالينا مثل الجمل يصبر يتحمل، لكنه حقود وأبد ما ينسى" (121) .

يتـــناول منـــيف في " "أرض السواد" مسألة الوجود الإنساني انطلاقاً من أن "الوجـــود البشري هو الوجود في العالم" (122) ولا سيما وجود المثقف العربي الذي لا يقف خطره على السلطة المحلية بل يتعداه إلى غير ذلك في كونه يشكل خطراً على المشروع الاستعماري والمد التبشيري في المنطقة العربية، فقد شكل توجه خالد إلى

الهند قلقاً في نفس القنصل البريطاني "جيمس ريتش" الذي لم يتوان عن كتابة رسالة إلـــى وزارة المستعمرات في الهند لمعرفة مصير الشيخ الصوفي " سلطان عبد الله " الـــذي كـــان يـــتردد عليه الشيخ خالد باستمرار" (123)، وفي هذا التوجه يلفت منيف الأنظار إلى قضية قمع حركات اليقظة العربية إبان الحكم العثماني وإلى أن وجودها يشـــكل عداءً للمصالح الاستعمارية في المنطقة، ولا غرابة في أن يصور منيف هذا الهـــم الثقافـــي الكبـــير الذي عانى منه المصلحون العرب وهو نفسه ما يتعرض له المثقف العراقي من قمع واستبداد في وقتنا الحاضر .

تقـــدم "أرض الســـواد" وجهاً آخر للمثقف العربي الذي أصطلح على تسميته بمثقف السلطة " المثقف الرسمي" ويبدو هذا النمط من وجهة نظر منيف إنساناً لاهثا وراء مصـــالحة الشخصـــية؛ يجعل من شخصيته وثقافته الإنسانيّة ظلاً للنظام الذي يـــنطوي تحـــت لـــواءه، فالشعراء الذين يتناولهم روائياً يظهرون بمظهر المتكسب لايملكـــون إرادةً داخلـــية فيما ينظمون من قصائد جراء ما يتعرضون له من هبات وعطايا وثناء شخصي على لسان "داود باشا "فهم لديه" الذين يبشرون بالدولة "(124) . وتحـــت هـــذا الإطراء لا يغفل منيف عن تقديم صورةً سلبية ومشوهة لفترة تاريخية مـــن فترات الشعر العربي الذي أصبح أرستقراطيا يعبر عن فئة بعينها دون النظر إلـــى بقـــية تراكيب المجتمع العراقي، وما الدعوات و اللقاءات التي أقامتها السلطة الحاكمة احتفاءً بهذه الفئات الثقافية إلا دليل حقيقي على ذلك، " فالصفوي والأخرس " لم يهتما بمعاناة الناس البسطاء بل أنصرف همهما إلىَ المدح وتصوير الانتصارات التي لم تغير المواطن العراقي الذي ظل ثابتا في مكانه .

إنّ قضية التكسب الشعري قضية متجذرة في المجتمع العراقي وتعكس تأثيراً واضـــحا على مستوى الثقافة العربية فلم تقف هذه المسألة عند حدود "أرض السواد" بـــل تـــبدو ملموســـة فـــي" شرق المتوسط " فلم يعد الشعر هنا يحمل رسالة سامية وغرضـــاً يســـمو إلى تحليل حالة الجماعة بقدر ما هو أداة يتوصل بها الشاعر إلى تحقـــيق ذاته ومصالحه، كما أن السلطة تجد فيه حالة من التواصل مع المثقفين حتى لا تفقـــد ثقـــتهم ولا ســـيما الذين يمثلون سياستها ويدعون لها وهو الأمر الذي دفع" الصفوي" في"أرض السواد" إلى عدم النوم حتى ينظم قصيدة مكونه من مائة بيت في

مــدح" داود باشـــا" (125) ومـــن المثقفين الذين تبرزهم "أرض السواد" بصورة سلبية شخصـــيات دينـــية اتخذت من الدين وسيلة للكسب السريع، إذ يتمثل ذلك بما حملته شخصـــية "الملا حمادي" انطلاقاً من كونها شاهداً حياً للسخرية الاجتماعية من أفراد المجـــتمع ولا سيما رواد "قهوة الشط" فهذا الإنسان الذي يفترض به زرع التقوى في نفـــوس الناس، وتنبيه المجتمع للخطر القادم تجاه العراق يظهر في نفوس المحيطين بـــه إنســـاناً متكســـباً يسيطر على أموال الزكاة والصدقات وحقوق الفقراء (126) ولا يراعـــي ذمةً أو ضميراً، يداهن السلطة السياسية متملقاً ساعياً لمصالحه الذاتية فما يسمع أن الوالي يقوم بزيارات تفقدية حتى يسرع لارتداء أجمل الثياب ويعد الخطب مرحباً بقدوم الباشا (127)، ولا يكف عن التدخل في شؤون الآخرين ساخراً ومستهجناً " فسيفو المحمود " الذي ترك عمله علق عليه الملا بأنه إنسان ضعيف دينياً لا يجيد إلا نقـــل المـــاء وسقاية الناس (128)، وهذه العلاقة التي تجمع أفراد المجتمع خاصةً البسطاء منهم مع السلطة الدينية تخلق حالةً من المشاحنات والمنافرات ولا سيما أن الـــدور الـــذي تمارســـه السلطة الدينية ممثله بشخص الملا ما زال ضعيفاً إما لرقة التديـــن أو عدم التعمق بفهم المسائل الدينية، ويقدم منيف في هذا التصوير نقداً عاماً لسياســـة الدولـــة التي تميل إلى العلمانية، إذ يصبح الدين في بعض الشواهد القائمة عليه غريباً في عيون البسطاء .

يهـــتم منـــيف بالمـــثقف في العالم العربي في تمزقه بين الحلم والإحباط، بين الانـــتماء والاغتراب، بين الثورة والتمرد، ويصور ذلك المثقف في يقينه وشكه، في ســـعيه إلـــى الفعل وخموده واعتزاله، وينتهي إلى أن ذلك المثقف العربي، ليس في الـــنهاية سوى كائن مفلس محبط مهزوز الشخصية (129) ، وما حديث ناجي البكري واتفاقـــه على بدء المشروع الثوري إلا انعكاس لشخصية ثقافية مترددة تربط التغيير بالزمـــن فـــانطلاق الثورة يكمن في الوقت "الذي يتبين فيه الخيط الأبيض من الخيط الأســـود" (130) ولا يقف المثقف عند حدود ذلك بل نراه يغيب ويخيب، ولا سيما في المواقـــف المواتـــية لـــتمرير أهدافه للمجتمع، ففي قدوم الفيضان وصلب الباشاوات وأعمـــال القـــتل ومضـــايقة الناس اقتصاديا، ودخول المستعمر إلى الأرض، وتنفيذ مشاريعه الاستعمارية، لم نر دورا بارزا للمثقف خاصة تجاه الخطر الخارجي الذي

يواجـه العراق بإنسانه الحاكم والمحكوم، ولعلّ غياب المثقف هنا يبدو مبررا، فنظام القـتل والاعـتقال وما مارسته الدولة العثمانية من اضطهاد يقصي المثقفين ويحجم دورهم .

إن المـثقف رغم مطالبته بالحرية والعدل والديمقراطية، لم يؤمن بغير ذاته ورفعـتها فـأفلس وخاب، وليس في إقرار منيف في إفلاس المثقف العربي ما ينفي عـنه سـعيه وإصـراره، فأبطـال منيف في ثباتهم رغم فشلهم، وفي عزمهم على المقاومـة والصـمود، رغـم كثرة جراحهم ومآسيهم في تشبثهم في أحلامهم، رغم انكسـارهم، ولـدت فـيهم تلك الأحلام طاقة رهيبة على الرفض والتمرد، ولو كان تمردا جنونيا مجحفا على الفعل، ولو كان منقوصا معطوبا (131) .

إنّ "أرض السـواد" لا تجعـل انكفاء المثقف وتراجع دوره منحصرا في سلبية المـثقف نفسـه، وإنما تخلق الظروف الفنية والموضوعية التي تسوغ هذا التراجع دون أن تـبدي اعتذارا واضحا لهذه السلبية، كما أن "أرض السواد" تفرق بجلاء بين الـثقافة موضوعا إنسانيا يشمل مفردات الحياة، والمثقف الذي يفترض أن يعبر عن هذه الثقافة .

3.2 اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب :

لقـد شكلت قضية اللقاء بين الشرق والغرب مفصلا هاما عبر مسيرة التاريخ الإنسـاني، وقـد اتخـذ هـذا اللقاء عدة أشكال؛ فاتخذ مرة شكل الاحتكاك المباشر الإيجابي المتمثل في الرحلات وحب الاستطلاع، واتخذ مرارا التواصل الثقافي من خـلال حركة الترجمة من اللاتينية إلى العربية كما هو واضح في القرون الوسطى عـندما تصـدى العرب لترجمة آثار"افلاطون" و "أرسطو " وغيرهما . بيد أن هذا اللقـاء اتخـذ شـكل الصراع العسكري الثقافي كما هو جلي في الحروب الصليبية وحـرب الإبادة والتنصير القَسْري في إسبانيا الإسلامية، وفضلا عن ذلك فقد تجلى الصـراع الثقافـي فـي حـركة الاستشراق ومدارس اللغات الشرقية والإرساليات الأجنبـية، وتمحـور هـذا الصراع الثقافي – كما هو معروف – في مسائل الدين والفلسـفة والعلـم والأخلاق . وقد انتقل هذا الصراع إلى ميادين ثقافية واقتصادية

واجتماعية إذ تجلت هذه المسألة الخطيرة في ميادين الأدب العربي ولا سيما الرواية انطلاقــا مــن كونها " الشكل الأدبي الأكثر دلالة في المجتمع البرجوازي " (132) . ولعلّ المحاولات الأولى في العصر الحديث في تصوير هذا الصراع واللقاء تمثلت فــي كتابات "علي مبارك " في علم الدين، ومحمد المويلحي في " حديث عيسى بن هشام " .. بيد أنَّ هذه الثِّيْمَة أصبحت فيما بعد مجالا واسعا للكتابة الروائية، فأنشغل فــي ذلــك طــه حسين في " أديب " و توفيق الحكيم في " عصفور من الشرق " ، وســهيل إدريــس في " الحي اللاتيني "، ويحيى حقي في "قنديل أم هاشم " والطيب صــالح فــي " موســم الهجرة إلى الشمال " ، وثمة قائمة طويلة من الروايات التي تعرضــت إلــى هذه المسألة، وحظيت بالدراسة والتمحيص من لدن كثير من النقاد والباحثين . وقد أسهم عبد الرحمن منيف في تصوير مسألة اللقاء الحضاري، ولكنه لم يفرد لذلك عملا خاصا فقد أشار إلى هذا اللقاء في "الأشجار واغتيال مرزوق " و " مــدن الملــح "، ونلمس ذلك في "أرض السواد" فهي تعبير حقيقي ليس فقط لنص يعرض قضية الصراع الحضاري بل لغيره من الجوانب السياسية والثقافية الأخرى، لكن منيفا لم يترسم خطى من سبقوه في معالجة هذه المسألة وإنما احتفظ بشيء من الخصوصية فكما يشير أحد الدارسين انه تميز في جانب مهم " فهو ينقل إلينا الغرب بأســاليبه الاســتعمارية الحديثة للشرق وذلك من خلال دبلوماسي مثقف هو المستر "ماكدونالد" في رواية "سباق المسافات الطويلة " إذ توجه ماكدونالد إلى الشرق يحمل عالمــا من التوجهات والأساليب الاستعمارية من المركز الرئيسي في لندن هذا من ناحــية، ومــن ناحية أخرى فهو يرسم صورا تحليلية غاية في الدقة والتفصيل لهذا الشرق وحياته (133)، وهذا في تقديري يتناسب مع ما قدمه منيف في "أرض السواد" من خلال الدبلوماسي " كلوديس جيمس ريتش" ممثل القنصلية البريطانية في العراق ويــبدع منــيف فــي تحديد مصطلح الشرق هنا إذ يكشف عنوان الرواية المساحة الجغرافــية التي يدخلها الكاتب في الصراع مع الآخر، ولا يكتفي منيف بتحديد هذا الجــزء المهــم مــن الشرق " العراق " بل يتوسع في ذكر دقائق المكان وأجزاءه، ونلحــظ في العمل الروائي تصويرا دقيقا لبغداد في مسرح العمل الروائي ومناطقها الجغرافــية "الكرخ والرصافة"، وأسماء الأحياء الشعبية التي احتضنت الأحداث، ثم

ينتقل منيف إلى الشمال عبر رحلة استكشاف جغرافية، فيصور لنا "الموصل وأربيل وكـــركوك والسليمانية" بكل تفصيلاتها المكانية، وهكذا يخلص منيف إلى أن الشرق الـــذي يتناولـــه روائيا هنا هو "العراق" بإنسانه ومكانه، دون أن ينفي ذلك أن يكون العراق نموذجا لمجيء الآخر إلى الشرق العربي.

تعد المظاهر المادية والحضارية من أبرز المقومات التي يجسدها الكاتب في وصـــفه لمسألة اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب، إذ يتجسد ذلك في مبنى الحكم الذي يصنع القرار السياسي وهنا ينبغي الإشارة إلى أن الكاتب يوظف المكان بقدرة فنـــية عالية للتعبير عن الهوة التي تفصل بين الثقافات، فيكتسب المكان الواحد اكثر مـــن معنى؛ وفقاً لما يحتله، فقد بدت السراي – وفق نظرة منيف – مبنى غير منظم يحرســـه الجنود غير المدربين، ولعلّ هذا التناول مرده أن منيفاً يحاول تجسيد حالة الضـــعف والهـــوان التي دبت في أوصال الدولة العثمانية، إذ انسحب التخلف على أقطـــار الوطـــن العربي خصوصاً " العراق"، فتبدو السراي العثمانية مستباحة، ففي الوقت الذي وصل فيه "ريتش"، كما يقول الراوي : –

> "الباليوز مثل عادته دائماً ، حاضر بل كثيف الحضور ، لكن ضمن رصانة صارمة لا يتنازل عنها ، ولا يتهاون بأي من شروطها ومقتضياتها فهو يرفض بعناية كبيرة كل ما يحصل : كيف يعبر الناس عن فرحهم واستقبالهم للوالي ماذا يقولـــون وكـــيف يتصرفون . حتى الانفعالات الصغيرة التي تظهر هنا وهناك يرصـــدها بدقـــة . يفعل ذلك بهدوء وصبر ، ويتقصى دون تعب أو ملل كل ما يحصل ... " (134)

إن هذه الاقتباسات تشير إلى قوة الغرب وتقدمه من جهة، وانعدام الإرادة عند الشـــرقيين من جهة أخرى، وهذا ما يتجلى على لسان الترجمان نفسه بقوله مشعرا صفوت قرداغ ببعد الموعد الرسمي "إن سعادة القنصل يرغب بلقاء الباشا في وقت مـــبكر لكـــي يقـــدم تهانـــيه بمناسبات عديدة: تسلم ولاية بغداد، ثم التهنئة برمضان المـــبارك، وأيضا عيد الفطر السعيد" (135). ويبدو أن الزمن الذي يبحث عنه الشرقي لمحاولـــة نـــيل الخـــلاص مـــن التبعية لا يبدو موفقا في نظر الغرب استنادا لقول "ريـــتش" "هؤلاء الشرقيون يتصورون أن أهميتهم تستمد من قدرتهم على أن يقولوا غـــدا، وغدهم هو المجهول بعينه ..." (136). ومن المظاهر التي يتجلى فيها صراع

الإنسان الشرقي مع الغرب تشابك المصالح وتعقدها، يحاول داود باشا القضاء على الذيـن يمـدون يد العون للاستعمار الغربي متخذين من مصالحهم الشخصية ذريعة لذلك، وقد انسجم ذلك مع قيام الوالي بسجنهم حتى يفرق هؤلاء بين ضيافة السراي والقنصـلية وفـي هـذا المجال ينبه منيف أن ويلات الاستعمار وتغلغله في منطقة الشـرق يعود إلى ضعف الإحساس بالوطنية الصادقة وفي خطابه السابق دعوة إلى يقظة الحس الجماعي الذي بدت أواصره تضعف أمام الاستعمار الغربي.

لا يقـف صراع الشرق مع الآخر عند حدود الخطابات القوليّة التي تتلفظ بها أجهـزة السلطة الرسمية بل يوظف الغرب في صراعه المفردات المادية، ويحاول فـرض ثقافته وإزاحة ثقافة الأخر؛ أيمانا منه بأنّ الثقافة مهيمن عليها حينما تتراجع ثقافـة المضـيف ويـتجلى ذلك في الاحتفالات الرسمية التي يعرضها الإنجليز في شوارع بغداد من فترة لأخرى والتي تظهر الجنود الإنجليز مزدانين بثيابهم ترافقهم الموسيقى وفي هذه اللوحة الاستعراضية إشارة جلية لمرحلة زمنية تغلفها الصعوبة والـتخلف يحياها العراق، ويعلل الغرب مرحلة الجهل التي تؤخر المجتمع العراقي بالأساسيات التي ينطلق منها الدين الإسلامي، وهذا ما يبرز جليا على لسان القنصل نفسه بقوله أن :

... الأمة لا تتقدم بالقوة أو بالإكراه، كما لا تتقدم بجهود فرد مهما كان، ومع ذلك فإن للإيرانيين كفاية أوسع من الأتراك، ولو كانت اسطنبول عاصمتهم لتمكنوا منذ أمد بعيد من الوقوف في صف الأمم الأوروبية ذلك لأن الدين الإسلامي هو الذي يحول دون الرقي...ويعيق التقدم ويشجع على الجمود...(13).

وكأنـه بذلـك يشير إلى انفتاح إيران على الاجتهاد ومحاولة الدولة العثمانية إغلاق باب الاجتهاد والقول السابق يحمل تجسيدا لرسالة الغرب الحقيقية التي تهدف إلـى تغريب الإنسان الشرقي الذي يمثل له الدين سدا منيعا يحميه من الآخر، وهذا مـا يـبدو صراحة على لسان القنصل أثناء زيارة الشمال فقد بدت صورة "محمود باشـا " لـه تمثل خطأً كبيراً مردُّه كما يرى "...ضعفه واحترامه للأتراك الاحترام الكلي، المنبعث في الحقيقة من الشعور الديني..." (138) .

ينقل منيف صورة الغرب الذي يسعى إلى تصدير ثقافته وتقنياته إلى الشرق لخدمـة أغراضـه الخاصة؛ من أجل إحباط كل مشروع يسعى للنهضة والتقدم في الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية، فنموذج "محمد علي" في مصر التي شكل

مــنها جــزءا حضاريا يضاهي المسيرة الأوروبية، يُوَاجه من المستعمر بالرفض؛ فالمطــبعة والجورنال والبعثات العلمية ما هي في نظرهم إلا أمنيات لن تتحقق"... داود يغــرق في الحلم والمناورات خاصة أن ذلك الألباني يعتبر نموذجا مغريا – لا أظــن أحلامـــه تبلغ حد الجنون وتصل إلى هذا المستوى" (139). كما يجسد لنا منيف صورة من صور الضعف التي ترتسم على ملامح دولة الخلافة الإسلامية الذي بدا نفــوذ المســتعمر يدخــل إلى مراكز صنع القرار فيها، وما خوف ""ريتش"" على رجالــه المقيمين داخل السراي الذين ينقلون تحركات الدولة إلا دليل على ذلك (140) وحالـــة الضـــعف والتخلف التي تبدو في العراق تشكل جانباً مريباً للمستعمر الذي يرى في الوالي الجديد نوعا من تعطيل المشاريع والرغبات الإنجليزية في المنطقة، وقــد ظهــر هذا الاعتراف صريحا على لسان ""ريتش"" بقوله إن " هذا الجورجي بمقــدار مـــا يبدو طيباً وبسيطاً، فهو شديد الخطر، تماما كالمياه الساكنة إذ لا يدرك عمقها ولا يعرف ماذا تخبئ في باطنها " (141) .

يــنقل منيف عبر مسيرة ""أرض السواد"" شكلا جديدا من أشكال الصراع مع المحــتل إذ يتعدى مرحلة المواجهات القوليّة إلى حالة من الصدام العسكري، ويبدو تأكــيد هــذه السياســة بقول المحتل نفسه :– "سوف يدرك هؤلاء الناس ماذا يعني الباليوز .. ومن هو "ريتش"" (142) .·

إن المكان المادي لدى منيف لم يقتصر على الجوانب العامة في تشكيل الدولة العثمانــية، بـَـل نجده يقدم نماذج متعددة من الصراع الذي توظف فيه المادة؛ لتحمل مجموعـــة مـــن الدلالات السياسيّة والاقتصاديّة، فبندقية الصيد الفرنسية التي قدمت لأعوان القنصلية تحمل دلالة مؤداها أن العراق مهما تعاقبت عليه القوى المستعمرة ســينال الاســتقلال والحـــرية فـــي نهاية الطريق دون النظر للآخر "البريطاني أو الفرنســـي" مهمـــا تعـــددت أســـاليبه (143)، وتدخل الصحراء العربية بكل محتوياتها ورموزهـــا في معركة الصراع الحضاري، فالغزلان الصحراوية التي أرسلها الباشا للقنصـــل ومـــا تحملـــه من وداعة ورقة هي دليل ثابت على أن العراق متيقظ بكل أجناسه وعناصره التي تختلف تبعاً للأيديولوجيات الفكرية ويقف سداً منيعاً في وجه المســـتعمر(144)، ولعلّ في تقديم الغزلان حالة من الصراع الذي يوظف فيه الإنسان

كـــل ما تقدمه الطبيعة من مكونات حيوانية ونباتية، فتقف الجمال مقابل الفيلة القادمة مـــن الغـــرب (145) تساندها الجمال وهذا ما ورد صراحة على لسان داود باشا الذي يحـــاول استجذاب الطبيعة بكل عناصرها فيصبح لديه الجمل والمخلوقات الحيوانية التي تعيش على أرض العراق نموذجاً للوحة متكاملة تتوحد فيها الطبيعة مع الإنسان لإثبات الذات وتأكيد الهوية.

لـــم يقـــف منيف في نقل حالة الصراع عند الجوانب المادية بل وظف الزمن بكـــل تفصيلاته في صراع الإنسان الشرقي مع الآخر والذي يحاول الإنسان المحلي من خلاله إبداء نوع من المواجهة المؤجلة؛ أملاً في إقصاء الآخر، وهذا ما أوضحه "صـــفوت قرداغ" للمترجم الإنجليزي من أن الباشا مشغول بطقوس رمضان الدينية والوقت غير ملائم من أجل إعداد استقبال يليق بمكانة القنصل (146).

يلتفت منيف إلى بعض مظاهر التحول والاعتقاد الجماعي في الشرق، ويقدم هذه المظاهر من خلال منظور غربي فعند النظر إلى الزمن يحاول الشرقي الالتزام بحرفية المستقبل: الغد، ولعلّ هذه المسألة تكشف عن مدى التصاق الشرقي بالغربي – فهـــي مـــن وجهـــة النظر الغربية كما يبدو– تجعل الإنسان المسلم رهيناً للآخرة متناســـياً إلـــى حـــدٍ بعيد الدنيا، وعلى الرغم من قصور هذا الفهم الغربي للاعتقاد الإســـلامي، فإنها بالضرورة تعبر عن نظرة كثير من المستشرقين الغربيين والساسة إلـــى العقـــيدة الإســـلامية؛ ولعلّ تصور "ريتش" يحتل هذه النظرة "هؤلاء الشرقيون يتصـــورون أن أهميتهم تستمد من قولهم غداً..." (147)، وهذا التعطيل للفعل البشري يقابلـــه اســـتثمار غربي للزمن؛ إذ يصبح الزمن مسرحاً للإنجاز والإبداع البشريين حيث يقاس الزمن بمدى الفعل والإنتاج، فضلاً من أن الزمن ذاكرة غنية بالأحداث، يحـــترمها الغربي ويحفظ مفرداتها؛ لأنها تشكل تاريخه وما الحفل الغربي الذي أقامه "ريـــتش" في ذكرى زواجه من "ماري" إلا ليعلم الإنسان الشرقي، كيف أن الإنجليز يـــتذكرون الســـنة التـــي ولدوا فيها بل ويتذكرون اليوم(148)، إن النظرة الغربيّة إلى الزمن عند الشرقيين على هذا النحو ليست جديدة، فقبل عمل منيف بستين عاماً أشار "يحـــيى حقـــي" في "قنديل أم هاشم" على لسان إسماعيل إلى أي حد ينشغل الإنسان بالمســـتقبل، ويضع له البرامج دون أن يستثمر اللحظة التي يعيش، وهو أمر مرتبط

عـــند ماري بالموروث الديني الذي تعايش معه الشرقي والمتمثل بالإيمان بالقضاء والقـــدر والــيوم الآخر، وليس من مهام هذه الدراسة الكشف عن زيف هذه النظرة الغربيّة إلى الاعتقاد الإسلامي، وقد أغنانا عن ذلك مثلاً "توفيق الحكيم" في "عصفور مـــن الشرق" عندما اقتبست إحدى شخصياته الأثر الإسلامي المشهور "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لأخرتك كأنك تموت غدا" (149) ومن الجوانب السوسيولوجية التـــي يرصـــدها منيف للمجتمع الشرقي وفق منظور الغرب، الغموض في الطبائع والمواقـــف الإنســانية، والرواية ترصد نماذج عدة على ألسنة الغربي في تعامله مع المجــتمع الشـــرقي إذ تبدو صفة الدهشة وردود الفعل المفاجئة تجاه كل جديد أمراً غريـــزياً فـــي نفســـية الإنسان الشرقي، وينطلق الغربي في نظرته إلى تحليل عقلية العربـــي مـــن موقـــف استشـــراقي مســـبق يكون فيه الاستشراق موظف في خدمة الاستعمار؛ فضلاً عن محاولة المستشرقين الإطاحة بالإسلام وتشويهه والادعاء بأن القرآن ليس كلام الله وأن الإسلام بني في نشر دعوته على القوة، ونجد المستشرقين دائماً يشيرون إلى ضعف الشرقي وأنه بحاجة إلى من يأخذ بيده، وطالما شبه بالطفل المحتاج إلى الرعاية، فـــ "ريتش" في "أرض السواد" لا يفتأ يكرر هذه المقولة متكئاً علـــيها في إرساء الهيمنة والسيطرة مدفوعاً كما يدعي بدوافع إنسانية فالشرقيون في نظره :

> يشـــبهون الأطفـــال أيـــام العيد، وما أن تصبح الأشياء التي أدهشتهم في البداية مألوفـــة أو عاديـــة حتى يملون منها وينسوها، ثم يبدأون مرة أخرى البحث عن الجديد أو غير المألوف،وعلينا أن نتحمل هذه الفورة من الانفعال، تماماً كما يفعل الآباء في مواجهة أطفالهم، وأن نحكم السيطرة على ما يليها من الأيام(150)

ورغـــم أن هذا التقديم يمثل نمطاً ساخراً للإنسان الشرقي سلوكاً إلا أنه يبرز أن الشرق أحياناً يوظف سمة الغموض لمصلحة الوطن، فسفر داود باشا الذي خدع القنصـــلية وثـــار على "سعيد باشا" كان عملاً ذكياً على بريطانيا أن تنتبه له وفق ما ظهـــر علـــى لسان القنصل الذي بدأ يدرك مبادئ الإنسان الشرقي التي يبني عليها رؤيـــته السياســـية، ويـــبدو ذلك جلياً من خلال ما قاله بحق الباشا إذ يرى أن "هذا الجورجـــي بمقدار ما يبدو طيباً، وبسيطاً فهو شديد الخطر، تماماً كالمياه الساكنة، إذ لا يـــدرك عمقهـــا، ولا يعـــرف مـــاذا تخبئ في باطنها" (151)، وغرابة السلوك عند

الإنســـان الشـــرقي لا تقـــف عند حدود تصرفاته ومزاجه المتقلب بل تتصرف إلى مظهره العام ولا سيما الملابس التي يرتديها، "فرؤوف السعدي" الذي تعرض للإهانة مـــن رجـــال السراي رغم موقعه التجاري المتميز يبدو غامضاً في نفسية "ريتش" الســـاخرة إذ " إنَّ الإنســـان لا يمُـــيِّز فـــيه مـــا إذا كان متسولاً أو صاحب حانوت صغير..." (152).

يـــبرز منيف الصفات الشرقية، فصفة الكرم واحترام الضيف تثير نوعاً من الفوضى والغموض في نفسية المستعمر الذي لا يصرح عن أهدافه مباشرة، فدعوات "خـــالد بـــك" "ريـــتش" لزيارة "كوي" وتقديمه الخيول العربية هدية له تثير حالة من التـــناقض الذاتي الذي يفرض على المستعمر أسلوب التعامل فـــ "مثل هؤلاء الناس يمكـــن استرضـــاؤهم بســـهولة، شريطة أن تشعرهم بأهميتهم خاصة أمام أتباعهم، وبمجـــرد أن تـــأكل مـــن خبزهم يشعرون بالفخر ويتذكرون ذلك لوقت طويل"(153). ويـــبدو أن الغرب لم يستغرق فهم العقلية الشرقية من هذه الزاوية، فالشعور بالأنفة والكـــبرياء حـــتى لـــو كان ذلك دونما أسس مادية، يشكل حجر الزاوية في تكوين شخصية العربي الذي يجد نفسه في العطاء والبذل وتحقيق الذات ولا سيما أمام أهله وعشيرته .

إن الشـــرق الـــذي يتناوله منيف سرعان ما يتبدل إذ يدرك العراقيون حجم الخطـــر الذي يهدد وطنهم وفي سبيل ذلك يظهرون في نسيج متكامل يحدث في نفس الآخر شعوراً مفاجئاً، وفي وصف هذه الحالة المفاجئة يقول" ريتش ":- "عجيب أمر أهـــل بغـــداد يحـــبون بإســـراف، ويكرهون بإسراف، ولا أعرف لماذا تغيروا بهذا المقـــدار، خـــلال هـــذه الفترة القصيرة "(154) وهذا التغير المفاجئ يحدث في نفوس الغـــرب حالـــة غـــير مســـبوقة، فعين ريتش أصابها الإعياء الشديد تجاه المشروع الوحـــدوي الـــذي أصـــاب قادة الشمال [المغناكارتا الصفراء] الذي تم بين محمود وإخوانـــه وعمّه، ولا يكتفي منيف بتصوير الشرق بعيون الغرب على أنهم مجموعة مـــن الـــنفوس المتناقضـــة المـــرتابة، بل يندرج الارتياب ليغطي المكان الجغرافي "العـــراق"، فقـــد أصبح المكان يحدث ارتياباً وخوفاً في نفسية "ريتش" الذي يرى بغداد مدينة خادعة (155) .

ولعل "ريتش" يدرك أن التناقضات في الأمزجة والمشاعر مردها التنوع في الطوائف وتغير الظروف وردود الفعل تجاه الأجنبي، وعلى الرغم مما في هذه النظرة من تعميم مُخلٍ يلغي الضوابط الدينية ويتجاوز شرائح إجتماعية كثيرة، يقف الغرب موقفا سلبيا في نظرته للخمرة، إذ يتجاوز تاريخ العرب الطويل معها، فيظهر الإنسان الشرقي في نظر الآخر كائنا مملوءا بالخوف والقلق وهذا التعليل الغربي يتفق مع ما ذهب إليه أحد الدارسين عند تناوله لمقولة " ماكدونالد" في "رواية سباق المسافات الطويلة معللا توجه الشرقيين للخمر بقوله :" لكن يبدو لي أن الخمرة بالنسبة للشرقيين شيء خاص تماما، إنها التحدي للطبيعة والدين والضعف والخجل والفوارق الاجتماعية والدينية، إضافة إلى أنها الوسيلة المتاحة للخروج من ضغط الأحداث والهموم" (156) .

كما ينظر الغرب إلى المرأة العربية في الحفلات الاجتماعية فيصورها مقيدة مكبوتة لا تمتلك الحرية في التعبير عن ذاتها والدفاع عن حقوقها الأساسية بل وغرائزها الطبيعية، ويتضح ذلك صراحة على لسان المستر "هايبيني" بقوله :- "أما عندما اختلست النظرات إلى النسوة، فقد رأيت عدداً منهن، بمقدار ما أتاحت لي الرؤية؛ أكثر شهوة واستجابة من المعتاد حتى لو تظاهرنَ عكس ذلك" (157) .

إن هذه النظرة الغربية إلى المرأة العربية تنطلق أساساً من فهم الغربي لعلاقة المرأة بالرجل، فالحفلات العامة ليست شائعة في المجتمع الروائي الذي يقدمه منيف، بينما تعد أموراً مألوفة في المجتمعات الغربية، ولعل هذه النظرة التي رصدت للمرأة العربية في المقطع المقتبس آنفاً ليست دليلاً على الشهوة بمقدار ما هي دلالة على حب الاستطلاع والتعرف على القيم الوافدة من المجتمعات الغربية، وهي القيم في الآفاق التي يحملها الاستعمار أو تحملها الهيئات الدبلوماسية الغربية إلى الشرق دون أن يعني ذلك إلغاء للغريزة أو قمعاً للشهوة، ويبدو أن منيفاً أراد أن يُفسِّرَ محاولة الغربي النظر إلى المرأة العربية انطلاقاً من المتعارف عليه في المجتمع الغربي بعدم قدرة الغربي على تذوق الحشمة والحياء والوقار الذي تتميز به شرائح من النساء العربيات في البيئة الروائية. أما الغناء الشرقي فتسوده حالة من الحزن الذي يصل بالسامعين إلى البكاء ثم سرعان ما يتحول هؤلاء إلى تألق وفرح غير

مســبوقين، وهنا يجد الغربي نفسه حائراً لا يستطيع التمييز بين لحن وآخر، ويشكل الغـناء إحدى اللوازم الموضوعية في البيوت في كثير من روايات منيف، حيث يقدم الغـناء حزيـناً عميقاً يقطع القلوب، وقد تحتم على ذلك أن قدمت مدن الملح عرضاً مسـهباً للغـناء وكيف أنه يكشف عن الحزن الذي يسكن أبناء البادية ويلوث حياتهم وفي "أرض السواد" قد يرتبط الحزن بالغناء بمسائل دينية واجتماعية متوارثة، فضلاً عن أنه يعبر عما يشعر به الإنسان العربي العراقي من قمع وظلم وفقر.

يتـناول منـيف صـوراً مـن صور اللقاء بين الشرق والغرب الذي يتمثل بالاسـتعمار الثقافـي، فالآخر يحاول معرفة العراق بكل تراثه وقيمه حتى يتسنى له بسـط نفوذه عليه؛ لأنه مؤمن بالتراث الهائل الذي يستند عليه هذا الجزء المهم من الشرق، وهذا ما يفسر إلحاح "هايني" بضرورة الاستغناء عن هذا العدد من الكسالى الذيـن لا يعـرف إذا كان ما يقولونه صحيحاً أو هاماً، خاصة وأن قسماً كبيراً منه مُـتعلّقٌ بخصومات الحريم، وفي هذا القول رد على ضرورة توجيه نظرة المستعمر إلـى الجانـب الثقافـي للمجـتمع الشـرقي، والذي بدونه لا يمكن فرض السيادة الاسـتعمارية الأمـر الـذي جعل المستر "هايني" يلح على ضرورة ترجمة الأمثال والأغاني الشعبية (158).

إن الوحدة الاجتماعية التي تتضافر عراها تشكل في نفسية الآخر هاجساً من الخوف والقلق، وكسراً للسياسة الاستعمارية القائمة على مبدأ فرّق تسد، إذ أصبحت الاحتفالات الدينية التي أقيمت في نواحي العراق وجمعت طوائف دينية متنوعة وفق رأي "ريتش" أمراً " يتجاوز المجاملات أو المشاركة الشكلية " (159) . والتي اتخذ من خلالهـا موقفا جادا يتمثل بدراسة هذه الاحتفالات في مناطق مختلفة حتى تتضح له رؤيـة شاملة، ولم يقتصر الوصف الاستعماري على الاحتفالات الدينية بل تعداه إلى كتابة الوثائق التاريخية عن العراق بإنسانه وطبيعته الجغرافية، وهذه الوثائق ما هي إلا محطات مهمة في تاريخ الاستشراق الغربي القائم على الوصف والتحليل الدقيق، فريـتش فـي رحلة الشمال يقدم ملخصا شاملا للأوضاع السياسية وما يسود الدولة العثمانـية من حالات الضعف والانقسام ونظرة الناس للأحداث والتكتلات السياسية، ولا يكتفـي الوصـف بالتركـيز على ماهية الأحداث والأمكنة بل يغور إلى أعماق

الإنســـان نفســـه فقد ظهر الإنسان في الشمال كائناً مملوءا بالبساطة ودماثة الطبع ، وهذا الأمر من وجهة نظر ريتش لم يكن من الأمور الاعتيادية بين الأكراد (160).

ومـــن المســـائل المتعلقة بالعادات والتقاليد التي يتناولها الغرب من منظوره الفكـــري "الطعام الشرقي" الذي يبدو في نظرهم يمثل حالة من الموت السريع ويبدو أن الغربي لم يستطع أن يطور ذوقا ملموسا لمفردات الحياة العربية سواء أكان الأمر مـــتعلقا بالموســـيقى أم بالتعامل الاجتماعي أم بالطعام ، ومهما يكن فأن عدم القدرة علـــى تطوير الذوق حدت بالدكتور رايتْ أن يصف الطعام العراقي بقوله : "لو قدر لأي خنزير أن يتناول هذه المقادير من الأطعمة، ومن هذا النوع، لقضى قبل طلوع الفجر " (161).ويرى الغربي أن تعليل الشرقي لامتناع الضيف عن تناول الطعام، هو الخشـــية من السم، ولعل هذا هوالدافع الأساسي الذي جعل "ريتش" يعتذر باستمرار عن تناول الطعام الشرقي بحجة التوصيات الطبية أو أيام الصوم الكبير(162).

ويـــبدو الطعام العربي لشدة توابله وكثرة محتوياته نمطاً من الموت في نفس الإنسان الغربي، وهذا ما نظفر به من وجهة نظر "ريتش" الذي يرى الطعام نمط من "الموت الذي لا يخلو من مازوشية، وهو ما يفعله الشرقيون بإسراف وكأنهم يتلذذون بهذا النوع من الموت " (163) .

ويلتفـــت منـــيف إلى مسألة في غاية الأهمية حين يبسط الحديث عن إشكالية اللقـــاء الحضـــاري، وهـــي أن الأمم المغلوبة أو المحتلة تلجأ إلى الدفاع عن النفس وتُمْعِـــنُ فـــي إبراز مظاهر الرقي فيها سواء أكانت هذه المظاهر تاريخية تراثية أم معاصرة تتمثل في العادات والتقاليد. إنَّ إلحاح الشرقي على تفوقه الحضاري " الماضي " إنما هو ردٌّ على ما يتمتع به الغربي الآن من سيطرة وامتلاك لمفردات الحضارة المادية، ولعل "ريتش" لم ينتبه إلى هذه المسألة بل عدّ نكوص العربي إلى تراثه وأفكاره مظهر نقص ودلالة عدم ثقة، يقول:

> وبعـــض الـــناس يهمهم أكثر من المال:– الكلام الدافئ الذي تقوله لهم، وطريقة القول، ثم كـــيف تتعامل معهم، خاصة أمام أنصارهم، لأنَّ الكلام، مجرد الكلام يعني الكثير لهؤلاء الشـــرقيين ربما لعدم ثقتهم بأنفسهم، ولانهم بحاجة دائما إلى اعتراف الآخر وهذا يعني أن تحفظ بعض أشعارهم وأمثالهم، حتى لو استعملتها بشكل خاطئ ..." (164).

والحقـيقة أن منيفا يقف هنا موقفا حياديا لا ينتصر فيه إلى جهة على حساب أخرى، وإنما يفسح المجال للغربي ليقول عن الشرق ما يقول بيد أن السياق العام في الرواية يدعـم اعتزاز العربي بتراثه وإبداعه الحضاري؛ ليس لأنه بحاجة إلى الآخر وإنما حفاظا منه على هويته الشرقية عربية و إسلامية.

إن هذه المسألة تقود إلى مفردة أخرى تتصل بالكنوز الأثرية، فكيف يمكن أن يُتَّهم العربي الشرقي بالتخلف والحاجة إلى الآخر وهو يمتلك هذه الكنوز الثمينة التي تقـف شـاهداً علـى مراحل تطوره ونموّه وتقدمه الفريد عبر آلاف السنين؟ ولماذا يحاول الغربي مصادرة القطع الأثرية ونقلها إلى متاحف الغرب؟ أليس في هذا دليل علـى محاولـة تفريغ الشرق من محتوياته الفكرية وقيمه الخاصة بغية الهيمنة على ثـرواته الطبيعية، ومحاولة تغيير هويته الثقافية؟ وهل يمكن أن يُعمّم "ريتش" تعامل بعـض العراقييـن في سرقة آثار وطنهم وتسليمه للأجنبي ويجعل ذلك ظاهرة عامة تنسـحب على العراقيين كافة؟ إن "ريتش" نفسه يعترف أن من يفعل ذلك هم أصدقاء الأجنبي، يقول عندما دعي مع مجموعة من الناس "لأن الداعيين بالإضافة إلى كونهم أصـدقاء سياستنا، فانهم سيكونون شديدي النفع في مجال الآثار " (165) . وعلى وفق هـذا الملفـوظ يـبدو بعض الشرقيين مادياً إذ يوظف خدماته ومعلوماته الأثرية في مصلحة الآخر أملاً في الوصول إلى المال الكثير "لأن هؤلاء الشرقيين يفهمون لغة القوة، أكثر من أي لغة أخرى ولا بأس من المال بين فترة وثانية شرط ألا يكون هذا المال منتظما من حيث المقادير أو المواعيد "(166).

ولـم يكتف الغرب الاستعماري بمصادرة مفردات الثقافة المادية، بل تجاوز ذلك إلى محاولة تغيير القيم الاجتماعية والروحية وتوظيفها لمصادرة الآثار، ويتناول منـيف حـركة التبشـير بالديـن المسيحي التي مهدت الطريق للاستعمار وبالتالي مصـادرة اللقى الأثرية التي يحويها الشرق، فلم يعد دور رجل الكنيسة منصباً على التبشـير بمـبادئ الدين المسيحي بل تجاوز ذلك إلى دور متميز يتمثل بخدمة علماء الآثـار وتسـهيل وصولهم للأماكن والكنوز الأثرية وإزاء ذلك يلاقي المستعمر ثناءً كبيرا فهو بعمله هذا يسهم في استيعاب الشرق، وهذا ما يبرر إعجاب "ماري" الشديد بأعمـال زوجهـا إذ قالـت له : "يكفي أن تكون أنت الصياد، وتعرف ما يجب أن

تصـــيد"(167). وفـــي هذا الملفوظ الروائي يقدم منيف رسالة نقدية لما تواجهه كنوز العراق الأثرية من حملات مصادرة وتشويه في الوقت الذي تغط فيه الدولة العثمانية بسبات عميق إذ لا يتوفر مدفع عثماني لحمايتها، وقضية الكنوز الأثرية لم تقف عند حدود الصراع بين مالكها الحقيقي "الشرق" بفعل الحضارات التي قامت على أرضه والغرب المتمثل بـــ "الإنجليز" الأغراب القادمين للعراق بل أن منيفا ينقل لنا مرحلة غـــير مســـبوقة مـــن انقسام الغرب على نفسه وهذا ما نلمحه في سباق الاكتشافات الأثـــرية بيـــن الإنجليز والفرنسيين بعدما أفرزته الأحداث من سقوط نابليون واتساع المـــد الإنجليزي في الهند والمنطقة العربية وما رواية "أرض السواد" إلا صدى لهذه الأحـــداث السياســـية التي يمثل العراق جزءا منها إذ تبدو مسألة تناوب الحضارات الإنســـانية من المسائل الجلية روائيا فضعف فرنسا انعكس على القائمين بمصالحها بالخارج وما عجز القنصل الفرنسي عن شراء عصا مقبضه فضة للمترجم الفرنسي وكذلـــك ردود فعـــل القنصـــل الفرنسي بضرورة تقليل النفقات إلا دليل مادي على انـــتكاس فرنســـا سياســـيا واقتصاديا في منطقة الشرق ودلالة على قوة الاستعمار الإنجليزي الذي أصبح الكلمة الأولى في العراق فهو على اطلاع بما يدور في أنحاء العـــالم ، ومـــا يمثل ذلك قيام "ريتش" أثناء وداع القنصل الفرنسي "المسيو ريمون" بطلـــب كتابيـــن صـــدرا حديثا في فرنسا الأول عن الهند والثاني عن الإمبراطورية العثمانية اللذين يشكلان نموذجا حيا على نمط من أنماط الصراع الثقافي بين أوساط الغرب نفسه (168).

إن الـــنماذج المقدمة روائيا هي شاهد على أشكال الصراع السياسي والثقافي والاجتماعي الذي لم تنته بوادره بمغادرة القنصل الفرنسي للأبد والتي شعر "ريتش" بعدها بالراحة وأن معركته مع قنصل فرنسا قد انتهت (169).

يتناول منيف في سياق حديثه لمسيرة "أرض السواد" التواصل الإنجليزي مع الـــيهود والذي مرده حصول هؤلاء على وطن قومي في المنطقة العربية ولعل منيفاً في تصويره لهذا التلاحم شكل جانبا موفقا؛ نظرا للفترة التاريخية التي يتناولها العمل الروائـــي فقـــد بـــدا هذا التواصل على شكل هدايا قدمها التجار اليهود بمناسبة عيد جلـــوس الملك على رأس وفد ترأسه "عزرا" وهكذا فقد امتلك الإنجليز حضورا قويا

فــي المــنطقة مبشــرين بــأن الزمن القادم هو مساحة حرة يمتلكون وحدهم وضع خطوطها المستقبلية ، وهذه الحالة تبرر القسم الذي قطعه " ريتش " على نفسه بقوله: "لــن تعــود تلــك الأيــام مــا دمت موجودا " ، ولا يغفل الآخر رغم توحد أهدافه الاســتعمارية عــن الصراع الحضاري في تتبع الخريطة الأثرية ولعل المتاهة التي تواجهــه بيــن الحين والآخر مردها كما يرى ضعف الإحساس الديني ويتجلى ذلك بقوله معلقا على إخفاقه في الوصول للمصادر الأثرية :

> صحيح أن الرب كان يقود خطوات الطرفين، لكن يبدو أنه لسبب ما،حين كان يقــود خطواتنا، أوصلنا إلى المكان الخطأ، بينما رب أولئك الكاثوليك،قادهم إلى حيث يجب أن يكونوا، ولقد سبقونا إلى هناك وعلينا أن نسرع قبل فوات الأوان (170).

ولتحقــيق هــذه الرغبة القومية في نفس المستعمر يؤكد "ريتش" على طمس المعــتقدات الفرنســية التــي ارتسمت في نفوس الشرقيين والتي مؤداها: "الإنجليز عابرون قد يبقون هنا يوما أو اثنين، وبعد ذلك سيواصلون الرحلة إلى مكان آخر أما نحــن فــباقون، ولذلــك لا حاجــة للقلــق أو الخوف! "(171). وقد سعى الاستعمار الإنجلــيزي إلى طمس صورة الفرنسيين في نفوس الشرقيين، فالخبراء العاملون في الآثــار نتــيجة ما حققوه من تقدم،يبدون في نظر الإنجليز بــ " أنهم مثل قادتهم مثل رؤســائهم، كل واحد منهم يفترض أن لديه رسالة، وعليه واجب لكن يجب أن يفعل ذلك بشكل سري، لأن الثورات، كما يتوهمون، لا تنجح أبداً إلا إذا كانت في المرحلة الأولى علنية، وتفشل إذا كانت في المرحلة الأخيرة سرية " (172). ووجودهم في هذه المــنطقة يتطلــب من بريطانيا الكثير وهذا ما عبر عنه "ريتش" بقوله: "لقد أفسدتهم الــثورة الفرنسية و أفسدهم أكثر نابليون؛ أما الفساد الأكبر فسببه تلك الحيرة التي لا تفــرز ســوى العــداوة،وعلــى بريطانيا أن تفكر بطريقة مختلفة أما باستيعابهم أو بإلغائهم"(173).

يقــدم منيف صورة ساخرة تجاه المعتقدات والثوابت التي يتعامل بها المجتمع فــي فصله وتمييزه بين المستعمرين، إذ تزول هذه الفوارق القائمة على حكم فطري يــنطلق من أهواء وأمزجة متنوعة؛ لأن هدف الاستعمار متوحد وأن تعددت صوره وأشكاله في استمالة الشعوب وهذا ما عبر عنه المستعمر صراحة كاشفا عن حقيقته الاســتعمارية بقوله:- "وأغرب شيء أنّهم يعنون بالأجانب الكفرة الإنجليز وحدهم،

وكــأن الفرنســيين يصـــلون معهــم في الصلوات الخمس أو ربما صدقوا ما أعلنه نابليون، أنَّه اسلم وارتدى العمامة " (174) .

لا تقف النظرة الغربية إلى الشرق عند حدود إنسانه المتعب الذي قست عليه ظــروف الحــياة بــل تتعداه إلى الطبيعة التي لا ذنب للإنسان الشرقي في تكوينها، فــتظهر "أرض الســواد" عبر مسيرتها الروائية مواقف متعددة للآخر تجاه الطبيعة الشــرقية ، تركّــز جلها في تجسيد كراهيته لها ولطقوسها الكونية، ففي الوقت الذي يمــارس به الإنجليز هواياتهم اليومية من حضور الحفلات في أماكن مليئة بالأجواء الصــاخبة يسودها الشراب والموسيقى الغربية يقنع "ريتش" نفسه على مضض بأن حــرمانه مــن متطلبات الرفاهية الغربية، إنما هو تجسيد لخدمة هدف قومي يتمثل بــرفع العلم البريطاني في مناطق الشرق، وهذه السلوكيات الغربية تحدث في نفسية الإنســان الشــرقي شــعورا مليئا بالغرابة والتساؤل وهذا ما يبدو على لسان "ناطق أفــندي" الــذي يعبر عن الغرب بقوله:- " في جو مختلف عن الأجواء التي عاشوا فــيها، وبين شعب لا يكن لهم الود، ومع ذلك يبدون راضين..." .(175) ولعلّ في هذا الشــعور تجسيداً أكيداً للإنسان العربي الذي بدأ يدرك ضرورة الانتباه إلى الأهداف الكــبرى وراء الوجــود الغربــي فــي الشرق وضرورة الإفادة من التاريخ وتذكر الحروب الصليبية،- وزيادة على ذلك- ضرورة الأخذ بأسباب التقدم والاستفادة من المــنجزات الغربية ومحاولة الوصول إلى مستوى الأمم المتقدمة لكي يتمكن العربي من المحافظة على هويته.

إن مــا وصــلت إلــيه بريطانــيا من تقدم حضاري في الميادين الاقتصادية والاجتماعــية ، كان السبب الرئيس الذي دفع بالإنسان الغربي إلى اقتحام الشرق من أجل تطويره؛ حتى يتسنى استثمار خيراته سواء أكان ذلك على مستوى المواد الخام أم في محاولة خلق أسواق استهلاكية للمنتجات الغربية.

لــم يتجسد الصراع الحضاري صداما أو صراعا في مسائل الدين والتنافس الاســتعماري ومحاولة طمس الهوية فقط، إنما شمل كذلك القوة العسكرية ، ولتأكيد رغــبة المستعمر في إظهار هذه القوة فقد تبدت مجموعة من الاستعدادات العسكرية التــي يلمــح مــن ورائهــا المستعمر استيعاب الشرق وإخضاعه ، وقد اتخذت هذه

السياســة مجموعــة من التحركات تمثلت بقيام القنصل بزيادة عدد الحراس وتجديد ثــيابهم، وبث العزيمة في نفوسهم وتذكيرهم بين الفينة والأخرى بهدف وجودهم في مــنطقة الشــرق الأمر الذي دعاه لتقديم "وشاح الرواد والمكتشفين ما بين النهرين" لقــبطان سفينة "آن ماري" من أجل زرع الثقة في نفسية الجندي البريطاني حتى لا يشعر بالغربة جراء الابتعاد عن وطنه الأم (176).

إن الـنظرة الاستعمارية التي يكرسها الإنجليز في تعاملهم مع العراق لم تكن تنحصــر علــى أجـزاء معينة من الأرض بل تناولت البناء العراقي من شماله إلى جـنوبه، وهــذا ما أكد عليه المستعمر مراراً بقوله:- "من الخطأ اعتبار أن المركز وحــده هو الذي يقرر النتائج، إذ يمكن للأطراف إذا أحسن تحضيرها وتدريبها، أن تطبق على المركز كما يطبق الوحش على فريسته، ويكون الظفر مؤكداً، إذا أحست الفريسة أنها بعيدة، أو أنها بمأمن" (177)، وتكشف رحلة الشمال نموذجاً حياً من كره الآخــر لعقلــية الإنســان العربــي الــذي يبدو في نظرهم متناقضاً مليئاً بالأوهام والخرافات، وأمام تحدي الإنسان والمكان الشرقي يجد المستعمر نفسه ملزماً برسالة مقدســة تجــاه وطنه، وهذه الرسالة في أحيان ما لا تبدو ملزمة خاصة إذا اتصلت بمصـــالح الفــرد الغربي وطموحاته، وهذا ما اتّضح عندما رفضت "ماري" زوجة القنصـــل البريطانـــي فكرة الإنجاب في منطقة الشرق معللة ذلك بأن الطفل سيكون طبيعياً في بريطانيا، أما إذا ولد في الشرق فإنه سيحمل عقلية هذا المكان والتي تبدو في نظرها مرفوضة لما يسودها من الجمود والتعقيد (178).

ويمكــن القــول إن نظــرة الغرب إلى الإنسان الشرقي لا تخلو من الشعور بالفوقــية والتميــيز العنصــري بيــن بني البشر، فالشرق متخلف بدائي لا يستحق الــثروات التــي يمتلكها، وهو كالطفل الذي يحتاج إلى الرعاية والاهتمام، ومن هنا فعلى الغرب السيطرة عليه وامتلاكه دون الامتزاج بأفراده؛ لأن هذا الامتزاج يعمل علــى إعاقــة الغربــي، ولعل في قول "ماري" المقتبس آنفاً دليلاً على مدى رفض الغربــي لكثــير مــن القيم الشرقية على الرغم من الإعجاب ببعض مفردات الحياة الشرقية الذي نلاحظه في الرواية من حين لآخر .

4.2 البعد الاقتصادي :

تعـــدُّ البنية الاقتصادية التي ترصدها "أرض السواد تعبيراً منعكساً بغير شكل عـــن الواقـــع الاجتماعـــي الـــذي يتحرك ضمن البناء الروائي، فقطاعات الحركة الاقتصـــادية مـــن تجارة وزراعة وصناعة تبدو بدائية إن لم تكن معدومة في بعض الأحـــيان؛ إن استجلاء أهمية الاقتصاد مبني على كشف أثره في تحريك حياة الناس، وتشـــكيل مجمـــل القيم الإنسانية، وقد يعثر على ذلك عند بعض المنظرين في البناء العقلـــي والثقافـــي، فقـــد جعـــل ماركس البنية التحتية مسؤولة عن البنية العليا لدى المجـــتمع؛ إذ يلمـــس بين الفينة والأخرى أن هذه القطاعات لم تشكل تغيراً ملحوظاً علـــى حـــياة الإنسان العراقي وعلى الرغم مما أشرت إليه من تخلف اقتصادي فإنّ المحـــدق في الرواية يستطيع أن يتبين بروز طبقتين اجتماعيتين متفاوتتين اقتصادياً، فـــتظهر الطـــبقة الأرستقراطيّة المتمثلة في الأسرة الحاكمة ولا سيما أصحاب النفوذ الاقتصادي فيها، في حين تظهر الطبقة الفقيرة المعدمة التي تعيش على الكفاف رغم مـــا يســـود حياتها اليومية من صراعات ورغبات جامحة لا تتجاوز تحصيل القوت اليومـــي الذي يسد الحاجة، ويغني عن السؤال، ويعد أنين الإنسان العراقي ومعاناته اليومـــية التي لا تقف عندِ حدود الفرد بل تتجاوز ذلك إلى النسيج الاجتماعي عامة؛ انطلاقـــاً مـــن أنّ الشخصـــية الإنسانيّة ما هي إلا عينة حقيقية تجسد فئة واسعة من المجتمع الإنساني، فيشترك "السقاء، وإمام المسجد، وصاحب القهوة، وحلاق المحلة، والمـــثقف الجماهـــيري" بحالة من التساوي في حياة يسودها الفقر والعوز وضعف الدخـــل ويعدّ كل ذلك ملمحاً بارزا، وهذا ما تكشف عنه حواراتهم وأحاديثهم اليومية علـــى امـــتداد صفحات الرواية، فهي تمثل نقلاً حقيقياً لاجتماع مفردات السلب على واقـــع الحـــياة الاجتماعية التي يحيونها، والسلبية التي تصيب هؤلاء لا تقف السلطة السياســـية وحدها سبباً في معاناتهم بل تسهم الطبيعة باحتجاجاتها المتكررة وخاصة الفيضان عاملاً مسانداً في حياة الفقر والقلق، آخذين بعين الاعتبار ما يمارسه الآخر مـــن مخططـــات لنهـــب مـــوارد الـــبلاد، وإذلال الأفراد والجماعات على اختلاف مستوياتهم الثقافيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة.

تشكل الذات هماً ملازماً للإنسان في مجتمع الرواية ولا سيما أصحاب النفوذ الاقتصـــادي والمكانـــة الاجتماعيّة داخل مجتمع الدولة، ولعلّ في إبراز هذا المكون الإنســـاني "النفسي" تأكيداً على أن تضخم (الأنا) ما هي إلا تصور جمعي لدى بعض الأفــراد، وإن لــم تقــدم الرواية ذلك بشكل جلي، ويظهر نمط التضخم الفردي في الــرواية لدى "عزرا" الذي يرى لنفسه الأحقية في تولي منصب "صراف باشي" في حكومـــة "سعيد باشا"، لكن سرعان ما خاب هذا الظن إذ قام الوالي بتعيين "ساسون" مكانـــه، هذا الأمر لم يدفعه إلى الثورة على الحاكم رغم استدراج خصمه، فقد آمن دومـــاً "بـــأن الحرية التي يؤقتها الآخرون، ويدعونك لخوضها، ستكون فيها مدافعاً، والدفاع أغلب الأحيان، نصف خسارة، أو خسارة مؤجلة" (179).

ولا يقف الصراع بين الفرد وخصومه عند هذه الحالة، بل يتعدى ذلك إلى ما يشبه التظاهر بالطهارة والعفة وحب الوطن، وهذا التناقض كما يشير أحد الدارسين نـــاجم عـــن "الـــتعارض العمـــيق بين متطلبات التحقق الجماعي، ومتطلبات تعظيم المصـــالح الخاصـــة للعناصر أو الكوادر الفردية المكونة لها"(180). ويبدو هذا الملمح جلـــياً لدى "عزرا" الذي يؤكد للمحيطين به ولا سيما زوجته "وردة" حبه لمدينة بغداد فـــي حين يبدو هذا الحب غير طاهر ونقي، وذلك نابع مما وفرته المدينة "بغداد" من مناخ خصب لإدارة أعماله التجارية؛ إذ يشكل كل من الناس والمدينة وحتى الطقس أسبابا داعمة لذلك، ويفسر ذلك رفضه المستمر لدعوة أخيه "حسقيل" بضرورة ترك مديـــنة بغـــداد والسفر إلى اسطنبول (181)، كما أنّه يرى في ذلك الهروب أمنا لماله بعيداً عن سلطة الدولة العثمانية التي لا تكف عن الطلب المستمر للضرائب، ويمكن القـــول إنّ التصوير السابق للحالة التي يحياها "عزرا" تجسيد يقوم على أن الاقتصاد عنصـــر مـــتحكم بحركة الإنسان وترحاله، ومتحكم بمشاعره تجاه المكان والمحيط الاجتماعـــي، فالحـــب الذي ادعاه "عزرا" للعراق ينطلق من مصالح اقتصادية بحتة وليس ممّا يرتبط به هذا الفرد من علاقات اجتماعية داخل بيئته المحيطة.

يـــبرز منيف الدور المهم الذي يمارسه الاقتصاد في تغيير أنظمة السياسة في العراق، فقد بدا هذا الأثر واضحا من خلال ما قام به "عزرا" من صك للنقود ووضع صـــورة "ســـعيد باشا" عليها بدلا من السلطان العثماني الأمر الذي أدى إلى تكليف

"داود باشـــا" بحكم العراق وعزل "سعيد باشا"، ويبدو هذا التوجه خطيرا انطلاقا من تعبـــير عزرا نفسه بقوله: "... وسيكتب التاريخ في قادم الأيام كيف أصبحت البارة أثمـــن من ليرة الذهب، ليس ذلك فقط، سوف يقال إن بارة قضت على أكبر الولاة فـــي العـــراق "(182) ويتضح أنَّ الذي يتحكم بالمال يتحكم في تسيير الاقتصاد ويؤثر بالضرورة على رسم الأدوار السياسية، فضلاً عن التأثير العميق في القيم والعادات، ويبدو أن اليهود يشكلون الفئة الأكثر تأثيرا في تسيير السوق واحتكار موارد الثروة، ولعـــلّ منيفاً يريد أن يبرز دور اليهود قديما وحديثا بالتلاعب في رأس المال لتحقيق أغراض سياسيّة بعيدة المدى، وهذا التوجه نابع من خلال رسائل "عزرا" أثناء ارتداد قوات داود باشا في مواجهة "سعيد باشا" والتي يقول فيها :

> وتركت لكم ثلاثة أنواع من الثروة: مالاً إذا عرفتم كيف تتصرفون به سوف يتضاعف من جيل إلى جيل، وتركت لكم علاقات تحميكم من غدر الزمان وتقلب الأيام، وتركت لكم سمعة تحول التراب إلى ذهب، وتجعل كل حاكم يتلمس رأسه قـــبل أن يعـــاديكم، فاعـــرفوا أين يجب أن تضعوا أقدامكم ومن تصادقون ومن تعادون" (183).

إنّ قضية بروز الذات عند المتنفذين اقتصاديا تعكس حالة من الفساد الإداري الـــذي ينصـــرف فيه هم الإنسان المسؤول إلى جمع الثروة متناسيا مصالح المجتمع الذي كلف بإدارتها والحفاظ عليها، و"أرض السواد" زاخرة بأمثلة الفساد المالي الذي أرهـــق الاقتصـــاد الوطنـــي، ولا عجـــب أن تقوم الدولة العراقية الجديدة بمحاكمة المســـؤولين عن ذلك، وقد انطبقت هذه الحالة على "حمادي" أحد العاملين لدى دولة "ســـعيد باشـــا" السابقة، فقد نبّه "داود باشا" أن يعاملِ هذا الرجل برقة أثناء التحقيق معـــه لمعـــرفة المكان الذي يدخر فيه الأموال التي استلبها سابقا الأمر الذي أحدث ضـــيقا اقتصـــاديا في وجه الحكومة الجديدة، وقد ساقت قضية موته أثرا كبيراً على الاقتصـــاد إذ توجهـــت الحكومـــة العراقـــية إلـــى مواجهة سياسة تقوم على القمع والاضطهاد تجاه المتنفذين اقتصاديا وما حملة الإجراءات التي تعرض لها كل من" قاسم الشاوي، وعثمان الهاجري" إلا شواهد حيّة على سعي الدولة لتحصيل الأموال للوفاء بالتزاماتها تجاه سياسة الضرائب التي تمارسها الدولة العثمانية (184) ولعلّ في التصوير الدقيق للحراك الاقتصادي دليل على محاولة منيف تقديم نقد واقعي على ما

هــو مطــبق في البلاد العربية التي يتدهور فيها الاقتصاد نتيجة مطامع الأشخاص القائميــن علــيه في الوقت الذي يدفع الفقراء فيه انتكاسات الاقتصاد الوطني ويسهم المجــال الدينــي متمثلا بالقائمين عليه في خدمة المتنفذين سياسياً واقتصادياً؛ وذلك انطلاقــا مــن وَصْفِهِ : "آلية تساعد على تكريس التفاوتات الطبقية بينهم وبين أفراد المعســكر الآخــر من الفقراء والمعدمين، وذلك من خلال الاستعانة بالآيات القرآنية التــي تثبــت الأوضاع وتؤكد أن الله موزع الأرزاق" (185). ويظهر ذلك من خلال موقــف "الملا حمادي" الذي بدا في صف السلطة السياسيّة والاقتصاديّة مما انعكس ســلبا عليه : فقد سبب هذا الموقف له كرها من أعضاء المحلة المحيطين به، إذ لم يســلم من انتقادهم ولا سيما عندما يبدأ بعملية الآذان داعياً الناس للصلاة الأمر الذي يثــير موجة من الذكريات في عقول أفراد المحلة فيلجأ بعضهم إلى عقد مقارنة بينه وبين"الملا خضير" فيصفون صوته بأنه نشاز ويترحمون على الأيام الماضية(186).

إنَّ توحــد المشــاعر الإنســانيّة تجاه الملا تنبع من كونه وظفّ الدين لخدمة الســلطة وتناســى معاناة أهله الفقراء إضافة إلى سرقة أموال الزكاة والخمس وهذا الأمر أحدث فيما بعد تغيراً اقتصادياً على نمط حياته تمثّل في الغنى غَيْر المسبوق، ويؤكــد ذلك المشاحنات والمناكفات القوليّة التي حدثت بينه وبين "سيفو المحمود" إذ كان كل واحد منهما يمثّل مادة خصبة للسخرية يتسلى بها الآخرون في وقت فراغهم أمام الناس، فقد شكلت قضية ترك "سيفو المحمود" لمهنة السقاية عنصر استهزاء من قــبل الملا الذي لم يتوان عن وصفه بسوء السلوك والجهل والضعف الديني فهو لا يســتطيع الــنجاح إلا بهــذه المهــنة، وهنا نظفر بتوحد الأحاسيس والمشاعر داخل المجتمع رغم انشغاله بأزماته الدائمة التي يمثّل الجانب الاقتصادي حيزاً كبيراً منها (187) .ولعلّ في اجتماع المواقف تجاه "الملا"، ما يتفق مع قول أحد الدارسين:- " إن الديــن ســلاح يتسلط على المغبونين إذْ يدفعهم إلى الاستسلام والإذعان؛ لأنه يهدد أملهم الأخير في الخلاص والعزاء في ثواب الآخرة" (188).

تــبدو المــوارد الاقتصــاديّة التي يعتمد عليها أهل "أرض السواد" بدائية في إنــتاجها إذ لــم تبد أنماط التغيير والتطوير ظاهرة على العينات الإنسانيّة التي تعمل فــيها، وهــذا ما يتفق مع الدراسات الاجتماعيّة التي تشير إلى أن "المجتمع التقليدي

يتصف بخصائص عدة عن المجتمع الحديث، ومنها انخفاض إنتاجية الفرد لاعتماده علـــى الوسائل التقليدية في الإنتاج" (189). ونظفر بهذا التوجه جلياً في "أرض السواد" وعلــى مختلف القطاعات الاقتصاديّة خاصة الزراعة ، فقد بدا المزارعون يعيشون حالــة من القلق الشديد النابعة من بدائية التخطيط في نمط مزروعاتهم، إضافة إلى حــالات القحط والجفاف التي تصيب المنطقة من حين لآخر ، ولعلّ في هذه النفسية المحــبطة تقديمــا مبررا من قبل هؤلاء لترك أرضهم؛ إذ يجدون في انطلاق رحلة الكشــوف الأثــرية فــي منطقة الشمال حافزا يدعو لهجر الزراعة والانطواء تحت مــيدان العمــل الذي يضمن الدخل الثابت، ولعل في رحلات الكشوف الأثرية التي يمارســها الوافــد نمطاً من التوجه المبطن الذي يسعى من خلاله إلى أبعاد المزارع العراقــي عــن أرضه ومحاولة نزع هويته الحضارية، ويتخذ في سبيل تحقيق هدفه دفــع الأجــور المجزية للمشاركين في رحلات البحث الأمر الذي وجد صدىً كبيرا لــدى هؤلاء ولا سيما بعد إن وصلتهم الأخبار بأن "القنصل يدفع أجورا سخية لقاء حفر بعض التلال أما إذا وجدت الكنوز فسوف يدفع أجراً مضاعفا" (190).

ويســتغل المســتعمر حالة الجهل والضعف لدى المزارعين العراقيين ليزيد أعدادهم حتى لا يخرجوا عن سيطرته الأمر الذي سيجعلهم يجدون كنوزاً مهمة تقع فــي يــده قبل الفرنسيين ولم يكتف منيف بتقديم صورة المزارع الاجتماعية المليئة بالفقــر والحــرمان بل نراه يجسد في عمله مسحاً عاماً للزراعة العراقية ومستوى تــراجعها، فخصوبة العراق وكثرة نخيله لم تكن مساحة كافية لهذا النشاط الإنساني، بــل تضــافرت مجموعة عوامل – صوّرها المجتمع الروائي – أثرت على القطاع الزراعي، فلم تكن أعمال المحتل الآنفة الذكر وحدها عاملاً سلبياً، بل شكل الفيضان المائــي عنصــراً مستديماً يخلق باستمرار حالة من القلق لدى الإنسان العراقي ولا ســيما المزارع، فهو إن نجا جسديا من خطر الفيضان لا يأمن في الوقت نفسه نجاة أرضــه ومحصــوله الذي يعول عليه في مستقبله القادم، وهكذا فالفيضان أقلق كافة الشرائح الاجتماعيّة، وقد ورد ذلك صراحة على ألسنة كبار السن بشكل دائم، ورغم تذكــر الفيضان فالكثيرون يحاولون نسيانه وكأنهم بطريقة التفكير هذه يبعدونه جانبا إلا انهــم يعــترفون بقــرارة أنفسهم أن الفيضان، مهما ابتعد فانه بالغ القرب شديد

الحضـــور أشبه بالموت الذي يأتي إلى الإنسان دون سابق إنذار (191). ولعلّ في هذا الحضـــور الخطـــير لفعـــل الفيضان المدمر قلقاً للمجتمع بصغاره وكباره مزارعين وتجـــاراً، فهـــو النقطة التي تعيد الجميع إلى مرتبة الصفر وربما إلى أقل من ذلك، وهكـــذا فالطبـــيعة بفيضانها وعدم قدرة الإنسان العراقي على بناء السدود التي من خلالها تتحول مياه الفيضان من عامل موت إلى عامل حياة لكافة المزروعات تجعل الإنســـان مرهوناً بسيطرتها، وفي هذا التوجه يقدم منيف نقداً ملموسا لفترة تاريخية ســـادت العراق والتي معها أهملت الزراعة بعد انصراف الدولة العثمانية إلى همها الأساســـي المتمـــثل بجمـــع الضرائب التي أرهقت الإنسان العراقي بكافة مستوياته الاجتماعـــية التي لم تقف عند حدود ذلك بل كانت تشكل نمطاً من هيبة حاكم العراق وبقـــاءه علـــى كرســـي الحكم، وليس أدل على ذلك إلا ما صرحت به الخاتون التي تـــربط مصـــير بقـــاء الحـــاكم العراقي على كرسيه بمقدار تأديته لضرائب الدولة المفروضـــة عليه(192) وليس أدلّ على ذلك أيضاً إلا قيام حمادي بالتنازل عن مساحة كـــبرى مـــن أراضـــي المسيب في الوقت الذي لا يجد فيه العراقيون ما يسد رمقهم وجوعهـــم ومرضـــهم، وفي هذه المفارقة الاجتماعية التي تعكس تفاوتا طبقيا شديد الاتســـاع بين النظام الحاكم وفئات الشعب يوجه منيف نقدا اجتماعيا للصوت الشعبي المـــثقل الـــذي لا يبدي حراكاً، أو حتى مجرد احتجاج نتيجة معاناته اليومية، لذا فقد بقـــي النظام الاقتصادي في "أرض السواد" نظاماً تقليدياً بدائياً توجه معظم مردوداته لخدمـــة الدولـــة العثمانـــية التي أكدت أنّ "...استقلال هذا الجزء من الأرض يعني إضـــافة تـــبعات اقتصـــادية على الدولة العثمانية" (193) كما أن الإنسان يبدو رهينا للطبـــيعة ولا يستطيع الانفصال عنها أو التغيير وهو أمر يعد من سمات المجتمعات النامـــية إن لـــم نقل البدائية كما يرى كثير من الدارسين، حيث تبدو الطبيعة مهيمنة متســـلطة تســـير الإنسان وتتلاعب بمصيره وممّا يجدر ذكره أن هذه النتيجة شكلت نقطة بحث عند منيف في رواية "النهايات" كما هي في روايات أخرى.

وهكـــذا فإن الوضع الاقتصادي المأزوم الذي يقدمه منيف وإن لم يمثل تحولاً اجتماعـــياً فـــي حـــياة الطـــبقة العامة، أخذ يؤثر على التشكيل السياسي لهذه الطبقة وموقعهـــا الاجتماعـــي من منظور العراقي أو في عين الآخر، فعندما يتذكر الباشا

صورة الجنود الإنجليز وما هم عليه من مظهر وتدريب وفهم ويقارنه بصورة جنده وحراســه ولا سيما أثناء حديثه عن صورة الدولة المستقبلية التي يود إقامتها تنتابه حالة من الحزن والقلق الشديدين (194).

إن الضــعف الذي أخذ يدب في قطاع الزراعة كما تقدمه "أرض السواد" نابع مــن عوامل متعددة، لم يكن الفيضان وحده العامل الأساسي فيها، فقد أخذت صورة الأرض وقيمــتها لــدى الإنســان تهتز، ومن الشواهد التي أخذت تنتابه بين الحين والآخــر قلقه المستمر على هجرة مجتمعه للأرض ونسيانه قطاع الزراعة وما يمثله هــذا القطــاع من رافد اقتصادي مهم في حياة المجتمع؛ إذ نجد هاجس الخوف يلف نفســية الحاج "شبلي عبد المولى" أحد ملاكي البساتين الذي كانت الأرض له بمثابة إنســان يحــتاج إلــى الرعاية والعناية بعد أن أخذت المساحات الجرداء تهدد وجود الإنســان وديمومة حياته، ولعلّه من وراء هذا القلق يقدم لوماً للإنسان العراقي الذي أخذ يسعى وراء مفردات الربح السريع (195).

ومنــيف في تصويره السلبي للقطاع الزراعي الذي يشغل "أرض السواد" لم يقــف مدققاً عند ذلك بل تعداه إلى تناول ميادين إنتاجية أخرى ولا سيما التجارة، فقد أصــبح هــذا العنصر الاقتصادي الهام يعيش بين فكي كماشة مهدداً برجال السلطة المتنفذيــن الذين يفرضون سياسة الاحتكار والتحكم برأس المال إضافة إلى المحتل الــذي يحاول جاداً إغراق المجتمع العراقي وقطاعاته الإنتاجية في ديون كبيرة تحت مــا يســمى التطوير الاقتصادي والامتيازات الأجنبية، فالتجارة بكل ملامحها تمثل صــورة مأزومة أطبقت الخناق على حياة الإنسان اليوميّة، فقد بدا الوضع التجاري هشــاً ضعيفاً؛ تضيع موارده بين بابين رئيسيين هما: الضرائب المقدمة للباب العالي أمــلاً فــي نــيل عطف السلطان العثماني، ونهب رجال السلطة لخزينة الدولة تلبية لمصــالحهم الفردية، والشواهد الروائية تؤكد بشكل لا يقبل الشك هذه التوجهات؛ فقد قــام "ساسون" في حكومة "سعيد باشا" بالعمل على حفظ أمواله الخاصة بعد أن أخذ الوضع السياسي يضيق، وبدت مصالحه الاقتصادية تتأزم حتى أخذ يظهر تأثراً بالغاً يكشــف عن تأثير الحياة المادية في تشكيل رؤية الإنسان تجاه الناس والأشياء بقوله: "ســأفارق هذه الحياة الفانية اللعينة قبل الوصول إلى القلعة، فاتركوني أموت بسلام،

أبلغـــوا أفنديـــنا سعيد باشا، أن قلوبنا معه، فليساعده الله ولينصره" (196)، وهكذا فقد أصـــبح الوطن بالنسبة له لايعدو أن يكون مورداً اقتصادياً وما أن يتعرض الوطن للخطـــر حـــتى يتـــنكر له في زمن الخطر بعد أن تمرغ في نعيمه في زمن الرخاء وهكـــذا فلم يقف الفساد الإداري والاقتصادي عند إضعاف موارد العراق، بل رافق ذلـــك ضعفٌ في بنية الدولة الناجم عن مواجهة حركات التمرد والعصيان وما حملة الجنوب والشمال التي يقدمها الراوي بكل تفاصيلها ونتائجها إلا شواهد حية استنزفت مخـــزون الاقتصـــاد الوطنـــي وأدت إلـــى ضياع مبالغ كبرى ، ولو قدر لها البقاء لساهمت في بناء الدولة العراقية الحديثة بشكل جلي .

هـــناك عملـــية تفـــاعل متـــبادلة بين الاقتصاد والسياسة والاقتصاد والتغير الاجتماعي فصراع العناصر الاقتصادية المتمثلة بـــ "عزرا" و "ساسون" سرعان ما تنتهـــي وقضية منصب "صراف باشي" الذي كان الواجهة التي يختفي وراءها هؤلاء مـــن أجـــل زيادة مدخراتهم الشخصية سرعان ما تنتهي بعد أن شعر كل واحد منهم بالاكتفاء الذاتي ، وتظهر التسوية الشخصية بين هؤلاء سريعاً من خلال الإجراءات التـــي قام بها الوالي نفسه والذي بين "أن الصلح سيد الأحكام" (197) . وهذا الالتفاف فـــي صـــفوف الـــنظام السياسي لا يعود بالنفع إلا على أفراده بينما يبقى المجتمع عنصـــراً مراقـــباً لا يـــبدي ردود أفعال سوى تبادل الأقوال واللجوء إلى السخرية والـــتهكم فقـــد شـــغلت قضية المطاردات التي مارستها السلطة تجاه بعض الأفراد المتمثليـــن بـــــ "قاســـم الشاوي" و "الآغا درويش" و "الباجي جه" في سبيل تحصيل الضـــرائب بهـــدف المصلحة الوطنية – جانباً – من الأحاديث اليومية التي يمارسها رواد قهـــوة الشـــط (198)، والمال لم يكن هاجس الاقتصادي والساعي إلى الثروة بل كـــان أداةً طيّعة يمارس من خلالها رجل السياسة توجيه أبعاده وإحكام السيطرة على حـــياة المجـــتمع ونظمـــه وهذا ما تبدى صراحة على لسان "بدري العلو" الذي يرى الباشـــا بأنه:– "يختلف عن التجار لأن المال بالنسبة له وسيلة للسيطرة، إذ يمكن عن طـــريقه استمالة الآخرين أو حتى إخضاعهم،أما التجار فإنهم أقل شجاعة من الباشا بكثير"(199) .

يقدم منيف صورة جلية لحالة إبعاد المثقفين عن تولي مراكز مهمة في ميادين الدولة المختلفة خاصة الميادين الاقتصادية ، ففي الوقت الذي يصادر فيه "ساسون" و "عزرا" خيرات العراق وثرواته يوضع نادر البكري وأمثاله من المثقفين الغيورين على مصلحة العراق في مساحة كبرى من الظل وهذا يتبدى من خلال غيابهم الطويل عن رؤية أفراد مجتمعهم، إذ تلفهم حالة من الغربة والتوجس تلزمهم الجلوس داخل القهوة؛ نظراً لما يحملونه من مبادئ جديدة في نظر مجتمعهم تمثلت بمصطلح "ثورة الشرق" التي يحاولون تطبيق مبادئها في العراق أملاً في خلق مجتمع ديمقراطي يشبه ما تم حدوثه في فرنسا، وهكذا فالمثقف العراقي الذي اطلع على المنجزات الغربية في الميادين الاجتماعيّة والاقتصاديّة لم تعد الدولة ترغب باستقدامه والاستفادة من خبراته خوفاً على مستقبلها السياسي وما قد يحمله هؤلاء من أفكار تتعارض مع مصالحها وصورتها في نظرة المجتمع.

تجسد الرواية مظهراً من مظاهر تفكك البنية الاجتماعية الذي يتمثل بضياع المساواة بين أفراد المجتمع فنلمح بين الفينة والأخرى أن الإنسان يواجه بالمدح والثناء ضمن دائرة المجموع، فالمجتمع الروائي الذي يرصده منيف لم يبدِ نظرة متميزة تجاه الفرد المبدع بعد أن أصبح الإنجاز منسوباً إلى الجماعات الإنسانية بقطع النظر عن مكانتها ومستوياتها الثقافيّة، وما يمثل هذه الحالة ما مر به "نادر أفندي" مسؤول الصرف في السراي فقد صوره العمل الروائي إنساناً مجداً في عمله، حريصاً على أموال الدولة العامة من الضياع والتبدد وقد تجلى هذا الحرص لديه بالجلوس منعزلاً داخل غرفته يمارس عد النقود الأمر الذي أدى إلى وصفه من قبل المحيطين، ولا سيما عمال السراي بأنه "أبخل من كلب وأنه لا يلبس الحذاء إلا حين يقابل الباشا وأنه يؤخر الغداء كي لا يتعشى..." (200) . ولا يقف الأمر عند حدود ذلك بل يصاب بالمرض وارتفاع الحرارة عندما يقوم بصرف الأعطيات، وفي هذا الرسم الدقيق لشخصية "نادر أفندي" يؤكد منيف على وجود تيار إصلاحي يحاول النهوض بالواقع الاقتصادي، متناسياً في الوقت نفسه مصالحه الشخصيّة، فمصلحة الوطن في نظره فوق كل اعتبار.

أن هذا الاهتمام المادي نابع من حقيقة إيمانه أن المال أمانة من عند الله وهو بمـــثابة الحارس عليه والذي يتطلب منه عدم التساهل والتهاون في صرفه وإذا غير هذا النمط، فإنه خائن للأمانة وبالتالي فقد حقق معصية الخالق وهذا النمط من الناس الـــذي يظهـــر إبداعاً فردياً وأمانة خالصة لا يلقى من السلطة التي جعلته قيماً على أموالهـــا أيّ تقدير وثناء، فما أن دخل الباشا على "نادر أفندي" عندما كان يبكي على الأمـــوال التـــي تذهب دون فائدة لم يصدر أي ردٍّ انفعالي تجاه الذين يبددون أموال الدولـــة إلا بجمل قولية "ساسون يزاد له جرة أذن حتى يتأدب ويصير عبرة لغيره ، وبعدمـــا يقضـــي كـــم شهر جوا، ويذوق مرها مثل ما ذاق حلاوتها نتواجه... والله كـــريم" (201). كما أن العناصر التي أثقلت البلد بالمصائب والنفقات التي لم تعد على الدولـــة العراقـــية بـــأي خير وتشكل مصدراً عدائياً لها، بدأت تقابل بالانتقام بأسرع وقـــت؛ فعـــندما تـــم إعدام "سيد عليوي" بسبب تآمره على الباشا ومحاولة مصادرة الســـلطة والـــتعاون مع الأجنبي "لم يكن هذا الحادث إلا نمطاً من تحرر نفسية نادر أفـــندي الـــذي عدّ موت هذا الطاغية بمثابة نصر وطني؛ إذ سرعان ما قام بتوزيع الحلوى على المراجعين الذين قابلهم بطريقه غير معهودة تسودها حالة من الفرح إذ أطلق على هذا اليوم بـــ "يوم الشكرات" (202).

ولا يقـــف أمر إخفاء دور الإنسان المبدع عند حدود ما قام به نادر أفندي من حـــرص على أموال الدولة العراقية بل تعداه إلى الفنان العراقي "ذنون حسن" الذي كانـــت منحوتاته بمثابة روائع؛ فنية الأمر الذي دعا سيفو مراراً لمحاولة إقناع ذنون الـــذي أصـــيب بالحـــزن والمـــرض والقهر ولم يجد يداً حانية من السلطة بمحاولة الخروج من وضعه المؤلم وتعويض ما خسره حتى يعاود ممارسة عمله الفني الذي هو بمثابة كنز وطني لا يجب تناسيه وإغفاله إذ لم يجد دعماً إلا من أهله والمحيطين بـــه وفي هذا المجال يوجه منيف نقداً للنظام السياسي الذي كرس اهتمامه على دفع الضـــرائب وخنق الحريات وإهمال الفن والقائمين عليه انطلاقاً من مصادرة الآثار عن طريق الآخر وكذلك إهمال الفنان العراقي نفسه(203) .

وتظهـــر "أرض الســـواد" تفـــاوت الـــتعامل مع الأفراد وفق ما يتناسب مع مشـــروعاتها السياســـية فكل من ذنون ونادر أفندي وإن ظهرت إبداعاتهم ووطنيتهم

الصـــادقة إلا أنهم في نظر السلطان لا يعنون شيئاً في الوقت الذي يكرم فيه أناس أقل من هؤلاء أمثال "سيد عليوي" الذي تعاون مع المحتل في سبيل جعله والياً على العـــراق، وكذلــك "طلعــت باقــه" الضـــابط الذي لم يقدم لمشاكل العراق الداخلية والخارجــية شيئاً سوى العكوف على إقامة الحفلات وشرب الشراب واستقدام النساء للرقص والمبيت، وعندما جاء المحتل يعرض قوته ويهدد العراقيين لم يبدِ أي حراك عســكري يذكــر ومــن الذين قدَّرتهم الدولة دون أن يظهر لهم إنجاز حقيقي يذكر "الكيخيا يحيى القرملي" والذي أثبتت حملة الجنوب فشله الذريع في مواجهة هجمات الــبدو وقطــاع الطرق الذين أعاقوا الوالي عن إقامة نموذج متحضر للعراق يشبه نمــوذج محمــد علي في مصر والاختبار الحقيقي قدوم الفيضان، ففي الوقت الذي يواجــه فيه العراقيون صراعهم مع الماء من أجل الحياة لم يكن للقرملي فعل سوى الجلــوس إلــى المقامــات الدينية من أجل ترديد عبارات الدعاء والابتهال أملاً في الخلاص من السخرية الممزوجة بالحزن تجاه هؤلاء الرجال الذين عول عليهم كثيراً في بناء العراق الكبير.

ففــي الوقــت الذي يلام فيه المبدعون أمثال "نادر أفندي" وجماهير المثقفين أمــثال "البكري ويعقوب حوحو" على مشاريعهم الاقتصادية ومخططهم النموذج في بناء الدولة ، تستميل السلطة الرجال المتخلفين الساعين إلى الثبات وتقدم لهم الهدايا، فيــبلغ الأمر أن يقوم الوالي بإرسال رجاله إلى سيد عليوي ليقلده وساماً رفيعاً على منجزاته وقتله للمتمردين(204).

يبرز منيف نمطاً من إلغاء الملكيّة الفرديّة وسيادة الملكيّة الجماعية، فالعراق بأرضه ومائه وخيراته ملك لجميع أبنائه، وهذا المبدأ الاقتصادي الإنساني في تشكيل منــيف الروائي يلامس فئات كبرى من الفقراء والمحتاجين ضمن المجتمع العراقي ولا تنســحب الملكية الجماعية على جميع الطبقات الاجتماعيّة؛ إذ لا تلاحق أجهزة الدولــة المتنفذيــن أمــثال "ساسون" الذي قام بشراء مطحنة الدجيلي لتزويد الجيش باحتــياجاته الأساسية أثناء الحرب (205) وكذلك السعي إلى احتكار كميات كبيرة من المــؤن والمزروعات الأمر الذي أدى إلى ارتفاع الأسعار وإثارة القلق والخوف بين أفــراد المجــتمع ولا سيما المتنفذ الاقتصادي وغيره الذي لا يعبأ بالسياسة المنادية

الحــركة التجارية مرهونة بتحركات الإنجليز في المنطقة، فلم تكن الأداة العسكرية المتمــثلة بالبندقــية والمدفــع والسفينة الحربية وحدها المستخدمة من أجل إخضاع العراق أرضاً وإنساناً؛ بل تجاوز المستعمر ذلك إلى استخدام أساليب عدة؛ إذ راهن على الاقتصاد ودوره في إخضاع الحكومات والشعوب، ويبدو ذلك مبرراً من خلال قــيامه بحصار خانق لميناء البصرة؛ الأمر الذي ترتب عليه تأخر وصول البضائع إلـــى بغداد وسائر المدن العراقية؛ لذا فقد وعى الإنسان العراقي هذا الخطر الوشيك الأمــر الــذي دعا والي بغداد إلى ممارسة سياسة المجاملة والاحترام تجاه القنصلية البريطانــية، نظــراً لسيطرتها على طرق التجارة العالمية ولا سيما مستعمراتها في بلاد الهند، ولذ نجد النظام السياسي يمارس نمطاً من المجاملة وتأجيل المواجهة عن طريق تقديم الهدايا للقنصل الإنجليزي وهو أمر فسّره الكثيرون بأنه إجراء من الباشا من أجل تسريع قيام الشركات الإنجليزية بتوريد المواد الغذائية إلى بغداد (209)، وهذه السياسات الاقتصادية يواجهها المجتمع العراقي بنمط من السخرية الممزوجة بالحزن وهذا ما تبدى على لسان "الأسطة عواد" أثناء حديثه لــ" عبد الله غبيشان" بقوله:" ... فــيعلم الله أنــه راح يركــب كل الناس الخيول..." (210) وهذه التوجهات الاقتصادية ضــمنت هدوءاً للدولة إلا أنها في الوقت نفسه خلقت حزناً في نفوس العراقيين الذين مر عليهم العيد ثقيلاً (211).

ينــبه منيف في "أرض السواد" إلى تدني دخل الفرد العراقي وهذا واضح من خــلال المستويات المتفاوتة للمدخولات الاقتصادية، ففي الوقت الذي تلبي فيه الطبقة الحاكمــة المتمــثلة برجال السراي من ذوي النفوذ الاقتصادي ملذاتها الخاصة عن طــريق شــراء الأراضي والبيوت، وإقامة حفلات اللهو والترف، تظهر إلى السطح شــريحة كبرى من المجتمع تعيش حياة الكفاف اليومي وهذا ما ترصده عين الراوي أثــناء دخولــه الأحــياء البغدادية في "الكرخ والرصافة"؛ إذ إنَّ السواد الأعظم من الشــباب العراقي يجلس إلى المقاهي عاطلاً عن العمل يسلي نفسه بأحاديث السياسة وأخــبار المجــتمع، ويصــف تحركات الإنجليز وما يقيمونه من احتفالات ومراسيم ويراقــب بصــمت سير الأوضاع الاقتصادية المتردية جراء الحملات التي تقوم بها الدولــة أثناء مواجهة حركات التمرد والفتن الداخلية، وهكذا فإنّ الحياة التي يجسدها

منيف والتي تبدو في ظاهرها تعكس مجتمعاً منشغلاً بهمومه التي سرعان ما تتغير؛ فـنجد المجتمع متلاحماً داخل البيوت والأماكن العامة، فهم الفرد وألمه ينعكس على المجمــوع الذي تتظافر جهوده لإيجاد الحل، فعندما قام سيفو المحمود بترك السقاية ولــد قراره الفردي حراكاً اجتماعياً بين الأصدقاء المحيطين أمثال "الأسطة عواد" و "الحاج صالح العلو" و "الأسطة إسماعيل" أو من البيت نفسه المتمثل بجهود الوساطة التـي بذلتها زوجته لمحاولة ثنيه عن ذلك (212). وإذا كانت مسألة الفقر والحاجة من الهموم الاقتصادية التي أقضت مضجع العراقيين إلا أنها ولدت حوافز جماعية للحل، فوجدنا بين ثنايا الرواية ما يشبه نظام "الصعلكة" (213) المتمثل بالممارسات الإنسانية التي قدمها "هوبي" وجماعته للأسر الفقيرة في بغداد، فقد قامت هذه الجماعة بتخفيف المعانـاة عـن شرائح متعددة في المجتمع؛ إذ برز دورها أيام الحصار حيث كانت تحمـل أكـياس الطحين وتوزعها على الأسر، وعندما شددت السلطة مراقبتها لهم اتجهـوا لتوزيع المال على الفقراء باعتباره أكثر أمناً وجدوى (214). وفي هذا التقديم لأنمـاط التفاعل الإنساني لم يرغب منيف في أن يحول روايته إلى نمط من الصراع الأيديولوجـي، فلم يخرج عن الإطار الروائي وعبرّ عن هذه الإشكاليات الاجتماعيّة بثوب فني مقبول.

ولعـلّ شخصية "هوبي"هنا تتناغم مع شخصية "عساف" في "النهايات" إذ نجد عسـافاً يقوم بالصيد في أيام الخصب، ثم يوزع غنائمه على الفقراء من أهل الطيبة مسمياً فقراءها بأسمائهم، وهو أمر يشير إلى الإيثار والتفاني في خدمة المجتمع عبر وعـي بسـيط يـرى فـي خيرات الأرض ملكاً للجميع ناهيك بدلالة الاتحاد الفريد بـالأرض والإنسان والحيوان، مفضّلاً الأرض والإنسان دون محاولة إبادة عناصر الطبيعة.

إن المـرحلة الاقتصـادية التـي يرصدها منيف في عمله الروائي تقوم على مقومـات أساسـية فـي المجـالات الاقتصادية حيث استخدام الأساليب البدائية في الزراعة الأمر الذي خلق في نفوس المزارعين حالة من الإحباط وبالتالي دفعهم إلى تـرك أرضهم والالتحاق بمشاريع الإنجليز القائمة على إيجاد اللقى الأثرية ولم تقف معوقـات الـزراعة عند هذا الجانب بل شكل موقع الأرض الزراعية نفسه هاجساً

بسبب وقوع تلك الأراضي على طرق الصراع والحروب المتكررة بين البدو وقوات السـرايا، وهكذا فالمجال الزراعي ليس افضل حالاً من الصناعة التي لم تبد بشكل جلي روائياً، باستثناء الإصلاحات التي ادخلها "ساسون" على مطحنة الدجلي إسهاماً فـي تـزويد الجند بالمؤن الغذائية اللازمة لاستمرارهم في الحملات العسكرية ضد البدو (215). ولا غرابة في هذا التقديم التقليدي لقطاعات الإنتاج في "ارض السواد" إذ وإنّ الكاتـب يعـي تمامـاً المـرحلة التاريخية التي يرصدها بعد أن أصاب الدولة العثمانـية وهـن شـديد أدى إلى تهاوي ممتلكاتها في أيدي الاستعمار، وطبيعي أن تـنعكس حالة الضعف على هذه القطاعات. ونقل منيف للحالة الاقتصادية المأزومة فـي "ارض السـواد" يتناسـب في تقديري مع عمله الروائي "مدن الملح" فقد كانت الحالـة الاقتصـادية كمـا يصفها أحد الباحثين قبل اكتشاف النفط بأنها "تعتمد على الاتجـار بالماشـية أو الإنتاج الزراعي البدائي " حران، ووادي العيون، والحدرة، والرعـي وتربـية الأغـنام والإبـل في البوادي أو التبادل التجاري داخل المنطقة والـتعامل مع الخارج كما في موران والعوالي ومن الواضح أنه لم يكن ثمة فائض مـن هذه الأعمال لذا عاش اغلب الناس على الكفاف فهم فقراء، وان وجدت فوارق ومـن ثم صراعات" (216). إلا أن المفارقة بين العملين تكمن في أن الإنسان العراقي داخـل "أرض السواد" يسير وفق خط متوازي الغني يستفحل في غناه، والفقير يزداد فقـراً فـي حين أننا نلمس تغيُّراً أصاب حياة الأفراد وان كان بنسب متفاوتة فالكل سعى للاستفادة قدر استطاعته.

إنّ مـن القضايا الاقتصادية التي غطت مساحة كبرى من "أرض السواد" ما عـرف بـ "الامتيازات الأجنبية" والتي حاول فيها المستعمر إغراق العراق بالديون عـن طـريق تزييف صورة السلاح الأجنبي وضرورة اقتنائه؛ لما له من قدرة في جعل الدولة تقوم على أسس متينة أثناء مواجهة الأعداء خاصة بعد أن أخذت الدولة العثمانـية بالضعف والتراجع، وأصبح الجميع ينظر إلى أراضيها الشاسعة من أجل امتلاك ثورتها الخاصة، ولعلّ قضية "الامتيازات الأجنبية " بدأت تبرز على الساحة العراقية بعد قدوم "نيكلسون" إلى العراق عن طريق سفينة لم يسبق للعراقيين رؤيتها؛ الأمـر الذي دفع الكثيرين من رجال السراي إلى الإلحاح على الباشا من أجل تسليح

الجـيش بعـد الإغـراءات التي قدمها "ريتش" إلى العراقيين والتي يبين فيها مزايا السـلاح البريطاني، إذ إنَّه لم تمر سنة أو حتى سنتان إلا ويكتسب جنود الباشا مزايا الجـنود الهنود، وربما يصلون في وقت لاحق إلى مستوى الجنود البريطانيين (217)، إلا أن هذا الأمر لم يؤثِّر في تفكير الباشا الذي وعى تماماً ما يخططه الإنجليز تجاه المنطقة ولا سيما العراق الذي يشكل جزءاً رئيسياً في خارطة الاستعمار الإنجليزي .

الفصل الثالث

بناء الزمن

1.3 مدخل :

يشـــكل الزمن بكل أبعاده الأساسية جانباً مهماً في الإنجازات الفنية المتعددة سـواءً مـا كــان مجسّداً على مستوى الكتابة أو ما كان واقعاً ملموساً يدركه المرء بعيـنه، وآلـية الزمــن شديدة الترابط بالفنون التي تصور عالماً مصغَّراً، ولا سيما الــرواية التي تجسد مجموعة من الأحداث، وهذه الأحداث مهما كانت الدرجة التي تشــكلها على مستوى الأهمية أو الهامشية لا بد أن تشغل زمناً معيناً تطول مدته أو تقصــر؛ تــبعاً لطبيعة الحدث المتناول روائياً . والزمن الروائي لا ينفصل بأي حال من الأحوال عن غيره من الأزمنة المتعلقة بالدراسات الفلسفية والنفسية، ويظهر ذلك في قول أحد الدارسين الذي يرى أن الزمن الروائي "يتناسب مع المفهوم الفلسفي أو النفسي لما لهذين المفهومين من ارتباط وثيق بالمفهوم الأدبي" (218). وهكذا فقد بات من المسلمات القول بضرورة التحام العنصر الزماني بالأدب "فالأدب مثل الموسيقى هــو فن زماني، لأنَّ الزمن هو وسيط الرواية، كما هو وسيط الحياة، وعبارة كان يا ما كان في قديم الزمان هو الموضوع الأزلي لكل قصة يحكيها الإنسان" (219)، وبهذا فقد أصبح الزمن عنصراً من العناصر الأساسية التي يقوم عليها فن القص، فإذا كان الأدب يعتبر فناً زمانياً – إذا صنفنا الفنون إلى زمانية ومكانية – فإن القصَّ هو أكثر الأنواع الأدبية التصاقاً بالزمن"(220) .

تعددت المناهج النقدية التي تناولت مفهوم الزمن السردي؛ وذلك تبعاً للمذاهب الـنقدية التــي ينتمــي إليها النقاد أنفسهم، فمنهم من تناول الزمن المادي الذي يقاس بالســاعات والأيــام والســنوات، ومــنهم من اتجه إلى دراسة الزمن النفسي ومدى انعكاســه على طبيعة الشخصية وردود أفعالها المتوقعة وغير المتوقعة، وهناك من مــيز بيــن زمنييــن خارجي يدرس البنية خارج النص وداخلي يحكم مسيرة العمل الروائي نفسها .

يعــد الزمــن على تعدد أشكاله عنصراً مهماً يثير دافعية الباحثين في مجالات معرفــية مــتعددة، فهو جدلية قديمة حديثة، ابتدأ التفكير به من قبل الفلاسفة القدماء

واستمر بالنضوج والتطور الذي صاحبه تعدد في الرؤى والدلالات، لذا فكلمة الزمن "مــتعددة المجالات، ويعطيها كل مجال دلالة خاصة، ويتناولها بأدواته التي يصوغها فــي حقلــه الفكري والنظري وقد يستعير مجال معرفي ما بعض فرضيات أو نتائج مجــال آخــر، فيوظفها مانحاً إياها خصوصية تساير نظامه الفكري، وقد يذهب إلى مســتوى القطيعة مع الأصول المعرفية الأولى المنطلق منها، كما قد يظل من جهته رهيــن تلــك الأصول يستمد منها تصوره، ويعود إليها بين الفينة والأخرى؛ ليحاكم فرضــياته أو ليبحــث لهــا عن سند" (221). وفي دراستنا لآلية الزمن يتوجب علينا الإشــارة إلى الخصائص التي يتفرد بها هذا العنصر دون غيره "فالزمن أمر نسبي يعــرف عــن طريق الأحداث المتغيرة أو الأشياء الثابتة التي نتصل بها في حياتنا اليومــية" (222)، والنسبية تبدو وفق "باشلار" أن ما اعتبره "آينشتاين" نسبياً هو فترة الزمــن أو طــول الزمن بالنظر إلى طريقة قياسه وأن نسبة فترة الزمن بالنسبة إلى أنظمــة مــتحركة هي من الآن معطى علمي، فاللحظة المحددة جيداً تبقى في مذهب "آينشــتاين" مطلقاً (223). أما الزمن عند نيوتن فقد جاء على قسمين:- مطلق ونسبي، أما الزمان المطلق فهو الزمان الحقيقي الرياضي، وهو قائم بذاته مستقل بطبيعته في غــير نســبة إلى أي شئ خارجي، ويسير باطراد ورتوبة ويسمى أيضاً باسم المدّة، وعلــى العكس من هذا نجد أن الزمان النسبي يبدو عادياً وهو مقياس حسي خارجي لأية مدة بواسطة الحركة وهو الزمان المستعمل في الحياة العادية على هيئة ساعات وأيام وشهور وأعوام وقد يكون دقيقاً، وقد لا يكون متساوياً مطرداً (224).

إنّ قضية الصراع الزمني تبدو متجلية على تعدد العصور والأمكنة، فمواجهة الإنسان للزّمن متكرِّرة من حين إلى آخر، لذا فقد عاد بعض الناس إلى الماضي كرد فعل للرعب الذي اكتسح الإنسان الوديع، ونفذ آخرون إلى المستقبل برؤية واضحة، يخططــون نافضــين عن كواهلهم أثر الحلم واستغراق الحال، وتفوقوا على أنفسهم قــدرةً وذكاء وأصبحت قضية الزمن لعبة هذا العصر أساس حضارته، وتفسيراً لما فــيه مــن مظاهــر متناقضــة (225) . وبهذا يمكن القول إن حقيقة الزمن باتت من المســلمات الثابــتة لــدى الإنسان ليس لمروره بها ، بل لعنصر ثباتها ودوامها فقد أضحى الزمن رغم ديمومته " نوعاً من الأبدية الممزقة التي تتّصف أجزاؤها جميعا،

وهي الماضي والحاضر والمستقبل ، بأنها دائمة الإفلات ومصير الإنسان يتحقق في هـذه الأبدية المفككة ، في هذه الحقيقة المرعبة للزمان ...هذا السراب من الماضي والحاضر والمستقبل " (226) .

إنّ النص الأدبي على اختلاف موضوعاته المطروحة يملي على الدارس ضرورة النظر في الزمن النصي (227) . حيث يميز هنا بين عدة أنماط ، فهناك الزمن الاصطلاحي وهو العلاقة الزمنية بين الأشياء ، ولا يتأثر بادراك المرء الحسي ، وهو بكلمات "نيوتن" :- الزمن المطلق الحقيقي الرياضي يجري بنفسه وبطبيعته بصورة مطردة دون أية علاقة بشيء خارجي (228) . وتجدر الإشارة إلى أن هناك فرقاً بين الزمن الذي يستغرقه الإدراك "الزمن الحقيقي" ، والزمن الذي يتم إدراكه في القصة " الزمن النصي" (229) .

عمل منيف من خلال تصويره لمجتمع "أرض السواد" على المزج بين الزمن الفيزيائي والزمن النفسي ، فبدا الزمن النفسي جلياً في هذا العمل كما في أعماله الروائية الأخرى، ويلمس ذلك من خلال قدرته الكبيرة التي عن طريقها يدخل إلى كوامن شخصيته الروائية ؛ محاولا تصوير ما يختلجها من أنّات ومشاعر وكذلك منظورها للزمن وفق الأحداث التي تمر بها من حين إلى آخر وهذا الأمر ليس غريبا عند منيف ، فقد أشار أحد الدارسين إلى اهتمامه بمنطوق الزمن النفسي من خلال معالجته لرواية " النهايات" بقوله " ففي قصة الصيد والعاصفة المدمرة يعلن النص صَراحة عن مدى إحساس الإنسان باللحظة ، فيبدو الوقت طويلا جِدّاً لدى الإنسان ، وهو من الناحية الكورونولوجية قصير (230) .

يشكل الزمن النفسي حضورا لافتا في " أرض السواد " انطلاقا من الأحداث الجسام التي شكلت رؤية الإنسان العراقي تجاه المتغيرات والواقع المأزوم فهو" ليس منتقلا عن مؤثرات الوجود الفيزيائي ، فالعاطفة تميل إليه وتدفعه " (231) . ولا يقف الأمر عند حدود ذلك ، فالزمن النفسي كما يقول أحد الباحثين زمن داخلي مغاير للزمن الطبيعي في أنه بطيء تابع للحركة الذهنية للشخصية (232). وهذا ما يُؤكّد في قول دارس آخر يرى " أن الزمن النفسي هو الذي يسكن دواخل الشخوص الروائية وتستشعره في بواطنها ، ومن ثمة فإنه يمتص الطابع الكورونوميتري للوقت الزمني

بمفهومـــه العادي وينظم عمودية السرد ضمن بعد تاريخي يتشكل من أزمنة الحلم ، أزمـــنة التخييل ، أزمنة الاستحضار ، وهي كلها تخترق الزمن الحسي ووسيلة هذا الاخـــتراق هـــي الذاكرة كبؤرة سردية ومنبع أساسي للزمن ، تمتد فاعليته في شكل مونولوجـــات تلقائـــية واعية أو لا واعية ومن خلال تقنيات عديدة تؤطر هذا الزمن كتقنية الـــ" فلاش باك " ... (233) .

لقـــد أبـــرزت أرض الســـواد مجـــالا حافلا يصور مدى تأثر الإنسان بالزمن وخاصة الزمن النفسي،ومن أمثلة ذلك :-

قول الراوي:- " ... لا يمكن تحديد قسوة تلك اللحظات ومدى طولها لأن شكل عليوي تغَّير مرَّات عديدة ، لكن إصراره على لقاء الباشا وبسرعة ، لم يتراجع ولم يتزعزع لحظة واحدة ... " (234).

إنّ اللحظـــات في مقياسها الزمني سريعة لا يمكن قياسها ورصدها ، إلا أنها بـــدت طويلـــة قاسية على الشخص الذي تمرُّ به ، ولعلّ هذا الطول نابع من الحالة النفسية وأهمية الموقف الذي تعيشه الشخصية وتحس به .

ومـــن أمثلة الزمن النفسي ، قو ل السارد :- " ... غاب عزمي لحظات بدت كأنَّهـــا الدَّهر ، كانت السكينة تخيم على القلعة ، وبعض الأصوات التي تصدر عن فتح باب ، أو خطوات تجتاز الممر ، تخلف دويا يولد الرهبة ... " (235) . ويتجسَّد الزّمن النفسي في قول السارد :- " ... إلا أن فراره ، ثم الأخبار التي أخذت تتردد عمـــا ينتابه ،وما يرافقها من التهديد والوعيد ، تشير إلى أيام صعبة تنتظر الناس ، ولا يملك الآن ما يمكنه من وقفها أو منعها " (236).

ويمكـــن القول إنّ الزمن النفسي لدى منيف يكتسب نمطا من الأنسنة إذ تواجه شخصياته الروائية الزمن النفسي على هيئة شخص سلبي يقف في طريق طموحاتها وأحلامها ، ويتبدى هذا الاتجاه من خلال شواهد نصية متعددة في الرواية:

يقـــول الراوي :- " ... وريتش الذي كان يشاركها الرغبة ذاتها،رجل عملي ، لذلـــك انصرف تفكيره إلى محاولة حرمان الفرنسيين من الانفراد لأن الزمن سيعمل لمصـــلحته ، فإذا استطاع منعه ، ولفترة من الزمن ، فسوف يجد الطريق التي تمكنه من التعامل مع هذا الأثر الهام "(237) . وينقل الزمن في القول السابق عنصرا إيجابيا

اذ يمثل معينا للإنجليز في عملية الاكتشافات الأثرية ، بينما يبدو عامل سلب وضياع في وجه مشاريع الفرنسيين الأثرية . ومن نماذج أنسنة الزمن على المستوى النفسي مـــا نقلـــه الســـارد قائلاً :- " ودخل نيسان تلك السنة ثقيلا ، ببخار الماء الذي ملأ المدينة وبتلك الحرارة الكثيفة التي تسبب الضيق في الصدور ، وبذلك الدوي الذي لا يـــزال يولـــد الأحزان نتيجة الأيام الصعبة التي مرت " (238) . لا يكتفي منيف ببيان مواقـــف شخوصـــه الســـلبية من الزمن بل يحاول التوحد معهم من خلال شخصية الراوي كلي العلم ، إذ يبدو هنا الوصف الدقيق لحالة شهر نيسان وانعكاساته السلبية علـــى الإنسان ،دلالة على أنّ السارد متوحد في الرؤية مع مجتمعه الروائي ، وهنا تدخـــل تجربـــته الشخصية ورصده لواقع المناخ العراقي في عمله الروائي . وهذا الـــتدخل لا يقـــف عند وصف آثار الزمن النفسي على المناخ وتقلباته بل يدخل إلى كوامـــن الزمـــن الفيزيائـــي إذ تكتســـب الأيام صفة تعكس الألم والقلق على نفوس الشخصيات ، وهذا ما تبدى صراحة على لسان الراوي بقوله :- " كانت الأيام ثقيلة موجعـــة ، فالأغـــا وهـــو يحس بالحصار والعجز يتحول قلقه إلى حالة من الغضب الحانق ، يريد أن يصرخ،أن يتعارك ، وإلا سيختنق ... " (239) .

يـــبدو الزمـــن ذا فعل سلبي ؛ لأنه يبدي نمطا من الإعاقة والتقييد لشخصيات الرواية ولا سيما الآغا الذي بدت له أيام الشمال نتيجة البعد عن بغداد عائقا سلبيا في طريق حلمه الذي يسعى من خلاله الحصول على السلطة .

2.3 طبيعة الزمن الروائي :

يعـــد الزمـــن الروائـــي من أدق التقنيات السردية التي تؤثر مباشرة في البنية العامـــة للـــرواية، وهي التي تحكم الأزمنة المتغيرة في نطاق رؤية الراوي العامة، وبهـــا تتمكن الرواية من الاستجابة لهذه الرؤية في نهاية الأمر (240)؛ وذلك انطلاقاً مـــن تسليمنا أن الرواية في نهاية المطاف "فن زماني يلتقي في هذا مع فن الموسيقى عامـــة، والموسيقى السيمفونية بوجه خاص" (241) ولا يقف الأمر عند ذلك بل تدخل ثمة قضايا مهمة في دراسة الزمن، لتشكل دافعاً مهماً يسلط الضوء على هذه التقنية؛ وذلـــك انطلاقاً من ثنائية المبنى / المتن الحكائي التي شغلت الشكلانيين الروس منذ

مطلـــع القرن العشرين، ويقول "توماشفسكي" في هذا المجال :- "لنتوقف عند مفهوم المتن الحكائي، فإننا نسمي متناً حكائياً مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها، التي يقع إخـــبارنا بهـــا خـــلال العمـــل، إن المتن الحكائي يمكن أن يعرض بطريقة عملية (Pragmatique) حســـب النظام الطبيعي بمعنى : النظام الوقتي والسببي للأحداث، وباستقلال عن الطريقة التي نظمت بها تلك الأحداث، أو أدخلت في العمل في مقابل المتن الحكائي، يوجد المبنى الحكائي الذي يتألف من الأحداث نفسها، بيد أنه يراعي نظام ظهورها في العمل، كما يراعي ما يتبعها من معلومات تعينها لنا" (242) .

ولا يكتفـــي مصـــطلح المبنى والمتن الحكائي بهذه التسميات بل نجده يكتسب مفاهـــيم عـــدة، تبعاً للمناهج النقدية التي ينتمي إليها الناقد، فمثلاً عند "بانفنيست" نجد مصـــطلحي "القصـــة والخطـــاب" ، وقد اهتم "تودوروف" بهذين المصطلحين، فكان مصطلح القصة لديه يعني الوقائع والأحداث بالشكل الذي حدثت فيه كما في الحياة الفعلية، أما الخطاب فهو طريقة نقل القصة إلى عمل أدبي محكي أو مكتوب، ويدخل في ذلك السارد الذي يحكي القصة، والقارئ الذي توجه إليه القصة (243) وعلى هذا الأســـاس نجد أن الزمن لدى "تودوروف" يحمل قسمين : زمن العالم المقدم، وزمن الخطاب المقدم له (244) .

ويمكن القول إنّ الزمن في الخطاب يختلف عنه في القصة، فزمن القصة يكون مـــتوازياً أي مـــن الممكـــن أن يقع حادثان في وقت واحد ولكن حين نحول هذا إلى خطاب، فإنّ الخطاب لا يكون إلا متوالياً مهما تجزأ أو تكسُّر، بينما يكون في القص مـــتوازياً إذا كانت الأحداث متزامنة وتتكفل التقنيات بإبراز التوازي في إطار خطية الزمـــن وهـــنا تبرز أعقد مشكلات زمن الخطاب المتمثلة بتعلقه بأشياء غير زمانية ويشـــكل بفواعـــل معقدة، وتنشأ العلاقات بين زمن الخطاب وزمن القصة من خلال مـــنطق يبحـــث عن تفسير أو تتبع أو توصيف على أقل ما يمكن (245). وهكذا فإن مفهـــوم الزمـــن كمـــا يرى أحد الدارسين "يستند على منظورات مختلفة ولكن يبقى الزمـــن القـــابل للقـــياس هو الأساس الموضوعي للزمنية، وفي ذات الوقت هو أقل الأزمـــنة التباســـاً بالإنسان من خلال وسط التعامل مع الأحداث ويتحول الزمن إلى

وجــود نفسي، والزمن بهذا المفهوم هو الزمن الأدبي عموماً والروائي خصوصاً بل أن الزمن الروائي زمن نفسي، زمن ذاتي (246) .

إنَّ اخــتلاف ثنائية الزمن في كل من زمن السرد وزمن الحكاية يؤدي إلى ما يسمى بــ "مستوى النظام" والذي يعني أنه عندما لا يتطابق نظام ترتيب الأحداث في الزمنيين السابقين بسبب تعددية الأبعاد في زمن الحكاية الذي يسمح بوقوع أكثر من حــدث حكائــي فــي وقت واحد، في حين أن زمن السرد يملك بعداً واحداً هو بعد الكتابة على أسطر الرواية الأمر الذي يجبر الراوي "الكاتب" على أن يختار ويحذف وينتقــي من الأحداث الكثيرة والشخصيات الواقعة في زمن الحكاية ما ينسجم وزمن الســرد الروائي (247)، ويشير "تودوروف" إلى استحالة توازي نظام الزمن الحكائي لــنظام الزمــن المحكي "زمن التخييل" ، وثمة بالضرورة تدخلات في القبل والبعد واستحالة التزامن تؤدي إلى الخلط الزمني الذي نميز فيه الاسترجاعات والاستباقات(248) .

تبدو المفارقات الزمنية (249) في "أرض السواد" على حالة من انفتاحية الزمن، وهــذه الانفتاحية تبدو أحياناً مقيدة بتاريخ زمني محدَّد وفق رؤية الراوي كلي العلم، فزمــن التاسع عشر من شباط، ولا سيما ليل الخميس شكَّل الافتتاحية الروائية الذي مــن خلاله استطاع منيف وضع القارئ على بداية عالم الرواية؛ تمهيداً لدخوله في صــورة وَعْــي كامل لأبعاد هذا العالم وخلفيات الشخوص فيه، والزمن في "أرض الســواد" – وإن شابه بعض الغموض – يبدوْ محدَّداً مُدْركاً من خلال الفترة الزمنية التــي يرصدها العمل داخل صفحاته، ففترة "داود باشا " التي حكم فيها العراق.يمكن القبض على إطارها الزمني وتحديده إذا ما علمنا أنه آخر السلاطين المماليك وفق ما تشــير إليه الوقائع التاريخية والنص لا يحتفي بتحديد زمنه الداخلي فحسب بل يربط زمنه هذا بالزمن الخارجي ويبدو ذلك جليا من خلال الإشارات التاريخيةِ العابرة في الــنص الروائــي التــي تكتسب تحديدا زمنيا يمكن رصده كسقوط نابليون بونابرت والدولــة العثمانــية وضــعف نظامهــا السياسي وظهور محمد علي ، وتغلغل المد الإنجليزي في المنطقة .

تشـمل المفارقات الزمنية أي انحراف زمن المبنى عن زمن المتن مظهرين بارزين وهما الاسترجاع والاستباق .

أ- الاسترجاع :

يعـد الاسترجاع من التقنيات المهمة ضمن إطار المفارقة السردية والتي تلعب دوراً مهمـاً في بنية العمل الروائي، ويقدم بحراوي الاسترجاع على صيغة "أن كل عـودة للماضي تشكل بالنسبة للسرد، استذكاراً يقوم به لماضيه الخاص، ويحيلنا من خلالـه علـى أحداث سابقة عن النقطة التي وصلتها القصة (250) ، ويكاد المصطلح يكتسـب طابعـاً مـن التوحد الدلالي رغم اختلاف اللغات، والزمن الماضي الذي يتناوله الاسترجاع يحمل مستويات مختلفة متفاوتة من ماضٍ بعيدٍ وقريب، ومن ذلك نشـأت أنواع مختلفة من الاسترجاع منها:- الاسترجاع الخارجي وهو يعود إلى ما قـبل بداية الرواية، والاسترجاع الداخلي الذي يعود بالقارئ إلى ماضٍ لاحق لبداية الـرواية قد تأخر تقديمه في النص،وهناك الاسترجاع المزجي القائم على المزج بين النوعيـن السـابقين (251). وعملية الاسترجاع في الرواية ليست محددة بإطار معين فهي كما يرى أحد الدارسين قد تستدعي لحظة عابرة أو موقفاً محدود الطول نسبياً، أو قد تستدعي الجزء الأكبر من أحداث الرواية ... (252) وتقسيمات الدارسين لعملية الاسـترجاع تتـنوع إذ يـرى بعضهم أن الاسترجاع ينقسم إلى استرجاعات ذاتية واسـترجاعات موضوعية، وفي الذاتية تنتقل عملية الاسترجاع بالشخصية التي هي تحـت مجهر السرد، والتي يذكر الحاكي أفكارها المتعلقة بالماضي، وفي الثانية فإن العملـية تتعلق بالحاكي الذي يرى أن من المفيد العودة بالقارئ إلى الوراء لإعطائه معلومـات إضـافية عـن تـاريخ إطار مكاني أو ماضي شخصية ما (253) ، ويقدم الاسـتذكار وفق رؤية جينيت عدداً من المقاصد الحكائية أهمها "ملء الفجوات التي يخلفهـا السـرد وراءه بإعطائـه معلومات حول سوابق شخصية جديدة دخلت عالم القصـة، أو بإطلاعـنا على حاضر شخصية اختفت عن مسرح الأحداث ثم عادت بالظهور من جديد (254) .

احـــتلّ الاســـترجاع كتقنية مهمة ضمن مساق المفارقة السردية جانباً كبيراً في عمل منيف الروائي "أرض السواد" ؛ إذ لا يكاد جزء من روايته يخلو من ذلك سواء بإعطاء قرائن على الاسترجاع أو بطريقة ضمنيه.

ومن أمثلة الاسترجاع الذي يتكئ على القرينه ما يرويه السارد عن ماضي لطف الله فرج :

> ... كانـــت روجيـــنا لا تحب أن تتذكر كل شئ بعد مرور السنين، لأن الشيء الذي لا يمكن أن تتساه :- أن الرجل الذي يخافه جميع الناس، هو الذي يخيف الحكومة أيضاً وإذا ذكر اسمه تتداعى صور ووقائع لا نهاية لها عن شجاعته والأعمال التي قام بها .. ذاك الرجل الذي يخلق كل هذا الخوف كان جباناً معها ! كان يرتجف بين يديها وفي أحيان كثيرة يبكي مـــثل طفـــل، ولا يكـــف عن البكاء، ولا يهدأ إلا إذا وضعت رأسه في حجرها قريباً من الصدر، وأخذت تغني له كما تغني الأم لطفلها الصغير لكي ينام ! (255) .

لعـــل أبـــرز وظـــيفة لهذا المقطع الاستعادي هو قلب رؤية القارئ وتصوراته المســـبقة عن الشخصية ؛ إذ استقر في وعي القارئ تميز هذه الشخصية من الناحية الجسدية ، لكن حديث المرأة يكشف بالضرورة عن زاوية معتمة بدأت الآن تتجلي ، وزيـــادة علـــى ذلك فإنَّ الاسترجاع يضيف بعداً جديداً لهذه الشخصية ويمنح القارئ فرصـــة الاستنتاج بأن الإنسان ليس كاملاً، فهو في موقفٍ يبدو قوياً وفي آخر يبدو ضـــعيفاً، ويـــبدو في تعامله مع الرجال نمطاً مغايراً لنفسه عندما يتعامل مع النساء.

لقـــد نقل النص لنا تصويرا كاملا عن شخصية (لطف الله فرج) زعيم شقاوات المـــيدان وهـــنا تبدو هذه الشخصية ذات ملامح بارزه في نفسية القارئ وتصوراته إذ رغـــم القـــوه التي يتمتع بها وتشكل حاجزاً منيعاً يهابه الناس من خلالها، يظهر الاســـترجاع حالة من الضعف السيكولوجي والنفسي الذي تعانيه الشخصية المتمثل بـــالخوف من التعامل مع النساء والتآلف مع الآخرين ويدعم هذا الاستنتاج التصوير الـــذي تقـــدم به الشخصية إذ يبدو لطف الله خائفاً كالطفل، ومظاهر الخوف تتجسد بالارتجاف وكثرة البكاء وهكذا فقد جاء الاسترجاع وفق رؤية سيزا القاسم نمطاً يقدم شخصـــية يجهـــل طبيعتها القارئ إذ ما قدمت تعريفاً كاملا لها من خلال ماضيها وطبيعة علاقتها بالشخصيات الأخرى(256).

ويأتـــي الاســـترجاع أحـــياناً ممهـــداً لحالات مشابهة تستخدم فيما بعد، فكأنَّ الاسترجاع رغم سرده لماضٍ ما يشكل استباقاً لحالات أثبت النص تحققها، ومن ذلك قول الراوي :–

> ... ويتذكر الباشا كلمات كان يرددها سليمان الكبير أمام خلصائه وكان يلتفــت بحذر قبل أن يقول " مهما بدا القائد مخلصاً للوالي، فإن النصر الأول الذي يحققه يقدمه لواليه فعلاً، أما النصر الثاني الذي يحققه فإنه يتقاسمه مع واليه، والنصر الثالث يكون على الوالي نفسه، فالحذر كل الحـــذر مـــن النصر الأول، فإذا اضطر الوالي من جديد، لنفس القائد، فعلـــيه أن يعيـــن إلى جانبه قائداً آخر يشاركه النصر، والأفضل أن لا يعطى له فرصة تحقيق نصرين متواليين (257).

يستخدم الاسترجاع السابق على وفق رؤية سيزا القاسم، لربط حادثة بسلسلة من الحوادث السابقة المماثلة لها ولم تذكر في النص الروائي من باب الاقتصاد(258)؛ فتذكر الباشا لمقولة سليمان الكبير يأتي مطابقاً للأحوال التي يمر بها، فقد شكل "سيد علـــيوي" القـــائد العسكري هاجساً مقلقاً له، ويأتي هذا الخوف من الانتصارات التي حققها انطلاقاً من قتل حمادي العلوجي وإنهاء عهد سعيد باشا، وكذلك الانتصار في حملـــة الشـــمال التي تبدّى من خلالها أن الآغا يقاسم الوالي في السلطة، وهنا يأتي الاســـترجاع حالـــة من العبرة والعظة التي يحاول الباشا استلهامها من حكمة أجداده وذلك كي لا يتعرض ملكه الشرعي للاحتلال والضياع.

والاسترجاع الآتي يقدم صورتين متناقضتين لشخصية واحدة وفي موقع واحد، والسَّارد هنا يقارن بين الماضي والحاضر دون أن يحلل الظروف التي أدت إلى نمو الشخصية :

> ... وتمثلـــت له صـــورة الآغا، كيف كان في البداية، وكيف هو الآن حيـــن التحق الآغا بالجيل أول مرة، كان لا يجرؤ على أن يرفع عينيه وكـــان صـــوته يرتجف أكثر من ذلك بدا له وكأنه نسي الكلام، أو لا يعرف كيف يعرض أفكاره ... (259).

إنَّ شخصية الآغا التي امتازت بالبطش والقوة تتنافى مع ما قدمه الاسترجاع الســـابق الـــذي يقدم حقيقة الشخصية وطبيعتها في الزمن الماضي، إذ تمثل بالخوف وعدم القدرة على مواجهة المواقف الصعبة، وهنا يضيء لنا منيف عبر الاسترجاع

هـنا مـن سـد الثغرات التي قد تحدث في النص الروائي، وهنا فقد وفق منيف في الاسترجاع المكاني واضعاً القارئ في خضم الفترة التاريخية المتناولة روائياً .

ومن نماذج الاسترجاع الذي يسبق المنطلق السردي ما يسرده بدري عن طفولة زكية :

> ... يـتذكر بـدري أنه رآها مرة أو اثنتين حين كانت صغيرة، جاءت ذات ضـحى حاملـة علاقة فيها عثق من تمر البرحي، قالت إن أمها أرسلته، وأنه من بستان الشيخ سعد، وجاءت مرة ثانية، أو ربما كانت أختها التي جاءت بصحن فيه "خبز العباس" . لا يتذكر بدري الشكل أو الملامـح لكـن يتذكر ابتسامة افترشت وجهها حين سألها عن اسمها، كانت تبتسم بود وبراءة ودون خوف أيضاً. (262)

ونقـف هـنا إزاء استرجاع خارجي يضيء لنا صورة زكية التي يود بدري الارتباط بها، إضافة إلى ذلك يقدّم الاسترجاع أحداثاً لم يستطع السارد تقديمها مسبقاً للقـارئ بشكل مُفَصّل، لذا فقد وضع للقارئ صفات ميزت زكية في مراحل طفولتها وهـي مـراحل لم تذكر مسبقاً تمثلت بالوجه المبتسم، والجرأة الواثقة وهكذا يزداد مخـزون المتلقي لكوامن الشخصية التي يقف إزاءَها . ويتجه الاسترجاع أحياناً إلى حمـل مقطوعة من المسالك والعادات، فيعمل على تقديمها باستخدام النص المجمل الذي يتناسب مع طبيعة الاسترجاع التلخيصية، نقرأ :

> أما وهو يستعيد صور كبار الضباط والموظفين ، حين يصلون إلى السراي وهم ينتظرون في غرفة "سيد خلف" إلى أن يحين الوقت ليستقبلهم الباشا، وكيف كانوا يبدون رقة متناهية في التعامل ، في الكلام ويظهرون ميلاً مفرطاً للحديث، كي يؤكدوا لصغار موظفي السراي مدى الطيبة التي تملؤهم، ويتصرفون بتواضع لا يتناسـب والرتـب التي يحملونها، ثم كيف رآهم في مواقع عملهم، في الثكنات والدواوين، وقد أصبحوا بشراً من نمط آخر. (263)

وهنا لا يكتفي الاسترجاع الداخلي بتقديم حالة من الوصف الدقيق للسلوكيات الاجتماعـية، ولا سيما ما يسود حياة الجند بل يأتي الاسترجاع مؤكداً لمنظومة من القـيم الاجتماعـية التي تسود المجتمع، وهذا الوصف يقدم التقلبات التي تطرأ على الإنسـان، وما ينجم عنها من ردود أفعال، ولا تنحصر وظيفة الاسترجاع في النص الروائي على ما سبق، بل يأتي الاسترجاع تأكيداً على حالات مشابهة، ومن أمثلته:

... وأثـناء غياب حسون، يتبادل الذين تسببوا بالإساءة واللوم والعتاب مع وعـود قاطعـة ألاّ يعودوا إلى مثل ذلك مرة أخرى، وأن يكتفوا بمداعبات بريئة عابرة، لأن "من يسئ إلى طفل أو امرأة، من يؤذي حيواناً أو شجرة، من يسخر من عجوز أو مريض أو غريب، ومن يجرح الذين على باب الله والفقراء، من يفعل ذلك فله حساب في الدنيا والآخرة، وهذا مقياس الشرف والناموس" هكذا قال ناجي البكري ذات يوم بعيد ... (264)

يـنقل الاسترجاع نمطاً من التأكيد على المواقف المتشابهة التي هي في نظر المجـتمع ضرب من القيم والتقاليد المقدسة، فحسون الإنسان البريء الذي يتعرض لمواقف السخرية والضحك إزاء تركيبته النفسية، يبقى إنساناً في نظر أخيه الإنسان، ويعـامل معاملــة غيره كالمرأة والعجوز والغريب من حيث الود والاحترام، ولعلّ المقطــع الســابق يحاول إضاءة ماضي شخصية ناجي البكري، ليقارن القارئ بين حالته الآن وكيف كان سابقاً .

تعــددت المقــاطع الاسترجاعية في "أرض السواد" فلا يكاد جزء من أجزاء الرواية يخلو من هذه التقنية المهمة التي تعكس أحياناً نمطاً من مكنونات الشخصية، وما يسود تكوينها من سلوكيات نفسية سواء ما يراه المجتمع إيجابياً أو ما يراه غير ذلك، إذ تظهر شخصية داود ذات سلوك إنساني متميز ولا غرابة أن يقدم ذلك اتكاءً علــى الاسترجاع، إذ يشكل داود شخصيةً محورية يعتمد عليها نص منيف الروائي فقــد امتازت بتقديم (الأنا) وتعاظمها إضافة إلى الحذر وحسن التعامل مع الآخرين . ويظهــر الاســترجاع تحلــيلاً لماضي الشخصيات، ويتضح ذلك من خلال ما ينقله السارد من وصف الشخصيات في نفوس أفراد المجتمع بقوله :

قال كثيرون وهم يرون نيكلسون أنه يشبه الطبيب النمساوي الذي وصل من اسـطنبول قبل بضع سنوات لمعالجة والي بغداد، عبد الله التوتنجي ، حين سـقط عـن الفـرس وانكسر حوضه، كان ذلك الطبيب بضخامته ولحيته وابتسامته حديث بغداد لأيام وأيام، خاصة وأنه كان يروق له أن يتبسط مع الـناس، وأن يـتجول فـي الأسواق، ويجلس في الأسواق، ولم يمانع في مشاركة الكثيرين الطعام والشراب، كما وزع أدوية كثيرة أثناء إقامته، ولم يتوقف الناس عن مراقبته وتقصي كل تفاصيل حياته ... (265)

ويتوصــل الــراوي من خلال الاسترجاع إلى استحضار شخصية جديدة من خــلال حديــثه عن شخصـية حاضرة، وهذا ما تبدى في الاسترجاع السابق، فحديث

الراوي عن القائد البريطاني :نيكلسون" الذي جاء على متن السفينة الحربية دفع من باب التشابه الشكلي استحضار الراوي لشخصية الطبيب الهندي وفي هذا الاسترجاع يقدم الراوي وصفاً موحداً للشخصيات المتشابهة، ولا يقف الأمر عند ذلك بل يضيء لنا الراوي من خلال إشارات مقتضبة إلى فترات زمنية ماضية وإن جاء هذا الكشف مبتوراً غير دقيق .

ومن نماذج الاسترجاع :

> ... وتذكر ريتش كيف أنه أشار عليه بالانتظار إلى حين انتهاء معارك الجنوب، لقد أوفد إليه بطرس يعقوب ليقول له كلمات محددة :– "إذا لم تضمن ثورة الشمال وأنه كله معك، فالأفضل انتظار فرصة أخرى، وقت أفضل ... (266)

يقدم الاسترجاع الداخلي السابق نمطاً من تسلسل الأحداث وتعاقبها، فقد أراد الراوي من خلاله إثبات أن قضية التآمر على السلطة الشرعية ومحاولة إخضاعها لسلطة المستعمر قد استغرق زمناً طويلاً، وهذا الزمن ظاهر من خلال استرجاع سيد عليوي لكلام القنصل البريطاني بعد أن أصبح الظرف صعباً والذي معه لا يستطيع ضمان ولاء الناس، ولا سيما بعد إبعاده عن السلطة، ومصنع القرار السياسي في بغداد.

ومن الاسترجاع ما يأخذ شكل المقارنة المباشرة التي تظهر الفروقات ومكامن القوة والضعف كقول الراوي :

> ... ومرت في ذاكرته صور عديدة :_ الموكب الضخم، الاحتفالي، ومعه قطعان الكلاب، حين يخرج للصيد، أنواع الأسلحة الحديثة، والتي تتغير بين رحلة وأخرى، ثم أولئك الذين يهيئون له الطرائد، كما يهيئون الطعام فهل يعتبر نفسه صياداً ماهراً ؟ (267)

والمتتبع للمقولة السردية السابقة يجد أن الاسترجاع يفضي إلى نمط من المقارنة المادية التي تعكس بوناً شاسعاً بين ما وصل إليه المحتل من قوة وتقدم يهدف من خلالها إلى بث عناصر القلق والضعف في نفسية الإنسان العراقي. وحالة الضعف والتخلف التي تقضُّ مضاجعَ الدولة العراقية وإنسانها البسيط لسنوات عدة . وهناك استرجاعات يقصد منها التذكير بالماضي، والإفادة مِنْهُ في الحاضر، ويتمثل

ذلــك في تعاقب الأجيال، وما ينقله الآباء عن غيرهم . "... وتذكر داود باشا ما قاله سليمان الكبير"من اللسان تبدأ أكثر الشرور، ومن الكلمات تندلع أكبر الحرائق، فإياك ثــم إيــاك ..." (268)، يمــثل الاسترجاع السابق نمطاً خارج محيط النص الروائي، يحــاول الـــراوي من خلاله بيان مدى اتصال الشخصية الروائية بتراثها الإنساني، فمقولة سليمان الكبير تشكل نمطاً من التقدير والإعجاب الذي يخلق في نفسية الأحفاد مــثالاً مناســباً للاقــتداء . ويســتخدم منيف الاسترجاع آلية للمقارنة بين الشرائح الاجتماعــية، ويحاول أن يرصد من خلالها ما يطرأ على المجتمع من تغير ، ومن ذلك :

> ... وإذا كــان الباشــا فــي بغداد ألحَّ على ضرورة الحرب السريعة، فإن علــيوي يــتذكر كلمة قالها ريتش وهو يتحدث عن البدو، قال ريتش "البدو يحــبون الحــرب الخاطفة، يستطيعون في الفترة الأولى للحرب، أن يبذلوا أقصى ما يستطيعون، فهم شجعان محبون للحركة السريعة، لكن ما أن تمتد الحــرب وتطول حتى تفتر هممهم وتضيق صدورهم، لأن الحرب بالنسبة لهــم جولــة والثانــية، ويجب أن تنتهي إلى نتيجة محددة، صحيح أنهم لا ينســون، والثأر جزء من تكوينهم لكنهم لا يطيقون الحروب الطويلة، لذلك فإن أفضل طريقة لكي تهزمهم أن تجعلهم في حالة حرب دون حرب فعلية، وأن تجــبرهم علــى الانتظار، ورغم ما يزعمون على مدى قدرتهم على التحمل، ويجاملهم الآخرون فيدافعون عن ذلك، فإن هذا التحمل لأيام، وحتى لو طال فلا يتعدى الأسابيع" ... (269)

يــنقل الاســترجاع الســابق نمطاً من وصف البنية الاجتماعية لفئة من فئات المجــتمع العراقــي التي تتمثل في شريحة البدو وطبائعهم أثناء القتال، وقد استعان الــراوي بتقنــية الاســترجاع معتمداً على طريقة الوصف في بيان حياة البدو وما يســودها مــن مواقف وسلوكيات إنسانية؛ انطلاقاً من كونهم فئة اجتماعية ذات حيز كبير لا يسهل نسيانها بأي حال من الأحوال عند تناول تركيبة المجتمع العراقي.

ومن نماذج الاسترجاع ما قدمه الراوي عمَّا دار في مخيلة بدري بقوله :

... ويــتذكر موقفــاً للباشا كانوا يدافعون من أربيل إلى كركوك، في إحدى مــراحل الطــريق طلب منه الباشا أن يلتقط حجراً حدده، التقطه، قدمه إلى الباشــا، نظــر إليه الباشا بإمعان ثم أعاده إليه وهو يقول "احتفظ به لحين أطلــبه" عند أول استراحة وقف الباشا خطيباً، تكلم كثيراً ثم فجأة طلب منه الحجــر، أمسك بالحجر ورفعه وهو يديره في كل الاتجاهات، وبعد أن رآه الكثــيرون وتــأكد منه القريبون قال :- أبناء الجبال يعرفون هذا النوع من الحجــارة أما أبناء الوسط والجنوب، فإنهم يسمعون به لكنهم لم يروه، هذا هــو حجــر الصوان، إنه أقسى أنواع الحجارة، وبالإضافة إلى القسوة فإنه يجــرح، وهكــذا يجب أن يكون الجندي في جيشنا : له قلب كالصوان : لا يخــاف، لا ينكســر، ولا بــد أن يــترك أثراً، فإن لم يقتل لا بد أن يجرح ... (270)

يقــدم الاســترجاع فـــي المقطوعة السابقة نمطاً من سد الثغرات في النص الروائـــي وتأكيد الأحداث بما يشابهها، فبدري العلو الذي خفق قلبه تجاه نجمة، تذكر مقولـــة الباشا التي تدعو الجندي العراقي إلى احترام الموقع الذي يشغله،وعدم السير وراء الـــنزوات والمتطلـــبات الفردية، وفي هذه المقولة ما يشي بضرورة أن يكون الفرد أسير العقل والمنطق لا أسير الرغبة والعاطفة.

ب- الاستباق :

يُعْرفُ الاستباق بأنه "عملية سردية تتمثل في إيراد حدَث آتٍ أو الإشارة إليه مســبقاً ، وهذه العملية تسمى في النقد التقليدي "بسبق الأحداث" (271) ، ووفق رؤية القاســم فـــان "الشكل الروائي الوحيد الذي يستطيع الراوي فيه أن يشير إلى أحداث لاحقــة هـــو شكل التَّرجمة الذاتية ، أو القصص المكتوب بضمير المتكلم ، حيث أن الـــراوي يحاكي قصة حياته حينما تقترب من الانتهاء ، ويعلم ما وقع ، قبل وبعد ، لحظـــة بدايـــة القص ، ويستطيع الإشارة إلى الحوادث اللاحقة دون إخلال بمنطقية النص ومنطقية التسلسل الزمني " (272).

يقدم الاستباق دور الإنباء ، وذلك اعتمادا على خلق حالة انتظار لدى القارئ مع الأخذ بعين الاعتبار عدم الخلط بين هذه الإنباءات التي لا ترد إلا بصفة صريحة والفواتـــح وهـــي معطـــيات لا يفهـــم معناها إلا فيما بعد ، لأنها ترتبط بفن التمهيد القصصـــي (273) ، وعلـــى هـــذا الأساس ،فان عنصر الاستباق لا يصل إلى مرتبة

الاســترجاع انطلاقا من قول أحد الدارسين الذي يرى انه " ومن البديهي أن الحكاية لا تلجأ إلى الاستشراف " الاستباق" بقدر ما تلجأ إلى الاستعادة " الاسترجاع، ويمكن تبرير مثل هذا الأمر بان الماضي أكثر وضوحاً من الحاضر والمستقبل ، فالماضي والحاضر مرتبطان بحقائق حدثت بالفعل إذ تحدث الآن ، أما المستقبل فما من شيء يضمن لنا أن يأتي على النحو الذي نريده أو نتوقعه " (274) .

والاستباق يشكل إعلاناً أما أن يكون خاطئا أو صائباً ، وهو بالضرورة شكل من أشكال التنبؤ ، فأحيانا يحمل معنى الأمنية والأمل كما يتضح من المثال الآتي : يقول الراوي "...لا يمكن لداود أن ينسى وجه قاسم الوسيم والمليء بالحيوية والقسوة معاً ، كما لا يمكن أن ينسى إجاباته للرسل الذين بعث بهم إليه خاصة إجابته الأولى ثم إجابته الأخيرة ، لا بد أن يقبض عليه ، أن ينظر إليه ، وهو مغلول اليدين ذليلا ، وســوف يذكره بكل كلمة قالها ، وسوف يرى كيف تكون إجاباته الآن بالمقارنة مع إجاباته للرسل ، الذين لا بد أن يحضروا مثل هذا اللقاء ... " (275)

وهنا نجد أن داود باشا يعلق نفسه في حالة من الأمل من خلال الاستباق إذ يحلـم بالقضـــاء علـــى قاســم الشاوي الذي طالما أعاق مسيرة السلطة وعمل على الاضطراب والقلق .

ومن نماذج الاستباق التي تشي بالتوقع غير المؤكد ، قول الراوي :

> قال بعض المصلين في جامع آبى حنيفة " إذا كان داود بدأ بصلب الباشاوات والبكوات ، وكل واحد منهم يحكم ديرة وعشيرة ، فالله يساعد الناس الفقراء ، لأن راح يقتلهم دون أن يحسّ أحد (276)

ويســتخدم الاســتباق ضـــمن منظومة الحوار ليشي بنوع من التخدير وإثارة القلــق، ويتّضح ذلك مثلاً من خلال قول الأسطة عواد : وبعد رمضان العيد وبعد العــيد يجي العيدين ، وبعدهم محرم فاذا مرت هذه الشهور يبرد الدم ، والدم اذا برد البني آدم يحسب ألف حساب قبل ما يضرب ويقتل ... (277) ، يقول الراوي :

... والســلطان حين يسمع القصة من بدايتها الى النهاية سوف تثور الدماء فــي عروقه، ،فيبعث وراء داود فوراً لكي يحاسبه، وداود إذا مَثُلَ بين يدي الســلطان وكانــت نابي خاتون موجودة ، ونظر إلى عينيها سوف يصاب بالرعــب ، ولــن يستطيع إخفاء الحقيقة ، وبعد أن يعترف أمام السلطان ، والذيــن حوله ، لا بد ان ينال جزاءه ، " لأن مثل ما قال أهل قبل : بشر القاتل بالقتل ، ولو بعد حين "...(278).

وهذا الاستباق مؤسس على ما استقر في وعي الناس من تصورهم للسلطان ، وقد بني هذا الوعي على التجربة والرؤية البصرية ، وأحيانا على ما ينقل شفويا عن صرامة الخليفة العثماني .

وفــي بعــض الحــالات يأتــي الاستباق كالاسترجاع مضيئا لبعض جوانب الشخصــية ، مجــتهدا لظهورهــا بشــكل مغايــر كما هو عليه ، منبئا عن انقلاب الشخصية وتغيرها بشكل لافت ، ومن ذلك ما يقوله الراوي :

... والباشــا الــذي قال له حين كان معه في الجبل : على الرجل أن يــتزوج لــيكمل نصــف ديــنه ، ماذا يقول الآن إذا كانت الزوجة التي سيختارها من "بنات" روجينا من بنات الهوى ؟ لن يكتفي بالرفض ، سيقرن الرفض بالسخرية ويقول له " ألم تجد في بغداد غير هذه الساقطة لتتزوجها؟ وســيقول الباشــا لنفسه: " كانت العادة أن يزوج الولاة بناتهم لأقرب الناس إلــيهم ، وأنــت كنــت أعدك لأن تتزوج واحدة من بناتي ، وبدل أن تبذل أقصــى مــا تســتطيع كي تحظى بهذا الشرف ، ذهبت إلى حيث لا أتوقع وأنتظر ، فشكراً لله أني لم أتعجل ولم أفرط ، فقد بان معدن الرجل وانتهى الأمر (279)

ومــن أمــثلة الاســتباق، ما قاله الحاج صالح العلو لولده بدري " باجر، يا ولــيدي، تتزوج ، تتزوج أحلى بنيه بالديرة ، ونسوي لك الأفراح والليالي الملاح ، ومــا بحــول الحول إلا ويجيك أول ولد ، ونفرح بيه ، ونسميه على اسم أبوي أني و... (280).

وهنا يبدو الاستباق شكليا ، وإن كان في حقيقة الأمر إعادة تسجيل لمجموعة مــن القيم والعادات التي استقرت على الممارسة ويوظف منيف عنصر الحوار في عرضــه لتقنــية الاســتباق ، وهذا يدل على أن التفاؤل بالمستقبل وتلاحم الفرد مع

قضايا مجتمعه دليل على حس جماعي وصوت موحد، ومن أمثلة الحوار الذي تبدى فيه هذا الإحساس: قال غايب في محاولة لإظهار أقصى الود:

أ. إذا فاتنا المهر ببغداد، وبدري معذور، ما راح يفوتنا الزواج هنا. نظر بإمعان إلى بدري، وكأنَّ فكرة طرأت له فجأة، تابع بلهجة ظفر:

ب. لازم انســوي لك زفة تصير حديث كركوك سنين وسنين... وبعد قليل، وهو لا يستطيع أن يخفي فرحه:

ج. وتدعي أفندينا، وكل الضباط، ونحييها للصبح: دق وغنا، مزيقا وطبل ووين أكو واحد يصيح أوف أو عتابا:- أنت يفلان معزوم على عرس بدري (281).

يــبدو الاســتباق الســابق نموذجــا علــى جملة من منظومة العادات والتقاليد الاجتماعــية، والتــي تعكــس توحد الحس الجماعي بين الأفراد، فحالة الفرح التي تصيب الفرد تنعكس بكل تفاصيلها على الجماعة الإنسانية بعامة.

ومن نماذج الاستباق، ما جاء على لسان الراوي في حديثه عن بدري بقوله:

> ...وتتراءى له صورة زكية، وهي تدخل البيت أول مرة، ستصاب بالدهشة للتنظيم الدقيق للانسجام والذوق، وهي تتطلع إلى غرفة النوم، وترى السرير النحاســي وسط الغرفة، وقد انسدلت فوقه الملاءات البيضاء، سوف تشعر بــالخجل، بشــيء مــن الارتباك ... وعنت له عمته زاهدة:"وهل سترفع الروالي والبسط لتتأكد من النظافة؟"(282)

ولعلّ الاستباق المذكور سابقا يعكس حالة من أحلام وأحاسيس الفرد العراقي الــذي يــنظر فــي حديثه إلى الأمل بتكوين الأسرة، وهي بنظره عنوان الاستقرار والديمومة المستمرة.

ويعكــس الاســتباق أحــيانا طموحات الفرد التي تبدو في ظاهرها معلقة أو صــعبة الــتحقق، إلا أن منــيفا من خلال هذه التقنية يؤكد على ديمومة الحلم لدى عناصر مجتمعه الروائي، فالإنسان العراقي يبدو على درجة عليا من الأمل والتفاؤل بتغيــير الواقــع رغم الأنات والمصاعب المتواصلة، إضافة إلى أن الاستباق يمثل وجهــاً جليّاً يكشف عن كوامن نفوس الشخصيات وما تخفيه من رغبات واتجاهات، ويظهــر هــذا التصور بشكل جديد من خلال وصف الراوي لشخصية الأغا بعد أن تصور نفسه واليا بقوله:

> ...لا ضـــرائب جديــدة، الضرائب القديمة تسقط عن الناس كافة عدا الذين يعارضــون الوالـــي الجديد، لن أطالب براتب ثم لماذا هذا الجنون بملابس الحــرس والتشريفات والذين يحيطون بالوالي؟ سوف أصبح بسيطا مثل أي إنسان أخر، بالملبس، بالمأكل، ولا بد من إقامة الولائم للفقراء... (283)

تنوعــت الاستباقات في نص منيف الروائي "أرض السواد" وهذا التنوع نابع مــن تنوع الشخصية وثراء تكوينها الفكري والعقائدي، وهذا التفرد والتنوع لا يقف عــند نمط شخصية دون أخرى، بل تناول الشخصية الشعبية التي لا تقل أهميتها عن غــيرها؛ نظــرا لما تحويه من مخزون حضاري واجتماعي متنوع. ونتيجة لهذا فقد جاء الاستباق متنوعا منه ما كان قابلاً للتحقق إذ إنَّ خيال الشخصية يبدو على درجة مــثلى من الواقعية انطلاقا من أن أهدافها الروائية منسجمة مع الواقع ومنها ما كان مســتحيلا. وهــذا التوجه يرافقه عزم الشخصية وإيمانها بقدرة التغيير، ولقد بدا هذا الــنموذج بارزا في مسائل الحراك الجماعي كالزواج والحصول على العمل، وزيادة أبــواب الدخــل، ولم يقف النموذج السابق وحده، بل ظهر نموذج أخر من الاستباق صــعب التحقق، وفيه تسعى الشخصية لتحقيق ما يفوق قدراتها، وقد أورد منيف هذا الــنمط الســردي؛ لإثــارة التشــويق، وإحداث نمط بين القارئ والمجتمع الروائي وتصــوير حالــةٍ من الاغتراب المتمثّل بالهوة الساحقة بين الوسيلة الممتلكة والغاية التـــي يسعى الفرد للانتهاء إليها، وقد تبدى هذا التوجه في أحلام "داود باشا" بتغيير بنــية العــراق وتركيبته الاجتماعية؛ أملا في خلق نموذج اجتماعي يوازي النموذج المصـــري الــذي حققه محمد علي باشا عن طريق نشر النهضة العلمية في أرجاء مصــر. وأحيانا يدخل الاستباق في باب خرق المألوف، ولا سيما القصص المتعلقة بالخــيال العلمي، بيد أن هذا النموذج يكاد يكون مبتورا لدى منيف هنا، انطلاقا من الفترة الزمنية التي يتناولها. وكذلك واقع المكان الذي يتحرك عليه الشخوص.

3 . التواتر

ترتــبط قضية التواتر بمسألة "تكرار بعض الأحداث من المتن الحكائي على مستوى السَّرْد"(284)، أو هو مقارنة كم الأحداث في المبنى بكمها في المتن، وهو أحد

الجوانـــب المهمـــة التي تخص الشخصية ومدى أهمية الحدث بالنسبة لها، وأمام هذا المفهوم واستنادا إلى الدراسات الراصدة، يمكن تحديد أربع حالات من النصوص:

أولاً: النص المفرد ما يقص مرة واحدة ما حدث فعلا مرة واحدة، ومعظم الروايات العربـــية تسير على هذا النمط، ومن أمثلة ذلك في "أرض السواد" ما ظهر جليَّاً في وصف الرواية لزيارات القنصل البريطاني لمناطق الشمال ، فقد جاء حديث الراوي مـــرة واحدة عند قيام "ريتش" بزيارة الموصل والسليمانية، وهذه الزيارة حدثت مرة واحدة، وجاء رصدها في الرواية من قبل السارد مرةً واحدة (285). ومن أمثلة النص المفـــرد مـــا قدمــــه الـــراوي من حديث عن زيارة القنصل للبئر الأثري في منطقة الموصـــل وهـــذه الزيارة جاءت مرةً واحدة كحدث فعلي وجاء الرصد الروائي لها مطابقاً للحقيقة(286) .

ثانـــياً: النص المكرر: ما يقص أكثر من مرَّة ما وقع فعلاً مرة واحدة، ولهذا النوع من النصوص وظائف منها: تأكيد الحدث وبيان أهميته، ومنها تعديل أو تغيير دلالة حدث؛ كأن يفهم القارئ مغزى معينا من الحدث، فيكرر السارد الحدث ويضيف إليه لـــيعدل رؤية القارئ، ومن وظائفه قلب الدلالة كلياً؛ فما يعد بريئاً طيباً عندما يذكر الحـــدث أول مـــرة، يصبح قاسياً شريراً حين يكرر ذكر الحدث أكثر من مرة، ومن أمـــثلة ذلك ما قدمه الراوي من تفصيلات متعددة أثناء حديثه عن مقتل "سعيد باشا" فقـــد كـــان التكرار الروائي لهذه الحادثة في كل مرة يضيف تفصيلات جديدة جهلها القارئ في مرات سابقة(287)، ويبرز هذا النموذج كذلك في حديث الراوي عن مقتل "ســـيد علـــيوي" ومن خلال هذه التكرارات يضعنا السارد في صورة شاملة لحقيقة الشخصـــية ومـــا يختزنها من مشاعر الطيبة في فترة زمنية ما ومشاعر الحقد التي تـــبدت عليها في مراحل زمنية متقدمة(288)؛ وقد عالج البحث أمثلة كثيرة في الحديث عن الاسترجاع .

ثالـــثاً: النص المجمل وفي هذا النمط من النصوص يقص الراوي في مرة واحدة ما جـــرى حدوثـــه أو وقوعه في المتن عدة مرات، ووفق رؤية أحد الدارسين فإن هذا الشـــكل النصي لا يعتد به كثيراً ولا بد من القول أنَّ الأحداث تكون متشابهةً ولكنها

ليســت واحــدة، ولذا يعد هذا التكرار من أشكال النصوص المفردة ومن أمثلته قول الراوي:

... وكانــت عادة الاغا أن يتراوح بين حدين متباعدين في تعامله مع رجاله، فمــرة يتبســط إلى درجة تجعلهم يتكلمون في حضرته بجرأة، وقد يمزحون ومــرة يمتــنع عن استقبال أحد، فارضا جوا من القسوة أقرب إلى الذعر... (289).

ولا يقــف الــنص المجمل على ذكر عادات العراقيين وسلوكاتهم بل يندرج لذكر سلوكيات الوافد على المجتمع العراقي، ويتمثّل ذلك بقول الراوي:

البالــيوز مــثل عادته دائما، حاضرٌ بل كثيف الحضور، لكن ضمن رصانة صــارمة لا يتــنازل عنها، ولا يتهاون بأي شرط من شروطها، ومقتضياتها، فهو يرقب بعناية كبيرة كل ما يحصل كيف يعبر الناس عن فرحهم واستقبالهم الوالي الجديد... (290)

ومن أمثلة النص المجمل قول الراوي:

... ومــثل عــادتهم أهل صوب الكرخ، خاصة رواد قهوة الشط، فهم يتأثرون بســرعة، يحزنون، يرقون، يتسامحون، ويبالغون بالشجاعة والكرم، وعن ذلك تروى القصص، ولكنهم بنفس السرعة ينقلبون إلى حالة من الجلافة والخشونة، وينســون مــا عاهدوا أنفسهم عليه، حتى يضن من يراقب تصرفاتهم، ويتابع أفعــالهم، أن داخل جلد كل واحد منهم أنفارا وأرواحاً عديدة، قد تزيد عن أيام الأسبوع...(291)

4 . الديمومة :

ويقصد بها المقارنة بين زمن المتن وزمن المبنى أو بين زمن المتن ومساحة النص، وتشمل آليتين هما التبطيء السردي والتسريع السردي، وتشمل الأخيرة التلخيص والحذف :

أ- التلخيص:

يعــدّ التلخــيص إحــدى الآليات الرئيسة التي يتوصل بها إلى تسريع مسار الســرد؛ وذلــك انطلاقا من كونه يعتمد على قيام الراوي بتلخيص الأحداث الروائية الواقعــة فــي عدة أيام أو شهور أو سنوات في مقاطع معدودات أو ضمن صفحات

قلـــيلة دون الخـــوض فـــي تفاصيل الأشياء والأقوال(292)، ويشكل التلخيص عاملا مساعدا لكاتب النص الروائي، إذ يقدم له خدمة تتمثل في"المرور السريع على فترات زمنية، لا يرى المؤلف أنها جديرة باهتمام القارئ..." ويقدم التلخيص عند الواقعيين وفق رؤية "سيزا القاسم" جملة من الوظائف الأساسية تتمثل في:

1. المرور على فترات زمنية طويلة .
2. تقديم عام للمشاهد والربط بينها .
3. تقديم عام شخصية جديدة .
4. عــرض الشخصــيات الــثانوية التــي لا يتسع النص لمعالجتها، معالجة تفصيلية.
5. الإشارة السريعة إلى الثغرات الزمنية، وما وقع فيها من أحداث.
6. تقديم الاسترجاع.(293)

يصف جنيت الخلاصة التي يسميها الموجز بأنها:-"أقصى انتقال من مشهد إلـــى أخر... فهو أمثل نسيج رابط في الحكاية الروائية التي يعرف نسقها بتعاقب الموجز والمشهد أساسا"(294)

ومن المواطن التي برزت فيها تقنية التلخيص في "أرض السواد" ، تلك التي يقــدم فــيها التلخــيص عرضاً سريعاً للشخصيات الثانوية غير المهمة بالقياس إلى ارتباطها البنيوي بحاضر السرد الروائي، ومن أمثلة ذلك ما قدمه الراوي في حديثه المقتضب عن زوجات "سيفو المحمود" اللواتي سبقن "قطيم" ، وذلك بقوله :

... لــيس ذلك فقط فالجميع يعرفون أن فطيم أم الغزل هي زوجته الثالثة وقد أنجبت قبل أن تتزوج ولداً وبنتاً، الولد غرق في الشط، وكان ابن عشر سنين، ولم يعرف عن أسباب الغرق، والثانية ماتت بالهواء الأصفر (295).

وهــنا تقدم الخلاصة معلومات سريعة حول شخصيات لها ارتباط بالشخصية الرئيســية ويبدو أن مثل هذا التذكر السريع، والمرور على الأحداث بطريقة خاطفة يشــي بعــدم أهمية هذه الأحداث، إلا من حيث ارتباطها بالشخوص الفاعلة، وزيادة علــى ذلك، فإنّ المجتمع الروائي يعطي القارئ فرصة إتمام الأحداث أو تخيلها على أقل تقدير؛ إذ يستقر في ذهن المتلقي أنّ مسألة تعدد الزوجات ظاهرة طبيعية في هذا

المجـتمع الفنـي، ولـيس ثمة من مبرر إلى الخوض في التفاصيل من حيث علاقة الزوجة بزوجها أو فيما يقع بين الزوجات من أمور يومية، إن السارد ليس معنياً هنا بمـثل هـذه التفاصـيل إلا بـالمقدار الـذي يعمل على نموّ السرد ويجلي صورة الشخصـيات المحركة في الرواية، ومن أمثلة عرض الشخصيات الثانوية، ما قالته والـدة بدري عند رؤيتها للبنات اللواتي يحاول بدري الزواج بإحداهن "اليوم شفناها، وشـفنا مريم شعبان أبو الحب، وشفنا نظيمة بنت محمود، وإذا خيرتني أختار زكية، طويلة، عيونها وسيعة بيضة، مشيتها زينة، وإذا الواحد سألها، حجى وياها، ما ترفع عينها وما تقول إلا بلي عمه" (296) ويلاحظ هنا أننا نقف بإزاء وقفةٍ وصفيَّة مع شيءٍ من التلخيص.

لقـد قدم منيف عرضاً سريعاً لفترات زمنية طويلة، ويبدو هذا جلياً من خلال نقل الراوي لرحلة الشمال التي قام بها ريتش والتي يعلن فيها صراحةً أنها استمرت ثلاثـة أشـهر وبضعة أيام، وهذه المدة الزمنية جاءت لدى الراوي ضمن صفحات محـددة لم تتجاوز ثلاث فصول، ذهب جلها في وصف المدن والمناطق الأثرية في حين أن تركيز الراوي على الأحداث كان بسيطاً، إذ انصرفت معظم هذه الصفحات إلـى مسـألة استرجاع القنصل لصورة " داود باشا" والتي ركزت في معظمها على طريقة توليه للسلطة، والإشارة إلى الأحداث المهمة التي مرت في حياته إضافة إلى أوجـه الخلاف التي تميزه عن غيره من الولاة السابقين، لذا فالفترة الزمنية المشار إليها لم يغطِ امتدادها الزمني الأحداث والوقائع وفق الامتداد الطبيعي للزمن، وحجم الحدث وما يشغله من حيز مكاني .

لقد أفاد الراوي من تقنية التلخيص في حديثه عن ظاهرة الفيضان الذي يتبدى للمتابع أنه يستغرق وقتاً طويلاً، إلا أن الحديث عنه جاء مقتضباً لا يتجاوز صفحات بسـيطة، اقتصـر فـيه الراوي الحديث عن دور النسوة والمسنين وبعض التجارب الفردية للأشخاص في مواجهة الفيضان دون الرصد الدقيق لطبيعة كلِّ إنسان داهمه الفيضـان وما هو السلوك الذي تملكه جراء هذا الظرف الطارئ (297) . كما أن آلية التلخـيص تنسـجم إلـى حد كبير مع آلية النص المجمل التي أشرنا إليها في فقرة الـتواتر؛ حيـث تقـدم المعلومات العامة والمساندة الممتزجة بالقيم والعادات، ومن

المقاصد التي يقدمها التلخيص آلية الاسترجاع، ويبدو هذا المقصد جلياً في قول الراوي :

> في اليوم الأول استراح سيد عليوي، وخلال هذه الاستراحة استعاد الماضي كله تذوق، من جديد، طعم الإهانات التي تلقاها من سعيد، الاعتقال ثم إصدار حكم الإعدام، والتهديد بالتنفيذ كل يوم، وكيف رفض سعيد أول مرة، ورفض في المرة الثانية، وأخيراً حين وافق مضطراً قال إنه يفعل ذلك إكراماً للقنصل ... (298)

إن الأحداث السابقة التي يقدمها الراوي والمتعلقة باعتقال سيد عليوي وسجنه استغرقت أياماً وشهوراً وربما سنوات، وهذه المدة الزمنية المشار إليها من خلال الحدث، بعيدةً عن التحديد فقد اكتفى الراوي بالإشارة إلى الأحداث البارزة فيها؛ ولعلّ ذلك يعود إلى أن الذاكرة الإنسانية لا تستطيع نقل الأحداث كما وضعت فعلاً، لأنها تنسى كثيراً من التفصيلات والجزئيات .

ب – الحذف :

هو التقنية الزّمانية الأخرى – إلى جانب التلخيص – التي تعمل على تسريع حركة السرد، حين يقوم الراوي التقليدي، بضمير الهو –مثلاً– بإسقاط فترة زمنية طويلة أو قصيرة من زمن الحكاية، دون أن يتطرق إلى ما جرى فيها، من الأحداث وما مر بها من الشخصيات، بل يكتفي بحديد العبارات الزمنية الدالة على مكان الفراغ الحكائي، وأنه يعمد إلى عدم تحديده (299) ، ولا يقف مصطلح الحذف عن هذه التسمية فقد تنوعت المسميات الدالة على هذه التقنية، إذ تطلق يمنى العيد عليها مصطلح "القفز" وفي مثل هذه الحال يكون الزمن على مستوى الوقائع زمناً طويلاً، أما معادلته على مستوى القول فهو جد موجز أو أنه يقارب الصفر، وعليه يمكن وضع المعادلة التالية :

أ– الزمن على مستوى الخطاب أو زمن الفعل يساوي صفر .

ب– الزمن على مستوى الوقائع يساوي سنوات طويلة . (300)

والحذف نوعان :

أ. الحذف الظاهر وهو الذي يشير إليه الكاتب في عبارات موجزة جداً (301) ، وقد ورد في الرواية نماذج متعددة على هذا النوع من الحذف، وهنا يتقيد الراوي

بمدة زمنية محددة يعيها القارئ بالقياس والتقدير، ومن أمثلته ما ورد في المنطوق السردي على لسان الراوي بقوله :- "قبل أن ينقضي يومان على مغادرته، عرضت القطع التي تم سكها على السراي، لما رآها حمادي صرخ والشرر يتطاير من عينيه" (302).

ويبدو أن الفترة الزمنية المحذوفة محددة تمثلت بيومين غير أن الكاتب لم يتناول بالتفصيل والتحليل ما جرى من أحداث؛ نظراً لقلة أهميته . ومن أمثلة الحذف المعلن قول الراوي :- "غايب الذي انقطع أياماً عديدة متواصلة، حتى ظن بدري أنه مسافر، ظهر من جديد، وأخذت زياراته تتوالى كل يوم، مع حامد أحياناً، ووحده أغلب الأحيان ..." (303).

إن الفترة المحذوفة والمقدرة بأيامٍ تبدو من خلال وجهة نظر الراوي ليست ذات أهمية كبرى؛ لأن الشخصية التي استغرقتها لم تقم بأحداث مهمة تشكل مساراً يغير في بنية النص الروائي، ومن أمثلة الحذف المعلن ما أشار إليه الراوي بقوله: "وقبل أن تنقضي ثلاثة شهور، أقيم احتفال ثانٍ، لا يقل روعة وحجماً عن احتفال الزواج، لكن هذه المرة بعيد ميلاد ماري ..." (304) والفترة الزمنية التي يتناولها الراوي والمحددة بثلاثة أشهر جاءت سريعة وخاطفة إذ لم يكن قد استقر في فكر الراوي من أحداث يجدر التوقف عندها خلال هذه الفترة الزمنية، فهي في منظور الراوي زمن فيزيائي لا يحمل أثرا في سلوك الشخصية وتحركاتها. ومن أمثلة الحذف كذلك ما نطق به الراوي قائلا: "عاد ريتش إلى بغداد، هذه المرة، إنسانا أخر، فبعد رحلته الأوروبية، أو خلالها، والتي استمرت أربعة شهور وبضعة أيام، تقدم في العمر أعواما عديدة" (305) . ويبدو أن الإضمار هنا دلالة على غياب أهمية الزمن الذي يحذفه الكاتب، كما أن بعض الأحداث لا تذكر؛ لأنها تشمل وقائع صغيرة يومية يستطيع المتلقي تقديرها فلا بد أن ريتش تعرض إلى أحداث كثيرة جعلته يهرم، وهذا يتبدى بشكل جلي ضمن أثر الزمن النفسي على أحوال الشخصية وسلوكياتها.

ب- الحذف غير المعلن وفي هذا النوع من الحذف "يتم الانتقال من مدة زمنية إلى أخرى بعيداً عن التحديد الدقيق" (306) ومن أمثلته قول الراوي: "...لم يتوقع

الكثـــيرون عودته لأن غيابه طال وامتد أكثر من أي سفرة سابقة، خاصة وأن رجال السراي أشاعوا بعد أسابيع قليلة من سفره أن القنصل لن يعود" (307)إن النص السردي السابق بما يخفيه من زمن فيزيائي غير محدد يمثل بعدا إيجابيا يعكـس عن مشاعر الارتياح والطمأنينة التي تغطي نفوس العراقيين وتدفعهم إلـــى التماهي بالشعور أن المستعمر لن يعود، فتحديد الزمن لديهم خاصة فيما يتعلق بعودة ريتش مبعث لليأس والقلق.

ج . المشهد:

يـتمحور المشـــهد في كونه "فعلا محددا لحدث مفرد يحدث في زمان محدد، ويســـتغرق من الوقت بالقدر الذي لا يكون فيه أي تغيير في المكان، أو أي قطع في استمرارية الزمن، لذا فإن المشهد حادثة صغيرة مؤداة من قبل الشخصيات قد تكون مـــنفردة أو مشـــهداً حـــيوياً مباشراً" (308)، وهذا التصور يجعل المشهد يُضفي على القـــارئ إحساســـاً بالمشـــاركة الجادة في الفعل، لا يفصل بين الفعل وسماعه سوى الـــبرهة التـــي يســـتغرقها صـــوت القارئ في قوله، لذلك يستخدم المشهد للّحظات المشـــحونة، ويقدم الراوي دائما ذروة السياق من خلال الأفعال وتأزمها في المشهد (309) ، وفي العمل الروائي نقف أمام مشهدين، الأول يطلق عليه "لوبوك" المشهدي، والثانـــي يسمى "البانورامي" الذي يعتمد على مسرحة الحدث، وتقديم الشخصية في إطار المشهد الدرامي الكلي (310).

تعددت المشاهد الروائية في "أرض السواد" ومن الأمثلة المتحرّكة السينمائية الدالة عليها قول الراوي:

> ما إن رأت نابي خاتون البلطة تلتمع في الهواء حتى ماءت مثل قطة مخنوقة. كانـــت تصـــدر عـــنها أصوات عمياء، متداخلة، وهي بين الخوف والرجاء، والـــتهديد، وربما احتضنت بقوة رأس سعيد وكأنها تريد أن تحميه، لأن سعيد وهـــو يتحرك، دفع يدها بنزق يريد أن يتخلص منها فتح عينيه لحظة، لحظة خاطفـــة، لأنه عاد وأغلقهما بقوة، وكأنه يبعد النوم أو يعود إليه، لا يدري أن رأى شـــيئا خلال تلك اللحظة لأن خطوات عليوي الواسعة، السريعة لم تمكنه مـــن استيعاب المشهد هز رأسه أكثر من مرة وبسرعة، لكن يد عليوي كانت أســـرع وهـــي تهوي، كانت الضربة عميقة، حتى بدى صوتها مثل خبطة في ماء عميق أو في عجين لم يختمر، وهذه الضربة وحدها كانت كافية، لكن سيد

علـــيوي اتبعها بأخرى، فانفصل الرأس وتدحرج، كر إلى الجهة الأخرى من السرير ثم سقط بين رجلي عزمي، الذي بدى شاحبا، وأخذ يرتجف" (311)

يقـــدم الـــنصُّ السابق مشهدا مليئا بالأحداث المتتابعة المتمثلة بتعاقب الأفعال التـــي قـــادت إلى القتل، وهنا يجد القارئ نفسه إزاء مشهد سينمائي ينقل صورة من صـــور القـــتل، إذ ينفعل القارئ ويتوحَّد مع المشهد دون اعتبارات لوجود الراوي، فـــيجد نفســـه جزءاً من هذه الصورة كما لو أنها حدثت على الحقيقة أمام عينيه، إن توالـــي الأفعـــال بالمعـــنى النَّحوي للكلمة، ولا سيما الفعل المضارع يشي بحضور الأحـــداث والشخصـــيات، فهي تتحرك أمامنا كأنها على خشبة مسرح، وهنا تكون مشـــاركة القـــارئ وانفعالـــه بـــالأحداث أقوى وأشد؛ لأنه لا يسمع فقط وإنما يرى ويشارك .

ومن النماذج على تقنية المشهد لدى منيف، ما يخبر عنه الراوي قائلاً :

انقـــذف مهـــيوب كالصخرة وسط كركوك، قطع شارع الجامع الكبير وصعد باتجـــاه القلعـــة، ومثلما ترك قادراً وهو يسأل ويشتم، ترك جنود القلعة وهم حائـــرون، ... قـــال الذين تبعوا مهيوب، أنهم مروا ببيت بدري فوجدوا عند الباب الدجاج وعدداً من الخراف، وحين لم يجدوا مهيوب تابعوا سيرهم أخذوا الطـــريق باتجـــاه بستان الباشا عند القنطرة التقوا براعٍ، حين سألوه إن رأى حصاناً جامحاً رد بالإيجاب، وقال إنه أخذ طريق الطاحون واصلوا السير، لما اقـــتربوا من بستان الباشا لمحوا مهيوب وإلى جانبه رجل أو اثنان قال الذين وصلوا قبل غيرهم أنهم رأوا قادر يحتضن بدري كان يضع رأسه في حجره، وشـــيخ مســـن يبلل قطعة من قماش في مطرة كان يحملها وينقط الماء في فم بدري ... عندما هدأ جسد بدري، ثم سكن، أنزله قادر . وضع الرأس، بهدوء، علـــى الأرض، وقف، نظر إليه من فوق، نظر إلى الحصان، ثم فجأة صرخ، كما لو أن سكيناً انغرزت في صدره، أو ناراً كوته ... (312)

يحـــاول الســـارد فـــي الاقتباس السابق أن يضع القارئ في صورة المشهد المباشـــر، فـــيجد القـــارئ نفسه مرتبطا بشخوص الرواية يرصد حركاتها المباشرة وردود أفعالهـــا إزاء الحـــوادث والمتغيرات، فقد شكل مقتل بدري مشهدا حيا يبين تفاعل المجتمع الروائي من دهشة واستغراب وبكاء في كثير من الأحيان، وفي هذا التصـــور الدقيق الذي ينقله منيف لجزئيات الحدث بتفاصيله ومراحله، يضع القارئ

في صورة الحدث ليس قارئاً للنص بل متفاعلاً مع الحدث يحاول من خلاله التحليل والاستنتاج. ومن المشاهد ما اتخذ شكل الحوار، وهذا النمط جعل المتلقي قادرا على الاســتماع لأصوات الشخصيات ومنطقها الفكري والأيديولوجي وكذلك مواقفها من التغيرات التي تصيب المجتمع، وأرض السواد لم تغفل في تناولها للمجتمع العراقي -فنــياً- عــرض هذه التقنية، وقد تنوعت المشاهد الحوارية فعكس بعضها محاولة تغيير منهجية الدولة وتصور خطة مستقبلية يحلم بها الأفراد واقعا ملموسا لا مجرد أفكــار ورغــبات (313)، ومن المشاهد الحوارية، ما يؤكد تآلف العراقيين وتوحدهم، وهــذا الــتوحد يتخذ طابعا وطنيا قوميا لا يجمع أبناء مدينة واحدة بل يجمع أفرادا متنوعين في المشارب والرغبات على امتداد الأرض العراقية، وفي هذا التوحد دليل أكيد على إصرار الإنسان العراقي بالتمسك بنسيج المنظومة الاجتماعية التي يسعى المحتل لإزالة ملامحها ودثر خطوطها(314).

د. الوقفة:

يطلــق عليها مصطلح الاستراحة وتظهر في الحالات التي يكون قص الراوي فــيها وصــفاً، إذ يصبح الزمن على مستوى القول طويلاً جداً لا نهاية له في حين يكون الزمن على مستوى الوقائع يعادل الصفر(315). والتوقف يحصل بسبب المرور مــن ســرد الأحداث إلى الوصف الذي ينتج عنه مقطع من النص القصصي تقابله ديمومــة صــفر علــى نطــاق الحكايــة(316). وأمام مصطلح الوقفة يبرز اتجاهان للوصــف:- الوصف الذاتي المتعلق ببيان مشاعر الشخصية وأحاسيسها، والوصف الموضوعي الذي يتجه إلى تجسيد الأشياء المادية (317).

يواجه القارئ في "أرض السواد" أنماطاً متعددة من الوقفات الوصفية سواء ما كــان مــنها متعلقاً بالشخصيات وأحاسيسها، أم ما كان متعلقاً بالوقفات الموضوعية التــي تتناول تفاصيل الأشياء، والسارد يتعرض لأنواع مختلفة من الوقفات فقد جاء بعضــها لديــه خالــياً من الإحساس بالزمن وحركته، ويبرز هذا النموذج من خلال حديــثه عــن شخصــية "سيفو المحمود" بقوله أثناء وصفه لبنيته الجسدية:- "ساقانَ طويلــتان، ضامرتان كأنهما ساقا لقلق، مكشوفتان أغلب الأحيان إلى ما فوق الركبة" (318). إن حالــة الطــول والضمور التي تتميز بها البنية الجسدية لسيفو هي صفات

قـــارة لا تتغـــير في لحظة السرد التي حدثت بها، ولا يقف هذا النمط وحده هنا بل يظهر في حديث الراوي عن "زينب كوشان" قائلاً "لم تكن صغيرة يوما ما لم تعرف الطفولة والشباب، فجأة من رحم الأم إلى الشيخوخة وهذا ما يفسر قسوة الملامح..."(319). وهـــناك نمط من الوقفة يطيل فيه السارد التمعن بالأشياء، ولكن لا يغيب عن باله عنصر الإحساس بالامتداد الزمني، ومن أمثلة هذه الوقفات ما قدمه السارد أثناء حديثه عن مدينة الموصل:

> الموصـــل المديـــنة والمحيط، أيام الربيع، مكان السحر الحقيقي، الطبيعة التي ظلــت مـــتوارية كامنة طوال الشهور السابقة تخلت فجأة عن اتزانها، نزعت الوقـــار التـــي كانت تتلحف به وأخذت تصرخ وتتحدى إلى أنّ بلغت مرحلة الجنون، فالألوان تنفجر في كل لحظة، في كل مكان وتتغير في اللحظة ذاتها، أو في اللحظة التي تليها وكنوز الأرض التي اختبأت بخوف طوال أيام الشتاء قررت أنْ تهاجم وتكتسح كل شيء...(320).

ويغلـــب هـــنا علـــى مكونات المكان الطابع الإنساني إذ تظهر الأمكنة مليئة بالحـــركة والإحســـاس والتـــبدل من فترة زمنية لأخرى إذ يمتزج الوصف بالسرد المشـــهدي فـــي لوحـــة شعرية متكاملة لا يمكن الفصل بين مكوناتها بأي حال من الأحوال، ومن الأساليب التي تعرضها الوقفة ما يقدمه السارد محللاً ومعللاً لما يدور في أعماق النفس الإنسانية، ولعلّ في هذا التقديم ما ينبئ صراحة عن تصوره للزمن وانعكاساته على النفس الإنسانية، ويبدو ذلك جلياً من خلال منطوقه السردي التالي:

> لقد باع الكثيرون أشياءً مثل هذه مرغمين فعلوا ذلك وأمل شاحب يراودهم أن زمـــناً آخر سيأتي ، وسوف يستطيعون استردادها أو شراء ما يماثلها ، رغم قناعة داخلهم أن ذلك لن يحصل في وقت قريب ومع هذا ظلوا يبيعون وظلوا يأملون ويكابرون ... (321)

الفصل الرابع

المكان "إطار نظريٌ وإنتاج دلالةٍ"

1.4 مَدْخل :

يُعَـدُّ المكــان أحد الجوانب الرئيسة التي يستند إليها العمل الأدبي ويبدو هذا الـتوجه جليا في الميدان الروائي، إذ لا يستطيع منجز العمل الروائي بأي حال من الأحــوال الاستغناء عن العنصر المكاني سواءٌ أكان على وجه الحقيقة أم ضربا من الخيال؛ إذ من خلاله "يخلق الكاتب عادة عالما روائياً، تقع فيه أحداث الرواية، يعتبر انـزياحاً عــن عالم الواقع، باتجاه عالم متخيل. وأن كان في الأصل يستمد من عالم الواقع، إلا أنه يختلف عنه اختلافا جوهرياً، يجعله قادراً على أن يسم المكان بسمات تجعــل له تأثيرات واضحة على شخصية ما من شخصيات الرواية، أو العكس حيث تخلــع الشخصية على الأشياء الخارجية صفات جديدة، تكون معادلاً موضوعياً لما يــدور في داخل الشخصية من أحاسيس ومشاعر..." (322). وعلى وفق ما تقدم نرى أن المكان دائم الصلة بالشخصيات التي تضفي عليها طابعها الخاص، مع الأخذ بعين الاعتبار الزمن وإمتداداته على العنصر المكاني.

إن لفظة المكان لا تعد تركيباً جديداً على ميدان الأدب الحديث، فهي متأصلة منذ نشأة الإنسان الأولى، وقد أولى الدارسون اهتماماً كبيراً بهذا المصطلح، إذ شغل الفكــر الفلســفي لمراحل زمنية طويلة، ولا سيما في أراء "أفلاطون" ، ويشير أحد الدارســين إلى ذلك بقوله: "وقد صرح أفلاطون بأول استعمال اصطلاحي للمكان إذ عــده حاويــاً وقــابلاً للشيء، وبعد هذه الإشارة أخذ مفهوم المكان يحتل أهميته في أبحــاث الفلاســفة، فخصصــت له مكانــة خاصة في معظم المؤلفات، وإن اختلف أصحابها في تحديد مفهوم محدد له..." (323).

لــم يقف المكان عند ما تناوله "أفلاطون" بل توسعت الدراسات الفلسفية فيه، فقــد نظــر "أرسطو" إلى المكان بصورة تجزيئية متخصصة، فظهر لديه نمطان من الأمكــنة، الأول أطلق عليه "المكان العام" والذي يعني لديه المكان الكلي الذي يحوي جميع الأشياء، أما النمط الأخر من الأمكنة، فيقصد به "المكان الخاص" الذي يحتوي الأشخاص والموجودات المخصوص الحديث حولها (324).

إنّ الحــيز المكانــي لــم يقف عند حدود ما قدمه الفلاسفة القدماء بل جاءت الدراســات والمفاهــيم الســابقة؛ لــتكون خطــوة أولى في مجال توسع المصطلح وخصوصــيته، خاصة الدراسات العربية إذ جاء المكان عنصراً أساسياً وفق تصور "المرزوقــي" الذي يرى أنه السطح المشترك بين الحاوي والمحوي (325). ولا بد من القــول أن علاقة الإنسان بالمكان متأصلة وأبديّة، فوجودية الإنسان الأولى فرضت علــيه مكانــا يقيم عليه، يؤسس من خلاله منطلق حياته؛ لذا "فالمكان أكثر التصاقاً بحــياة الإنســان، وإن إدراك الإنسان للمكان إدراك حسي ومباشر وهو يستمر مع الإنسان طوال سني عمره" (326). وهذه العلاقة المترابطة بين الإنسان والمكان ظلت متأصلة بل ومرفوعة إلى الثبات "فالمكان حاضن الوجود الإنساني وشرطه الرئيسي، وأكثر متلازماته قابلية للتحول...فالمكان قابل لزخم المسافة الهائلة القائمة بين أصغر مســاحة يتخــيلها الإنســان، وأقصى ما يمكن أن يكون عليه الكون العظيم " (327)، وهكــذا فــإنّ العلاقة المتوطدة بين الإنسان والمكان الحاوي له، لم تكن على الثبات والتــنافر بــل دفعت هذه الإشكالية إلى التفكير مليا بما حوله، الأمر الذي أدخله في كثــير من الأوهام والتساؤلات، فأصبح يعلّل كل ما يوجهه من مصاعب وأنات إلى عوامــل نفســية وشــعورية، الأمر الذي أدى به للنظر لمقتنيات المكان وفق قواعد أســطورية وســلبية تربى عليها "ولعلّ جمالية المكان هي الرموز المستمدة من هذه الطبيعة، فالشمس رمز القوة والضعف في الوقت نفسه" (328).

إنّ المكــان علــى وفق دوره الأساسي في العمل الروائي لا ينفصل عن بقية العناصــر الروائية الأخرى، وإن اختلفت هذه العناصر في مدى الدور الذي تقدمه " فالمكان هو العمود الفقري الذي يربط أجزاء الرواية ببعضها البعض، وهو الذي يسم الأشــخاص والأحــداث الروائية في العمق، والمكان يلد السرد قبل أن تلده الأحداث الروائــية وبشــكل أعمــق وأبعد أثراً" (329)؛ لذا فقد ظل المكان عنصراً متميزاً في العمــل الأدبــي يشد جوانبه ويكسبه دلالات اجتماعيّة ونفسيّة عميقة، ولا غرابة أن يُقَــدَّم المكــان علــى وفــق أحد الدارسين بأنه "شخصية متماسكة، ومسافة مقاسة بالكلمــات"(330). ويمكن القول إنَّ المكان لا يعدُّ عنصراً زائداً في الرواية، فهو يتخذ أشــكالاً ويتضــمن معاني عديدة، بل إنه قد يكون في بعض الأحيان هو الهدف من

وجـــود العمـــل كله، وهذا ما يدعمه "النصير" في تأكيده على أهمية المكان بقوله:-
"صـــحيح أن الطريقة الفنية هي التي تظهر لنا جمال المكان، وصحيح أن المخزون التأريخـــي لهـــذا المكان يمد الكاتب برؤى ثرة، إلا أن ذلك كله لا يعطينا فناً بدون رؤيـــة الشخصـــية وهـــي تعمـــل، والحدث وهو ينمو، واللغة وهي تعكس الوعي، والأســـلوب وهو يميز الطريقة، إن التأريخية في أجمل مفاهيمها هي تجسيد لطريقة الحياة" (331).

يختلف المكان الروائي عن المكان الجغرافي، فالمكان الجغرافي لا يصل فيه الإنســـان إلـــى أبعد من الحقائق الموضوعية له، وهذا الأمر لا يبدو في ظل المكان الروائـــي الذي تفرض دراسته علينا استنتاج رؤية الروائي لعالمه ولأهم ما يرى أنه مشـــكلة الإنســـان، لـــذا فإنّ تعامل الناقد في دراسته للمكان لا يجسد صورة المكان الحقيقـــي، فليس من الممكن لراوي النص وإن جسد مكاناً حقيقياً أن ينقل تصورات كاملة لماهية هذا المكان بحذافيره التي أوجدتها الطبيعة "لأن المكان في الرواية ليس هـــو المكـــان الطبيعـــي أو الموضوعي، وإنما هو مكانٌ يخلقه النص الروائي، عن طريق الكلمات ويجعل منه شيئاً خيالياً" (332). وعلى الرغم من أن العمل الفني شبكة مـــن العلاقات المتلاحمة فإنّ بعض الدراسات الحديثة تقدمه جزءاً مستقلاً عن غيره مـــن البـــنى الروائية ولا سيما الزمن، ووفق رؤية القاسم "يختلف تجسيد المكان في الـــرواية عـــن تجســـيد الزمـــن، حيث أن المكان يمثل الخلفية التي تقع فيها أحداث الـــرواية، أما الزمن فيتمثل في هذه الأحداث نفسها وتطورها، وإذا كان الزمن يمثل الخـــط الـــذي تســـير علـــيه الأحداث، فإن المكان يظهر على هذا الخط ويصاحبه ويحـــتويه، فالمكـــان هـــو الإطار الذي تقع فيه الأحداث وهناك اختلاف بين طريقة إدراك الزمـــن، وطـــريقة إدراك المكان حيث أن الزمن يرتبط بالإدراك النفسي، أما المكـــان فيرتبط بالإدراك الحسي وقد يسقط الإدراك النفسي على الأشياء المحسوسة لتوضـــيحها والتعبير عنها ... ومن هذا المنطلق ترى أن المكان ليس حقيقة مجردة وإنما يظهر من خلال الأشياء التي تشغل الفراغ أو الحيز..."(333).

لا تقـــف أهمـــية المكان عند حدود دراسة "سيزا القاسم"، بل نجده يحتل جانباً مهمـــاً عـــند غـــيرها من الباحثين، إذ ينظر البحراوي إلى العنصر المكاني "بوصفه

الحكائـــية، وتنظـــيم الأحـــداث والحوافز وكذلك بفضل بنيته الخاصة والعلائق التي يقيمها مع الشخصيات والأزمنة والرؤيات" (334) ، ويمكن القول إنّ المكان ظل يجسد اهـتماماً بالغـــاً لـــدى الدارســـين ويقـــف وراء ذلـــك جملة من الظواهر الإنسانيّة والحضـــاريّة، "فالعـــالم سمته الإنسانيّة هي التشتت، ومن هنا فإنه يحتاج إلى وعاء يفـــرض عليه شكلاً أو نسقاً تجميعياً، تكتسب الجزئيات في بوتقته الصاهرة، قيمتها ودلالـــتها وصلاتها الوجودية معاً وفي عالم يفتقر إلى الأحداث الكبيرة والشخصيات الكبيرة، عالم تفقد فيه حتى الأحداث الكبيرة قدرتها على لم شمل هذا الشتات . وعلى استقطاب جزيئاته ومجتزئاته ، يصبح المكان هو البؤرة والوعاء ومصدر القيم(335).

أمـــا جاســـتون باشـــلار فيقسم المكان إلى مجموعة من الأنماط, فيظهر لديه المكـــان المغلـــق والمكان المفتوح والمكان الأليف, ولا يقف الأمر عند ذلك بل نراه يـــربط المكان بمجموعة من الذكريات التي تلامس حياة الشخصيات الإنسانيّة(336). ووفق هذا التقديم للمكان، يرى أحد الدارسين "إن باشلار ينظر إلى المكان من وجهة نظـــر علم النفس، إذ إن التركيز على مرحلة الطفولة وأحلام اليقظة هي من مباحث علـــم الـــنفس، وهذا إن دلّ على شيء، فهو يدل على اهتمام باشلار البالغ بالناحية الإنسانيّة للمكان (337) .

لقـــد اكتســـب المكـــان فـــي الأعمال الروائية مضامينه ودلالاته من موقف الشخصـــية ورؤيتها الخاصة وموقفها من الحياة, ولعلّ ذلك يتفق مع رؤية النابلسي الـــذي يرى "أن المكان في الرواية ليس بما هو موجود في مسرح عمليات الرواية، ولكنه بما يخدم شكل الرواية ومضمونها، فالمكان يكون نظيفاً مضاءً حالماً شهياً في الـــرواية التـــي تقـــدم لنا رؤية تفاؤلية، وإن كان المكان في أصله قذراً مظلماً مرّ المـــذاق، فالمكـــان عندما ينتقل من مداره الواقعي الحياتي العادي إلى مداره الفني الروائي أو الشعري، يمد من خلال أنفاق متعددة نفسية وأيديولوجية وفنية لكي يصل أخـــيراً إلـــى المـــدار الفنـــي الروائـــي أو المدار الفني الشعري، أو المدار الفني التشكيلي..." (338) .

ويدعم النابلسي القول السابق بسوق مثال مهم، يتمثل بقيام أحد النقاد بالتساؤل عـــن ازدحام الناس أمام معرض فني يحتوي على لوحة لـــ"فان كوخ" تمثل شجرة،

ويدعم النابلسي القول السابق بسوق مثال مهم، يتمثل بقيام أحد النقاد بالتساؤل عـــن ازدحام الناس أمام معرض فني يحتوي على لوحة لـــ"فان كوخ" تمثل شجرة، رغـــم وجـــود شجرة خارج المعرض الأمر الذي أثار الاستغراب في نفسية الناقد، ولعـــلّ الإجابـــة على هذا التساؤل تكمن في أن الجمهور يرغب في أن يرى شجرة "فـــان كوخ" التي لا مثيل لها، فقد كانت نتاج مدارات فنية ونفسية وأيديولوجية ذات خصوصية فريدة (339).

لقـــد شـــكل المكان جزءاً كبيراً من الفضاء انطلاقاً من "أن الرواية الجيدة لا تستحضر أو تبتكر فضاء معيناً إلا إذا أوجدت له منظوراً، ووزعت ظلاله وأضواءه بمـــا يخـــدم استراتيجية الكتابة والقراءة معاً، وأكثر من ذلك وعلى حد تعبير ميشيل ريمـــون، فإن "كل رواية، فيما يبدو لي لها نصيب من الاتصال مع الفضاء" إذ تكاد كـــل جملـــة في الكتابة الروائية تحيل إلى فضاء معيّن، أو تستحضر فضاء معيناً ما دامت تعبر عن فعل يتم في الوجود أو تقدم لنا حضوراً ما في العالم، وبهذا المعنى، فـــإنّ صلة الفضاء بالنص الروائي هي أكثر من وطيدة، نكاد نقول بأن ليست هناك روايـــة أبداً بلا فضاء، ذلك أنه إذا تخلى المحكي عن الفضاء، فإنّ السرد يستحضره بصيغة أو بأخرى، بل أن المحكي هو الفضاء بعينه "الفضاء الاستعاري"بامتياز(340). وفـــي الدراسات الروائية يعد المكان مقياساً مهماً في تقييم العمل الأدبي فعندما يبتعد الفن عن احتواء المكان يكون قد فقد واقعيته إذ "لم يكن المكان يوماً إلا حاجة فكرية لمعرفة مصداقية الفنان ولعلّه أحد المعايير التي يقيس الناقد به صدق الفنان أو كذبه وفـــي أدبنا المحلي أصبح المكان أحد المؤشرات على إمكانية استمرار الفنان مبدعاً، ولـــربما أخطأنـــا الحساب عندما جعلنا المكان مقولة مشاعة للجميع في حين أنه لا يـــنهض إلا عبر المبدعين، ولا تتوضح معالمه الفكريّة إلا عبر من يفهم لغته الفنية ... ومـــا نعنـــيه بالحاجة الفكريّة أن المكان شأنه شأن أي عنصر من عناصر البناء الفنـــي يتحدد عبر الممارسة الواعية للفنان، فهو ليس بناءً خارجياً مرئياً، ولا حيزاً مطـــرد المساحة ولا تركيباً من غرف وأسيجة ونوافذ، بل هو كيان من الفعل المغير والمحـــتوي على تاريخ ما، والمضمخة أبعاده بتواريخ الضوء والظلمة، ويحتاج مثل هـــذا المكان إلى حيز مادي يتوضح عبره وينمو فيه، وإلا أصبحت كل البيوت أمكنة

لقــد حمل المكان المادي مجموعة من الدلالات التي يود المبدع بيانها والتي تــنطوي تحت منظومات دينيّة وسياسيّة واجتماعيّة، ويتجسد هذا في المكان الروائي مــن خــلال التمثيل للقيمة بالمكان والتقابل بين القيم من خلال التقابل بين الأمكنة، فالقصر العالي الواسع الكبير للغني القوي القادر على الفعل، والبيت الصغير الضيق الحقير للفقير(345).

2.4 الوصف وعلاقته بتجسيد المكان:

يعــد الوصف أبرز الأساليب المستخدمة في تجسيد المكان، انطلاقاً من كونه لوناً من ألوان التصوير يتناول الأشياء في مظهرها الحسي ويقدمها للعين، ولا يقف المفهــوم عند ذلك، بل يحتل المكان جانباً مهماً ولا سيما في رؤية سيزا القاسم فهو أسـلوب إنشــائي يتناول الأشياء في أحوالها وهيئاتها كما هي في العالم الخارجي، ويقدمهــا فــي صور أمينة تعكس المشهد وتحرص كل الحرص على نقل المنظور الخارجــي أدق نقل(346). وقد كان الوصف في الرواية التقليدية وسيلة لتحديد إطار الأحــداث والشخصــيات، ووســيلة لإبــراز ملامح الإنسان، ونقل تفاصيل واقعه، والأشياء التي ترتبط به وقد كان لذلك أثره في شد الأحداث والشخصيات إلى أماكن وأزمــنة معروفة وقد أشار " بلزاك " إلى أهمية الوصف في النص الروائي إذ يميل الإنســان حسب سنه، إلى تمثيل عاداته وأفكاره وحياته في كل ما يخص به حاجاته (347).

اعــتمد الواقعــيون فــي تقديمهم لعنصر الوصف على التدقيق في التفاصيل والاستقصـــاء، فتميز الوصف عندهم بأساليب مختلفة تتوقف على طبيعة توظيفه في الــنص الروائي، فإمّا أنْ يُوْصَفُ الشَّيءُ وصفاً موضوعياً؛ حيث يقوم الكاتب بتتبع كــل العناصــر المكونة له، أو أن ينظر إلى الشيء من حيثُ وقعُهُ على الناظر أو الســامع، فَتَلَوّنُ الأشياء يُنْظَرَ الناظر أو سمع السامع لها (348)، ولعلّ مبدأ الواقعيين متجسد في أن تصوير المكان لا يتم بوضع طابور من الحقائق ولا الأرقام جنباً إلى جنــب بــل بالعودة إلى فن الفرشاة، فرشاة الرسام الذي يعتمد على التصوير وليس

علـــى الســـرد، أمّـــا تصوير مرور الزمن فيجب أن يتم بطريقة أدق من ترك فراغ أبيض أو رسم صف من النجوم على صفحة الكتابة" (349).

تقـوم آلـية الوصـــف للمشاهد المكانية على وفق رؤية أيديولوجية نابعة من الموقـــع المكاني الذي تتخذه الشخصية الواصفة، وهذا الشخص وفق رؤية النابلسي "إما أن يكون في موقع جانبي من الفضاء وإما أن يكون في موقع أمامي من الفضاء وإما أن يكون عمودياً من الفضاء"(350). وعلى وفق ذلك لا بد من بيان أنواع الرؤى التي توظف في مجال الوصف :

أولاً: الــرؤية المَسْحيَّة: وتقوم على مسح تتابعي للعالم الذي يواجهه الرائي ويترتب علـــى ذلـــك تجـــاوب الأشـــياء الموصوفة، والرائي ينتقل من شَيْء إلى شَيْء ومن شخصـــية إلـــى أخـــرى؛ محاولاً زجَّ كلٍ ما يقع في مدى رؤيته ودمجه في المشهد الموصـــوف، وهـــنا تبدو الرؤية أشبه بحركة التصوير أو الكاميرا التي تقدم مسحاً تتابعياً لمشهد معين(351).

ثانـياً: الــرؤية العمودية: ويطلق أوسبنسكي على هذا النمط من الرؤية "نظرة عين الطائـــر ، لأنهـــا تفترض الرؤية من مكان عالٍ وتستخدم آفاقاً شاسعة، وتتجسد هذه الــرؤية لديه" حين تكون حاجة لوصف يحيط بكل تفاصيل المشهد الموصوف ، فإننا في الغالب لا نجد المسح التتابعي ولا الراوي المتحرك، بل نجد نظرة شاملة للمشهد مـــن وجهـــة نظـــر واحـــدة عامـــة جداً، وهذه الرؤية تبدو متأصلة لدى منيف عند اســـتخدامه لمصطلح الراوي كلي العلم فقد جاءت نظرته شاملة محيطة بكلّ جوانب المجتمع الروائي من عادات وتقاليد وطقوس يومية، وسيتم تناول هذا الجانب ضمن الحديث عن موضوع الرؤية السردية لاحقاً.

ثالثاً: الرؤية التصاعدية: ويتم الوصف عبرها من الأسفل إلى الأعلى وهنا لا يتمكن الراوي من إنتاج مشاهد وصفية متميزة وهناك الرواية المتحركة التي ترصد المكان مـــن قـــبل الرائي الذي يكون في موقف متحرك، وتأتي هذه الرؤية غالباً من خلال وجود الرائي ضمن وسائط النقل(352).

وظيفة الوصف :

أولاً : وظيفة تزينيه:

شــكل الوصــف في بداياته أثناء الاتصال بالميدان الأدبي ولا سيما الرواية جانــباً مهماً، ينطلق من كونه أداة تزينيه تضفي على المكان قبولاً من قبل القارئ، ومــن خلاله يتمكن من تحديد وجهة نظر مناسبة أثناء حكمه على هذا المكان، وفي هــذا الصـــدد تشــير سيزا القاسم إلى أهمية الوصف في إطار العمل الروائي دون حصــره بوظــيفة الزخرف ولا شك أنّ النظر إلى الوصف على أنه الزخارف التي تضــاف إلـــى المباني والكنائس وتجريده من وظيفته الفنيّة وإنكار التحامه بالقصيدة شــأنه شأن كل الأشكال البلاغيّة أدت بالأنواع البلاغيّة التي التزمت هذا النهج إلى الاضمحلال والسقوط،والنظر إلى الوصف على أنه زخرف من الزخارف أقل بقيمته حيــث أن الوصف قد يحمل معاني ودلالات أبعد من مجرد تمثيل الأشياء (353)وعلى هــذا الأساس، فلا يتعدى دور الزخرف والتزيين سوى مجرد كونه يهدف في معظم الأحيان إلى بناء ديكور، وإلى تحديد إطار الحدث، وتصوير الشكل الفيزيقي للأبطال والشخصـــيات الرئيسية (354). ويمكن الإضافة إلى ذلك أنَّ الزّخرفة والتجميل تدخل الخطــاب – مــع عناصر أخرى – دائرة الأدب تعمل على ردم الهوّة بين المبدع والمتلقي من خلال اشتراكهما في مراجع معرفيّة مشتركة .

ثانياً: وظيفة تفسيرية:

إنّ الوصـــف لـــم يبق في حال من الأحوال رهين وظيفته التزينية مع تطوره تــبعاً للـــتطور مســيرة الـــرواية وتجددها، فأصبح الوصف ينظر إلى الأشياء على اخـــتلاف أشـــكالها الفنـــية عن طريق تحديد المواقع، وكشف الرابط بين الشخصية والطبيعة (355) وذلك انطلاقاً من أنّ مظاهر الحياة الخارجية من مدن ومنازل وأثاث وأدوات تذكـــر لأنها تكشف عن حياة الشخصيّة النفسيّة وتشير إلى مزاجها وطبعها، وأصـــبح الوصف عنصراً له دلالة خاصة واكتسب قيمة جمالية حقّه، ويؤكد فلوبير أن الوصف لا يأتي بلا مبرر بل أن كل مقطع من مقاطعه يخدم بناء الشخصية وله أثر مباشر أو غير مباشر في تطور الحدث (356).

ثالثاً: وظيفة إيهاميّة

وفي هذا النمط من وظائف الوصف يسعى الكاتب إلى إيهام القارئ بأن العالم الــذي يصفه بتفاصيله المكانية وطبائع شخوصه هو عالم حقيقي وقد أشارت القاسم إلــى هــذه الوظــيفة بقولها: "إذ يدخل العالم الخارجي بتفاصيله الصغيرة في عالم الــرواية التخييلــي ويشعر القارئ أنه يعيش في عالم الواقع لا عالم الخيال، ويخلق انطــباعاً بالحقيقة أو تأثيراً مباشراً بالواقع (357). "فالمكان لا يكون بالضرورة مكاناً حقيقــياً إنمــا قــد يكون متخيلاً يبنى على أساس من التخيل لكنه لا يكتسب ملامحه وأهميته بل وديمومته، ما لم يتماثل بهذا القدر أو ذاك مع العالم خارج النص (358).

يمكــن القول إنّ الحدث يتحدد بالوصف، ويأخذ هويته ومن ثم يغدو مسرحا للحياة بكل أبعادها فبالوصف تتم التوطئة للحدث وتحديد بعض الوقائع فيه، والوصف يعطــي الحــبكة مــزيداً من الأبعاد وهو شكل من أشكال التشخيص إن لم يكن هذا التشخيص من أهم وظائفه (359).

3.4 الوصف في "أرض السواد" :

أســهم عنصر الوصف بتقنياته المختلفة في تجسيد المكان في ذاكرة الشخص الرّوائي وكذلك القارئ، ولعلّ منيفاً في هذا الجانب يودُّ تَأكيدَ المكان في الذاكرة بكل معالمــه حتَّى يظلَّ حيًا في النفوس، ومن النماذج الوصفيّة التي يقدم بها المكان لدى منــيف مــا استشهد به الراوي قائلاً:- "كان الدم يتدفق كنافورة...، وامتلأت الغرفة ببخاره اللزج" (360). ولعلّ استحضار المكان "النافورة" دلالة على كثرة الدم والبلاغة في شدة القتل، إذ يبدو القتل على درجة عالية من الوحشية وهنا يكتسب المكان بعداً مجازيــاً عن طريق إضافة المعنى إليه، ومن أمثلة ذلك ما قاله الراوي واصفاً غناء "تامــر المجول" "وحين غادر شواطئ الحزن إلى حقول الفرح..."(361). وهنا تظهر الأحزان والأفراح على صورة مواقع جغرافية، فالحزن الذي امتلأت به نفس المغني أشــبه بالبحر، والشواطئ تمثل مرحلة انتقالية من مكان إلى أخر، ولعلّها في الوقت نفسه تؤسس لبداية مرحلة جديدة، ويبدو الأمر جلياً في الحديث عن حقول الفرح بما تحويــه من خضرة للدلالة على أن المكان يحمل جانباً إيجابياً يبحث عنه الكاتب؛ لما

فيه من الخضرة والديمومة، وتطور الوجود الإنساني، فتبدو الشواطئ الممتدة مفعمة بالجرأة بينما تكون النقلة على آفاق رحبة مليئة بالحياة، وأحياناً يربط منيف في أسلوبه الروائي بين أحاسيس الإنسان وما يقابلها من الأماكن التي توحي بالحرارة والقسوة، ولقد تبدى ذلك المظهر من خلال تقديمه الدقيق للحالة التي سيطرت على أحاسيس ومشاعر المغني والتي وصفت بالبراكين دلالة على ما تحويه من أحداث ووقائع اختزنت في الذاكرة، وعندما جاءت لحظة التعبير انفجرت بها العواطف دون خوف أو تكتم (362)، وأحياناً يحمل الوصف المكاني عنصراً ملائماً يقدم فيه المكان صورة أبلغ عن الشخصية التي يتناولها الراوي واصفاً، ولقد وفق منيف في هذا الميدان فقد كان دقيقاً ملامساً لأنات أفراده وأحزانهم التي تتتابهم من حين لأخر ولعلّ أبرز ما يجسد ذلك حديثه عن حالة "أم قدوري" بعد وفاة ابنها بدري، فقد وصفها بأنها تطفو على بركة من الأحزان، وكانت تبذل جهداً محدوداً لكي تؤجل الغرق...(363). ورغم ما يشغله الحزن من مساحة كبرى تشبه البركة المائية في حياة الشخصية، إلا أنها تحاول التمسك بالحياة وهذا دليل أكيد على إصرار منيف بأنّ الإنسان العراقي يبقى عنصراً متحدياً يحاول الوقوف في وجه المصاعب بثبات.

4.4 أنماط المكان :

أولاً: الأمكنة المفتوحة:

أ- الصحراء :

تشكلت الصحراء عند الكتّاب وفقاً لرؤاهم الفكرية، فهي تبدو إيجابية تارةً، وتبدو سلبية تارةً أخرى، الأمر الذي دفع الكثيرين إلى التفكير الملي بصعوباتها فقد ظهرت عند بعضهم دليلاً على طمس الهوية كالجوع والتشرد والحرمان، في حين أن البعض نظر إليها كسجل للعادات والقيم الأصيلة في المجتمع، فهي رمز للكرم والشجاعة، واتساع الأفق،وعاملاً يعزز التواصل الاجتماعي بين الأفراد و الجماعات، ولا غرابة أنْ نَرَى حضوراً للصحراء في الأعمال الروائية لدى منيف ابتداءً من "النهايات" ومروراً بـ"مدن الملح" وانتهاءً بـ "أرض السواد"، وذلك انطلاقاً من "إن الفراغات الصحراوية قد منعت نشوء نسيج حياتي عضوي لمجتمع واحد ، ولدولة

ثابـــته متواصلة من القدم إلى اليوم..." (364). وبقيت الصحراء مكاناً مقلقاً في مجتمع "أرض الســـواد" تدعو إلى التفكك وقتل التلاحم الإنساني؛ وذلك لما وفرته من مأمن خصب دفع الكثير من القبائل البدوية إلى إثارة عوامل القلق والفوضى، وهذا الشعور الســلبي تجـاه الصــحراء نابع من وجهة نظر السلطة، إلا أن الصحراء في نظر الآخريــن تــبدو عــاملاً مغايراً لذلك تحمل دلالة على الأمن والاستقرار في نفوس "الكرخيين" مثلت لهم مبعثاً للثقة وملاذاً أمناً يحميهم من المطاردة الأمر الذي ولد في نفوسهم دافعاً قوياً يدعو للتحدي، ولم يقف دور الصحراء عند ذلك بل مثلت العشيرة خاصــة للذيــن فقدوا صلاتهم وروابطهم بالمنابع والجذور مَرْجِعيّةً قوية (365) وهنا تــبدو الصـــحراء رمزاً للأصالة والأنشداد إلى أعماق الأرض، وصحراء منيف في "أرض السواد" لا تختلف عنها في"مدن الملح"، فهي رمز الحياة والكبرياء والانتماء، وهـــي في الآن نفسه مصدر معاناة وقلق، لكنها على الوجهتين كلتيهما تبقى مصدر تحدٍّ وإعجاب، تصنع الإنسان القوي القادر على مواجهة المصاعب والتحديات دون الشعور بملل أو كلل .

والصـــحراء رغـــم بعدهـــا الجغرافي عن إطار الإنسان العراقي، إلا أنها تظل حاضرة في الوجدان، وهذا الحضور يظهر من حين لآخر في الطبائع والتصرفات، انطلاقـــاً مـــن كـــون الإنسان ابن البيئة أسيراً لطبائعها وقوانينها، وهذا ما تجلى من خلال المنطوق السردي الذي تلفظ به الراوي قائلاً :

> ... ورغـــم أن الصـــحراء بعيدة وقد تبدو عصية، قاسية، وغير مألوفة للذين يسكنون في صوب الكرخ، نظراً للأزمنة التي مرت، إلا أن رائحة الصحراء التـــي تهـــب من جهة الغرب، تحمل معها تأثيراً لا يمكن مقاومته أو نسيانه، وتترك بصماتها على الوجوه والتصرفات (366)

إنّ ســـلوكيات الإنســـان العراقـــي وتقلباته النفسية هي عوامل ورثها المكان الصـــحراوي للذين يحيطون به، وهنا تقول الصحراء كلمتها على كل شئ، فإن لم يتـــبد ذلـــك بقتل الإنسان وطمس هويته الحضارية، فإن الأمر يبدو متحققاً في الآثار التـــي يعانـــي منها الإنسان لفترات طويلة، ولعلّ هذا التوجه يبدو جلياً في منظومة الســـلوكيات النفســـية التـــي تحيط ببعض شرائح المجتمع العراقي والذي يأتي لسان الراوي واصفاً لهم بقوله:

الذيـن يسـكنون فـي الصوب الثاني من المدينة يلحظون أكثر من الكرخيين، الصفات والعادات، وحتى الجنون الذي يميز تصرفات الذين يسكنون في الكرخ، خاصـة أوقات الشدة، حين تأتي سنوات القحط، أو حين يصل الجراد، أو حين ترتفع مياه النهر وتهدد المدينة(367).

وأحياناً يبدو المكان الصحراوي عنصراً طارداً للإنسان؛ نظراً لما يخلفه من آثار سلبية عليه خاصة في المعارك الحربيّة التي تشكل أمراً طارئاً لا يمكن تجاهله أو نسـيانه، وإن تم ذلك، فإنّ هيبة الدولة تصغر في عيون أفرادها ولا سيما مثيري الفتـن الذيـن لا يكفون عن إشاعة الخوف والفوضى، ولا يقف دور الصحراء عند حـدود ما تقدم بل تشكل بكل تفاصيلها جزءاً في ذاكرة المجتمع لا يمكن تجاهله أو نسـيانه يحـاول التغلـب على قسوتها بالنسيان أو التفكير بمظاهر الطبيعة الأخرى كالليالي الرطبة ومظاهر الخريف التي تشكل ميداناً للتساؤل من قبل الكثيرين، الأمر الذي يؤدي إلى إطلاق الأحكام واستباق النتائج(368).

والصـحراء وإن تـبدت عنصراً قاسياً في وجه الدخلاء عليها إلا أنها تشكل نمطاً يتدفق بالألفة والأمن ولا سيما لسكانها الذين يفهمون أكثر من غيرهم تفاصيلها وتقلـباتها بيـن الحين والآخر، إذ لا تكف عن أن تكون عاملاً من عوامل الانتصار وتثبيـت الهويـة "...والذيـن لن يموتوا قتلاً سيموتون غرقاً أما إذا تأخر الاشتباك، واستطاع البدو أن يعبروا الفرات ودخلوا الصحراء، فعندئذٍ ستكون القوات الحكومية تحت رحمة القدر"(369).

لا يمكـن إغفـال الـدور الرئيسي الذي قدمه المكان الصحراوي في "أرض السـواد" فقـد كانـت موطـناً أصـيلاً لشريحة كبرى من المجتمع العراقي طبعت شخصـياتهم بصـفات منسجمة مع مظاهرها وخصوصياتها كالجود والكرم ونجدة المظلـوم وفي الوقت التي رُسِّخت فيه تلك الصفات الإنسانيّة النبيلة، ظلّ ساكنها في ازدواجـية دائمـة بين محاولة الهدوء والاستقرار من جهة، ومن جهة أخرى "قطع الطريق والسلب والنهب والعدوان الدائم والصراع المستمر والإسراع إلى الشرّ، كل تلـك في أجواء صحراوية يكملّ الإنسان في ذهنه ما لم يتمكن في استبصاره بعينه فنشأت الأساطير والجن، إلى صفاء الرؤية، والاستهداء بالنجوم، وتجلى كل ذلك في شـعرهم، وفـي وصف رحلاتهم..."(370)، وتظل الصحراء فضاءً رحباً ليس على

مستوى الواقع بل هي كذلك في تفكير شخوص منيف سواء أكان ذلك في "أرض السواد" أم "مدن الملح"، فإذا كانت الصحراء مصدر حماية لبدو العراق من الأخطار الخارجية، فقد تبدت مصدراً للخير والرفاه في مجتمع "مدن الملح" إذا شحنت في نفوسهم نظرة مادية تجاه الأشياء والقيم، ومن هنا كانت الصحراء لغزاً، وكانت رمزاً لكل ما هو متسع شاسع ومخيف، ورمزاً لكل ما هو خارج التصور المحدد وخارج التفكير البسيط، إنها الصحراء، وللناس منها مواقفهم العاطفية ألفة أو خلفة " (371).

ب- المدينة:

تقدم المدينة دوراً بالغ الأهمية من ميدان العمل الروائي، فهي المنطلق الأول الذي تنطلق منه الشخصيات التي تسهم في نسج الحدث الروائي ولا غرابة أن تهيمنَ المدينة في معظم الكتابات الروائية انطلاقاً من كونها "البوتقة التي اختلطت، وذابت داخلها الأجناس والشعوب والثقافات، إذ تجمع أناساً من أطراف الدنيا مختلفين(372). والدارس لثلاثية "أرض السواد" يجد أن منيفاً استحضر المدن العراقية بكل ملامحها الجغرافية وسماتها المناخية، وما أحدثته من آثار على نفسيات الشخوص، فكانت كل مـن بغداد والموصل وكركوك والسليمانية بالإضافة إلى كونها بقعاً جغرافية متنوعة الخصائص شواهد حـيَّة لنماذج إنسانية متنوعة في الاتجاهات والعادات والتقاليد تؤدي في النهاية إلى رسم جدارية تفصيلية لمجتمع العراق وبناه الأيديولوجية المتنوعة، ووفق رؤية أحد الدارسين يتعدى دور المدينة على اعتبارها جزءاً من أجزاء المجتمع إلى كونها تمثل حقيقة اجتماعيّة تعبر عن الممارسات الجمعيّة للسكان الذين يعيشون ويعملون معاً .(373)

تحتل مدينة بغداد جانباً كبيراً في عمل منيف الروائي، فهي عاصمة الدولة ومركز القرار السياسي فيها. والصراع الإنساني على السلطة والنفوذ متنوع بين أفراد مجتمعها، فيظهر أفرادها في أحيان كثيرة محبين لمدينتهم بسبب الألفة التي وجدت بينهم وبين المدينة، ولعلّ رفض عزرا السفر إلى مدينة اسطنبول وترك بغداد، دليل على التعلق بالمدينة الأم، لأنه بدون بغداد يشعر بضياع الهوية والوجود.

يقول الراوي:

> ...فمــن جملــة أسباب تعلقه بهذه المدينة شعوره أنه فيها أقوى من أي مكان آخر، لأنه يعرف كل شئ. الناس والأماكن وحتى الطقس، الأمر الذي لن يتاح لــه في مدينة أخرى، خاصة اسطنبول حيث يذهب الكثيرون إلى هناك، لكن الذيــن يســتمرون قلــة، وهذه القلة تظل خاضعة للرياح التي لا تتوقف عن العصف طوال أيام السنة...(374).

وتظــل بغــداد تعيش حالة من تباين مواقف الأفراد ومشاعرهم تجاهها فالفرد متقلب في حبه للمدينة، ففي الوقت الذي أحبها به عزرا، تظهر مشاعر الكره والحقد لها من قبل "عبد الله بك" الذي نظر إلى بغداد على أنها مدينة طاردة، تصادر أموال الــناس وتنهــب ثــرواتهم،(375). ورغم ما تخلقه مدينة بغداد من تفاوت طبقي بين أفــرادها وأقسامها الداخلية إلا أنَّ أناسها البسطاء لا يتغيرون في مشاعرهم تجاهها والتي يقوم جلها على الفخر والاعتزاز:

> لا شــك أن الــناس في صوب الكرخ أقل غنى، لكنهم أكثر اعتزازاً بانتمائهم لهــذه الجهــة من المدينة . فالأحياء التي قد تبدو ضيقة ويظهر عليها القدم، وتوحــي بالفقر أيضاً، إلا أن البشر الذين يمتلكونها قلوباً من ذهب، كما يقول الذيــن يحــبونهم، ويتصــفون بالكثير من الطيبة والبساطة، ويتميزون أيضاً بالصخب والأصوات العالية والمرح...(376).

ويخلــق الفقر الذي تولده مدينة بغداد في نفوس الكرخيين شعوراً إنسانياً يتسم بالقناعة والرضا بالواقع، ويطرح السارد ذلك بطريقة مباشرة قائلاً:

> إذا كــان صوب الرصافة يفخر باتساعه وجمال أكثر أحيائه، وبوجود السراي والوالي، وبذاك الكم الكبير من أصحاب المقامات والأولياء، وبالسوق التجاري الكبــير، فــإن صــوب الكرخ لا يشعر بالفضاضة أو النقص، كما لا يشعر بــالخوف. صــحيح أن قبور الأولياء الذين يرقدون في هذا الصوب لا تحمل الزيــنة، وقــد تــبدو فقــيرة، لكن الأهمية، كما يقول الكرخيون، لا تحددها الحجــارة، ولا تقــاس بارتفــاع الأضرحة، أو كميات الشموع والبخور، إنها تــتحدد بمقــدار ما تنزله في النفس من أثر، وما تولده في الذاكرة من حنين وأحلام (377).

وتشكل "بغداد" في نفسيّة المستعمر حالة من الخوف، إذ تفرض عليه بين الحين والأخــر مراجعة سياساته؛ لأن هذه المدينة وسكانها سرعان ما تتبدل بهم الأحوال، ولا يؤمــن جانــبهم، وينطبق عليهم وصف الراوي حين يقول: "لأن بغداد، كما قال

ريـــتش لنفســـه مـــثل السلحفاة: بطيئة الحركة، بطيئة الاستجابة، لكن إذا تحركت لا تقـــف" (378). وتظل بغداد إضافة إلى ما تقدم تشكل مبعثاً من الغربة التي من خلالها تحاول رفض المستعمر الذي يحس رغم إقامته في هذه المدينة مدة طويلة أنه يجهل تفاصيلها، وهنا نظفر بحالة من العداء القائمة بين المكان الأليف والغريب المستعمر فهـــي وفق منظوره محطُ تساؤل ودهشة، وهذا ما يُلْمَح صراحة على لسان الراوي الذي يصف كوامن نفسية المستعمر بقوله:

> تـــراءت له بغـــداد وقد دخلها بعد العصر وقبيل الغروب؛ مدينة مختلفة، من حيـــث المـــناخ، ومن نظرات الناس أيضاً، فالبرودة، أو على وجه أدق، الجو المنعش الذي رافقه حتى عودته، أصبح لافحاً شديد الحرارة، خلال النهار منذ أن ترك البلدة (379).

تكتسب مدينة بغداد لدى منيف سمة الأنسنة؛ إذ يتوحد المكان مع الإنسان في لحظـــات تأزمـــه وقلقه، فالمكان يتأثر بالأحداث وتنتابه حالة من الترقب والانتظار، وهـــذه الســـمات الطارئـــة لا تقـــف على المدينة وحدها، بل تنعكس على تصرفات الشـــخوص وسلوكياتهم والتي غالباً ما يعتريها الخروج عن المألوف المتمثل بطبيعة الحـــزن الـــذي يلـــف النفوس، وكذلك حالة القلق التي يحاول الإنسان نسيانها بكثرة الحديـــث الـــذي لا طائل منه(380). وتبقى المدينة لدى منيف سجلاً تاريخياً للأحداث التي ترصدها الذاكرة، والتي حاول الأبناء نسيانها انطلاقاً من كونها جزءاً من تركة الماضـــي، وتبقى المدينة حاضرة لا يؤثر فيها فعل الزمن بشهادة أفرادها ولا سيما "ســـيفو المحمود" الذي وصفها بقوله: " هذي بغدادنا تحمل هوايه، لكن أبد ما تنسى، إذا مو اليوم ثاني يَوم" (381).

يـــبقى العنصـــر المكاني شاهداً على مواقف أفراده سلباً وإيجاباً، فالمدينة التي تـــبدو واضحةً لإنسانها يعتريها في كثير من الأحيان الغموض والخوف، ولا غرابة أن يأتـــي وصفها على لسان الآخر بأنها مدينة خادعة(382)، والمدينة التي يبني عليها منـــيف مجتمعه الروائي لا تبقى عنصراً ثابتاً بتشكيلاته الهندسية، بل تتغير من فترة إلى أخرى، انطلاقاً من الوضع السياسي والاقتصادي الذي يسودها، ويبدو ذلك جلياً من خلال الوصف الدقيق الذي يقدمه الراوي لأثر التغيرات في نفوس المحيطين :

> لم يصدق ريتش أن كل هذا التغير قد حصل أثناء غيابه، فبناء السراي يرتفع يومياً لأن العمل فيه يتواصل منذ ساعات الصباح الأولى، ولا يتوقف إلا بحلول الظلام. بوابات بغداد جددت وأعيد تنظيم الحراسات عليها. الجسر الخشبي وسع ودعمت جوانبه، بحيث أصبح قادراً على استيعاب عربتين واحدة في الذهاب والأخرى في الإياب. عدا الجانب الأيمن الذي خصص للمشاة. أما الأسواق، أما عدد من الميادين، فقد أصبحت أكثر نظافة وتنظيماً من قبل (383).

أن المدينة العراقية بكل ما لحقها من خراب ودمار، وأزمات إنسانية لا تنتهي، تبقى حاضرة في وجدان أهلها الذين طوتهم الغربة، وأقصتهم ظروف الحياة عنها، فبغداد حاضرة في عقلية الإنسان العراقي مهما غابت تبقى راسخة في الذاكرة لا يمكن نسيانها (384).

لا يقف منيف في رصده لإبعاد المكان العراقي عند حدود "بغداد"، بل تجاوزها إلى المدن العراقية الأخرى، فمثل ما احتلت بغداد مساحة كبرى على خارطته الروائية، ظهرت كذلك "الموصل وكركوك والسليمانية والبصرة" وغيرها من المدن التي تبدت أثارها بشكل جلي على حياة الإنسان العراقي، فكان صداها في مواقفه الإنسانية المتعددة، إذ تعكس المدينة التحول المناخي والطبيعي في العراق الذي من خلاله تتنوع طبائع البشر وأمزجتهم، وهنا يرصد منيف تأثير المكان في تشكيل شخصية الإنسان ومنظومة القيم التي ينتمي إليها، ويلجأ في ذلك إلى ضروب التشخيص والتجسيد كافة راصداً فيها الجمادات ككائنات إنسانية، وهذا يتجلى في الوصف الذي قدمه الراوي لمدينة الموصل بقوله:

> الموصل، المدينة والمحيط، أيام الربيع مكان السحر الحقيقي. الطبيعة التي ظلت متوارية كامنة، طوال الشهور السابقة، تخلت فجأة عن اتزانها، نزعت الوقار الذي كانت تتلحف به وأخذت تصرخ وتتحدى إلى أن بلغت مرحلة الجنون...حتى البشر والحيوانات والطيور في الربيع يصبحون مخلوقات أخرى، مخلوقات مختلفة، وكأن مساً أصابها (385).

يعد المكان شاهداً حياً يقدم منظومة من الحضارات الإنسانية المتعاقبة التي سكنت أرض العراق، وخلفت وراءها العديد من اللقى الأثرية التي تشهد على امتدادها التاريخي؛ لذا فقد أسهم المكان في تجسيد أطماع المستعمر الذي شكل لديه

فـــي كثيرٍ من الأحيان نمطاً أسطورياً ارتبطت محتوياته بالقداسة والطهارة، وقد مثل مصـــدراً لخلاص الناس من أمراضهم وعللهم، ولم يقف دور المكان لدى المستعمر عـــند هـــذا المجـــال بل ربطه بكثيرٍ من حكايات الأجداد وأنماط الخرافة(386). ومن المدن العراقية التي جسدها منيف في "أرض السواد" السليمانية التي تعكس في جوها حالـــة من رفض المستعمر، إذ إنّ المدينة تحاول أن تجعله يدفع ضريبة دخوله غير المشروع للعراق بما تقدمه من مستلزمات مناخية قاسية تجاه المحتل، تتمثل بفرض أمراض طارئة عليه كالحمى والملاريا(387). وسلوك المدينة لا يقف عند نمط المحتل بـــل نـــراه يـــتعدى إلـــى السكان المحليين، وهذا التغير يَنْصَرِف إلى سلوك الأفراد والجماعات والذي تسهم فيه الطبيعة بشكل كبير، وهذا ما يتلفظ به السارد صراحة

> فالســـليمانية خلال فصل الصيف يسود الهدوء جوها عند الفجر، لكن ما أن ترتفع الشمس فوق التلال، حتى تهب ريح تظل خفيفة إلى الظهر، أما بعد ذلك وحتى الغروب تتحول هذه الريح لتصبح قوية، ويكون اتجاهها غربياً، فـــإذا أتت الريح من ناحية الشرق، وعادة تأتي في الليل، وغالباً ما تختلط برياح آتية من ناحية الشمال، فتحمل معها الحرارة اللافحة والبعوض، كما تحـــرك الحشرات والزواحف، وتكون شديدة السرعة معظم الأحيان، فتترك أثـــرها فـــي الجســـد والروح، أما إذا أصبحت الريح شرقية تماماً، فعندئذ: يتشـــاءم الكثيرون، وتخرج من أفواههم كلمة واحدة، أقرب إلى الشتيمة:- الشرقي، (388).

تحمل المدينة جانباً من السوداوية في حياة زائرها، فتعكس في نفوس الأفراد ذكريات مؤلمة تكمن في فَقْد الأعزاء، وَهُنَا يُعلِّل الإنسانُ حوادث الموت بأن مردها المدينة، مستشهداً بالحوادث الدينية التي تدعم ذلك (389) ، وهذا ما جاء صراحة على لســـان الأســـطة إسماعيل إذ يقول: " إنّ قاتل بدري أكبر مما يبدو في الظاهر وأنه أرســـل إلـــى كركوك كي يقتل هناك..." (390). وتبقى كركوك في نظر عائلة بدري مكـــان الأحزان التي يتجسد فيها كل شيء حتى جسم الفقيد نفسه، وهذا ما ألح عليه شـــقيق بـــدري بقولـــه: "يدفن بدري في المكان الذي استشهد فيه". (391). ويتبين من العـــرض الســـابق أن المكـــان يتشكل على وفق الراصد له، فريتش مثلاً ينظر إلى المكان من خلال عينه هو، وبمنظور مختلف عن الآخرين. ويمكن القول إنّ صورة

المكـــان تعـــبر بالضــــرورة عن رؤية الناظر إليه، وأن كان الناقل الرئيس لكل هذه الرؤى هو السارد الكلي العلم.

ج. الأسواق والشوارع:

تحـــتل الأســـواق والشـــوارع بوصـــفها نماذج مكانيّة، مساحة لا بأس بها في تصـــوير منيف للبنى المكانية في "أرض السواد" . وهذه الأماكن لا تقف عند حدود دورهـــا الطبيعي بل تتجاوز ذلك، لتمثل مناطق يسقط عليها الإنسان العراقي طبيعة الظـــروف التـــي يحـــياها المجـــتمع، وما تعتريه من تغيرات وتبدلات، فقد برزت الشـــوارع والأزقة العراقية مساحات مكانية يعبر من خلالها المجتمع بأناسه البسطاء عـــن مشـــاعرهم الحقيقـــية تجـــاه السلطة، نظراً لما تحمله هذه الأمكنة من شعور بالطمأنيـــنة والأمان في نفوس مرتاديها، وأرض السواد تعكس كثيراً من الملفوظات القولية التي تصدر عن ألسنة البسطاء والتي هي في الغالب أقوال جماعات لا تصدر عـــن أفـــراد بأعينهم، ومن أمثلة ذلك ما رصده منيف على ألسنة المجموع قولهم:- "داود مـــثله مثل غيره من الولاة، لا يشبع من الانتقام، ولا يغرنكم سن الذهب، لأن وراه لدغـــة حـــية، فـــالله يســـلم ويستر" (392). وأحياناً يفقد السوق التجاري معالمه الاقتصـــادية، إذ يـــبدو متأثراً بتغير الظروف والأحوال، وعين السارد تبدو راصدة ومعللة لهذه التغيرات من خلال قولها:

> أما السوق التجاري الذي كان يمتلئ بالمواد والحركة، وكان يرافق ذلك الود والمـــرح، وتطغـــى علـــيه المســـاومات، وكثيراً ما تكون مقصورة لذاتها، لاختبار الكفاءة وقوة الاحتمال، فإنّ أي حديث عن حرب وشيكة يغير مزاج السوق، بل في أحيان كثيرة يقلبه رأساً على عقب... (393).

لعـــلّ في ذلك محاولةً من منيف لرصد أثر الحدث في المكان، وليتشكل بعد ذلـــك علاقـــة جدلـــية بيـــن المكان والحدث والإنسان. ويعكس الزمن بكل تفاصيله الفيزيائـــية أثـــراً كبـــيراً على المكان، ويبدو ذلك جلياً في الحالة التي تقدمها "أرض السواد" لطبيعة الأسواق التجارية انطلاقاً من قول الراوي:

> أثناء العودة، كان الوقت غروباً. بدأت الأسواق تقفر، وأغلب المتاجر أغلقت أبوابهـا. الهواء البارد يهب، الظلال ترتخي فوق الأشياء، الصور في ذهن ريتش تتداخل وهو يعتلي صهوة جواده الأسود... (394)

وتمـثل الشـوارع العراقـية أدوات اتصال من خلالها تنقل السلطة توجهاتها وقدراتها إلى مسامع الناس؛ يقول الراوي:

> ما كاد ينقضي النصف من رمضان، حتى خرج المنادون، ومعهم قارعو الطبول، لإبلاغ الناس أن مولانا السلطان أصدر الأمر بإعلام أهل الفتنة، رجال العاجي سعيد، وأن حكم السلطان سينفذ في أقرب أوان...(395).

ثانياً : الأمكنة المغلقة:

أ. المقاهي:

تعـد المقاهـي من أبرز التفصيلات المكانيَّة التي تعج بها المدن العراقيَّة ولا سيما بغداد؛ إذ مثلت من حين إلى آخر عاملاً من عوامل التوحد الاجتماعي، ودليلاً يعكس حياة المجتمع العراقي وما يسودها من أنات ومصاعب، إضافة إلى أنها دليل أكـيد على محاولة العراقيين التمسك بعناصر الحياة وجعلها في صورة فضلى. ولا يغفـل منـيف دور المقاهـي العراقيَّة انطلاقاً من كونها في فترة من فترات تاريخ المجـتمع الروائـي باتـت تشـكل بـؤراً سياسيَّة وقتاليّة أثناء عملية الصراع مع المستعمر.

تـبدو المقاهي العراقية مؤتمرات سياسيَّة، يحاول الإنسان العراقي من خلالها اسـتلهام الأوضاع السياسية والاقتصاديّة التي تواكب مسيرة الدولة والمجتمع، وهذا مـا يظهـر في حديث الراوي مبيناً تفاعل الإنسان العراقي مع المقهى الذي لم يعد مجـرد أماكـن استراحة وترويح عن النفس، "في الكرخ، في قهوة أبو الخيل، حيث يستجمع عدد من رجال سليمان الغنام، فإن كل واحد من هؤلاء الرجال، حين يسأل عمـا حصل في القلعة، تكون إجابته مطابقة أو مقاربة لإجابة الآخرين؛ يقول هؤلاء الـرجال إنهـم تركوا القلعة في وقت مبكر، تركوها قبل أن يدخل "داود باشا" بغداد بأيـام، لأنهم لم يعودوا يعرفون من هو الوالي، ومن له حق إصدار الأوامر.." (396) وتظـل القهوة مكاناً يؤمن الحريَّة المؤقتة للمواطن العراقي التي يعبر فيها عن أعباء الحياة التي تواجهه، وانقطاع دخله الشهري.

إن الدور السياسي والحرية التي تقدمها "المقاهي الشعبية" لا تقف عند مقاهي بعينها بل تكاد جميع مقاهي بغداد تضطلع بهذا الدور الكبير، وهذا ما يقرره النص:

> "...أما قهوة الشط في جانب الكرخ، والعادة أن يأتي إليها كثيرون من صوب الرصافة حين تلتبس الأمور، فقد وصل إليها عبود الحاج قادر، مختار محلة باب الشيخ، في الصباح الباكر، جاء بعد أن شعر بالمرارة وأيضاً بالحنق في اليوم السابق، نتيجة الكلمات التي سمعها من رزوقي مفتاح..." (397).

وهنا يفصح النص عن دور المقاهي في امتصاص هموم الإنسان زيادة على أنها تشكل مهرباً من المصائب والأزمات، وهي كذلك نقطة تواصل بين الأفكار السياسية والاجتماعية.

تحتل القهوة العراقية أيضاً دوراً يتجاوز كونها محطات استراحة، تروح عن النفس الإنسانية، فنراها جزءاً مهماً في حياة العراقيين بكل جوانبها وطقوسها، ويحلل السارد هذه المسألة بطريقةٍ تقريرية مباشرة؛ لذا يقول:

> قهوة الشط ليست كأية قهوة أخرى في بغداد:- كبيرة، متدرجة، وبالغة البساطة والكثافة معاً: وإذا كانت مقاهي الأطراف تماثلها ببعض هذه الصفات، فإن ما يميزها عن غيرها الاتساع، ثم أنها دائمة التغير من حيث المزاج، تماماً كماء النهر، عدا عن أن فيها أركاناً وزوايا قوية ثابتة، ليس بالجدران التي تنهض عليها، وإنما بالبشر الذين يحتلونها، ويشكلون جزءاً من ملامحها، الأمر الذي يعطيها تميزاً إضافياً (398).

فالمقاهي العراقية تتوحد مع النشاط الإنساني، تحضر بحضوره وتغيب بغيابه نقرأ في الرواية: "فعندما يقترب الغروب، وتبدأ المحلات التجارية تغلق أبوابها، لا تلبث تلك المقاهي أن تلملم نفسها لتشارك السوق كله وهو يدخل إلى الصمت، ثم إلى العتمة التي تزحف عليه قبل أن تزحف على الأمكنة الأخرى في بغداد..." (399). وتأخذ القهوة دوراً سياسياً، فتظهر أشبه بالصالونات السياسية التي تستقطب مختلف الأجناس، وهنا تصبح القهوة في ذاكرة القاطنين حولها معلماً ثقافياً وحضارياً لا يمكن تجاهله بأي حالٍ من الأحوال، بل يتجاوز ذلك ليكون مدعاة للاعتزاز والفخر في ظل التمايز الطبقي بين الأحياء العراقية (400).

أصبحت القهوة تشكل بكل تفاصيلها التقليدية جزءاً من حياة الإنسان اليومية، فلــم يقتصر دورها على تبادل التحية والسلام بل ظهرت أشبه بنافذة إعلامية، يطلع من خلالها الجالسون على التغيرات التي تطرأ على العراق، فقد تواضع الناس على زيــارة هــذه المقاهــي، ففــيها ما يشبه صلة الرحم، وفيها يتجسد البوح والمناجاة والجــدل، وبلغة النص: "القهوة موبس السلام عليكم وشلونكم. القهوة أخبار وأسرار، وغــزل بالليل ينفل بالنهار..."(401). ورغم تنوع الأشخاص وتعددهم في قهوة الشط، إلا أن النســيج الاجتماعــي بيــن أهلها يبقى متأصلاً، وإن كثرت الأعداد، وتعددت الوجــوه. ولعلهــم في هذا التوجه يؤيدون تلاحمهم في مواجهة المستعمر، وما يثيره من فتن واضطرابات تهدف إلى خلق الفوضى داخل بنية المجتمع العراقي، ويتعاظم دور القهــوة فيصــل إلى مرحلة من القداسة والتطهير رغم مرور الكثيرين عليها، وهــذا الــتزاحم الإنســاني لا يفقد القهوة صلتها بأناسها الحقيقيين الذين يرون فيها عنصراً يبعث على الراحة والاطمئنان.

إنّ المقهــى العراقــي ليس دائماً عنصراً فاعلاً في مسيرة الحياة الاجتماعيّة، وهــذا ما أكده النص الروائي صراحةً من خلال رصده لنماذج مكانية، يبدو المقهى فــيها عنصراً مهجوراً يبعث على التقزز والنفور، وهنا يبدو التواصل الإنساني مع المكــان علــى حالــة مــن التصادم، وما يشي بهذه العلاقة الحالة التي تبدو عليها محتويات المقهى(402).

غالباً ما كانت الدولة تستغل الأماكن المُغْلَقة خاصة في توجيه آرائها لشرائح المجتمع، وهذا الأمر يبدو جلياً من خلال نقل الراوي لحادثة مقتل "بدري العلو"، فقد أُشيعَ بين رواد قهوة الشط أن التخلص من سيد عليوي كان أحد أسباب هذه الحادثة(403). ويــتماهى المقهــى علواً في قيمته الاجتماعيّة لدى العراقيين حتى في لحظات التشــبث بالحياة، فالفيضان المائي بكل ما يحمله من طمس للهوية لم يستطع أن يثني العراقييــن عن قيمة المقهى الأمر الذي دعاهم إلى إحاطته بكل وسائل الأمن المادية حــتى يــبقى مكانهم الآمن الذي من خلاله يعبرون عن أحاسيسهم ومشاعرهم(404). وغالباً ما تخضع المقاهي لمقاييس التفاوت الطبقي في منظور بعض الأفراد، فتكتسي

مسمياتها بحوادث تاريخية تكسبها سمعة واسعة، وهذا التحول التاريخي يعكس على مقتنيات المقهى المادية تغيراً واضحاً(405).

ترسم القهوة العراقية بمفرداتها الإنسانية والمكانية نموذجاً وطنياً، يعكس توحد القوى التي مزقتها في الأمس مشاحنات يومية، إذ تظهر جميعها في بوتقة إنسانية واحدة هدفها: حفظ العراق، أرضاً، وإنساناً من سطوة المحتل، ويبرز هذا الدور المجتمعي المتكافل من خلال توحد رواد القهوة مع الجند المحليين في مواجهة المحتل عن طريق تلبية كل ما تحتاجه القوى الوطنية من سبلٍ تتيح لهم النصر والثبات (406).

ب. بيوت الليل:

تشكل "المباغي" أو ما اصطلح الكثيرون على تسميتها ببيوت الترفيه والتسلية حضوراً بارزاً في الفن الروائي، إذ تبدو ركناً أساسياً من متطلبات تفاصيل المدينة، وإن اقتصر ارتيادها على فئات وطبقاتٍ اجتماعية محدودة، وقد تجلى هذا الجانب المكاني في مجتمع منيف الروائي واضحاً، فقد شكلت هذه الأماكن مساحات واسعة في "أرض السواد"، ولا سيما في مسائل الحراك السياسي؛ نظراً لكثرة رجال الدولة وصناع القرار الذين يرتادونها.

تبدو بيوت الترفيه لدى منيف أماكن مزدحمة بالزوار، يقصدها أناس من مذاهب وأجناس شتى، لكن الجامع الإنساني في هذا المكان هو تحقيق الرغبة بقطع دون التفات لطبيعة المكان، وآثاره السيكولوجية على النفس الإنسانية، وعلى الرغم من المتعة المبتغاة، فإنّ هذا المكان يبدو سلبياً إلى حدٍ كبير، فنراه يبعث على الضيق والخوف والتوجس، فضلاً عن ارتباطه بمواقف إنسانية كبيرة تشكل جزءاً من تجارب الشخصيات المتراكمة(407) ، ورغم عمومية هذا المكان فإنّه لا يخلو من بعض الروابط الإنسانية التي تحكم علاقة الأفراد القاطنين فيه، رغم مشاعر الخوف والقلق التي يثيرها هذا المكان في نفوس أصحابه من حين لآخر (408). وهذه البيوت وإن كانت في نظر روادها مساحة زمنية لتلبية متطلبات الشهوة، والتخلص من ثقل الحياة، إلا أنها تبدو مجالاً يثير الخوف والتساؤل فَتُظهر من حين لآخر وبشكل جلي العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة، وحاجة كل منهما للآخر (409).

ج . السجون :

تشـــغل الســـجون مساحات كبرى في روايات منيف، إذ تشكل نمطاً من اللعنة والســـواد فهي تلاحق أبطاله في كلِّ الأزمنة، ففيها تبرز معاناة المثقف الذي يئن من ســـوط الجـــلاد، وكذلك رجل الدولة الذي أخرجته مطامع السلطة عن طريق النظام السياســـي، والســـجن الذي يَخْنقُ الحرية ويقيد الحراك الإنساني ظل هاجساً يطارد الأبطـــال والشخصـــيات الروائية، فهو وفق رواية أحد الدارسين "لعنة أبدية تطارد الـــبطل السياســـي أينما توجه، ومهما تنازل وخسر روحه وتوازنه فإنهم لا يتركونه لحاله، بل ويأسرون روحه إلى الأبد"(410).

يـــبدو التعذيـــب الجســـدي مـــن أبرز الأدوات المستخدمة في صراع الإنسان الشرقي مع السلطة، فقد أيقنت النظم السياسية أن الجسد هو مصدر ضعف الإنسان، وعـــن طريقه يتم التوصل إلى الحقائق، وفي هذا المكان السوداوي الذي تختنق فيه الحـــرية، تتصـــهر الكرامة الإنسانية وتتلاشى، فلم يقف التعذيب الجسدي عند حدود التشويه والتغيير في الصورة الإنسانية، بل أكد منيف على لسان شخوصه أن الكلمة الإنســـانية تحـــدث أثراً في سبيل التوصل للحقائق، فهي أشبه بالرصاصة تهبط على متلقيها دونِ صوت، ولكنها تحدث أثراً نفسياً بالغ الأهمية (411).

يـــبدو أن تجلـــيات السجن العراقي ومعالمه المكانية غائبة في النص الروائي، انطلاقـــاً مـــن الفترة التاريخية التي يرصدها العمل الروائي، بيد أن سلوك السجان وأنماطـــه التعذيبـــية تبدو جلية؛ إذ يفصح النص أحياناً عن أدوات التعذيب والقهر، وشعور السجان بالساديّة، ويشي في الوقت نفسه بالآثار النفسية التي يتركها التعذيب مـــن امـــتهان لكرامة الإنسان وتحطيمٍ لإرادته، وتدمير لنفسيته، وأحياناً يبدو السجن مصـــدراً ثـــراً لتصـــفية النزاعات والخصومات بين الأفراد بل يصبح في كثير من الأحـــيان ضرباً من الأمنية التي يتمنى من خلالها السجان أن يرى خصمه في حالة متدنـــية من الضعف وامتهان الكرامة الإنسانية عن طريق ممارسات لا أخلاقية تجاه السجين (412) .

تخـــتلف البـــنى المكانـــية لمفـــردة الســـجن الإنساني؛ تبعاً لطبيعة الأشخاص المســـتقدمين إلـــيه، وبما يتناسب مع حجم الخطأ المرتكب في حق السلطة السياسية،

وقـــد جـــاء السجن وسيلة لقمع المتمردين والمتعاونين مع المستعمر، ولا يقف الأمر عـــند حدود ذلك بل نرى مفردة السجن تعد أداة طيعة يوظفها الحاكم في ترهيب كل مـــن يحـــاول الثورة على نظام حكمه وممارسات أفراده عن طريق سوق عدد من الضـــحايا والذيـــن هـــم فـــي نظره، أمثلة فردية يقصد من ورائها إرهاب المجموع الإنساني (413) . ولعلّ الدارس لمجتمع "أرض السواد" الروائي يلحظ بعين المدقق أن الســـجن لا يحـــتل مكاناً مستقلاً بتفاصيله وزواياه بل نجده في كثير من الأحيان بناءً ملحقـــاً بالقصـــور والمبانـــي العامة، وقد يرد هذا التنوع تبعاً لموقع السجين، ومدى خطـــئه المرتكب ولعلّ في تغير صورة السجن ما يشي بنمطٍ من الخديعة التي يقصد من ورائها النظام السياسي استقدام أعدائه، حتى يتم الاقتصاص منهم(414). إنّ السجن بكـــل مفرداته شكل في مرحلة من مراحل الرواية شريطاً من الهواجس والذكريات لـــدى بعض الأفراد الذين كانت السلطة يوماً ما بأيديهم، وسرعان ما تبدلت الأحوال فأصبح الحاكم فيه محكوماً(415).

د. السراي :

مـــن المبانـــي الرئيسية التي شكلت بعداً مهماً في أنماط مجتمع "أرض السواد" القصـــور؛ إذ ينظر إلى هذه البقعة المكانية بهاجس من الخوف والاضطراب من قبل طـــبقات المجـــتمع، وقـــد تبايـــن هـــذا المكان في ظهوره؛ تبعاً للأنماط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة، وإن ظلت عوامل الحذر والارتياب تسود أطرافه من حيـــن لآخـــر، لقـــد خضـــع السراي لجانب من الصراعات التي يديرها أفراده مع المســـتعمر، وكان لهذه الصراعات آثار بارزة على طبيعة المكان، فعنصر الصراع مـــع المحـــتل لا يقـــف عـــند خدود ما تبناه الأفراد من سياسات عامة تجاه بعضهم البعض، بل انتقل الصراع إلى المباني العامة التي تمثل سلطة الدولة وهيبتها، فعندما تعـــج السراي بالوفود والزوار، نلمح أن السلطة السياسية في حالة من النشاط الذي يهدف إلى الديمومة والتطور، ولعلّ في هذا الحراك السياسي نمطاً من الصراع الذي لا يكتفي الإنسان العراقي بدفع ثمنه، بل تسهم الأرض بأمكنتها وتفاصيلها المادية في مواجهـــة ذلـــك (416). وقد ارتبطت تفاصيل السراي ببعض الدلالات، ولا غرابة أن نرى الشرفة التي اعتمد عليها "داود باشا" في إلقاء خطبه وأمانيه تشكل هاجساً نفسياً

يبعث على الثقة، ويسهل المستحيل أملاً في الوصول إلى مشروع نهضوي يخدم العراق أرضاً وإنساناً (417) . وأحياناً يعكس بناء هذه الأنماط المكانية حالة من القوة والتجدد، خاصة في نفوس أفراد السلطة المحلية الذين يحاولون من خلالها مواجهة المستعمر لا بالقوة فحسب، وإنما بمقدار التطور والنماء الحضاري، وهذا ما يلمس صراحة من خلال الرسالة المتوخاة من تطوير المكان والتي أكدها "داود باشا" صراحة بقوله :- " سيرى هذا الثعلب بعينيه من هو داود باشا" (418).

هـ . القنصلية :

تشكل هذه المفردة المكانية جانباً مهماً في حياة العراقيين؛ وفقاً لما ترصده الفترة الزمنية التي يتناولها منيف روائياً، وهذه الأهمية نابعة من حجم ما يحمله العراقيون من مشاعر وأحاسيس مليئة بالحقد والضغينة تجاه هذا المكان؛ نظراً لما شكله من عامل فرقة وتمزيق لنسيج المجتمع العراقي، ولا يظهر هذا الأثر من قبل المبنى بل من قبل الأشخاص القائمين عليه والذين يعطونه مساحة كبرى من الحضور والعمق في نفوس أفراد المجتمع، فقد ظهر في كثير من الأحيان عاملاً للأمن والطمأنينة في نفوس الثائرين على السلطة المحلية، وتعدى ذلك الدور ليصبح مصدراً للقرار السياسي الذي يتحكم بمصير الطبقة الحاكمة والمجتمع المحلي (419).

يبقى واقع الظروف السياسية يلقي بظلاله على تداعيات المكان الجغرافي، فضياع كلمة الاستعمار الفرنسي، واختفاء نشاطه في المجتمع الروائي يبدو واضحاً على مكان حكمه الذي يصدر منه القرارات، فالتحول في ميزان القوى السياسية يضع المكان في ذاكرة النسيان بعيداً عن حراك المجتمع الإنساني وأوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية (420).

و. القلعة :

شكلت القلعة بأبعادها التاريخية جانباً متميزاً في مجتمع "أرض السواد" ، وهذه الأهمية تنبع من مدى تطور الواقع السياسي، فهي مركز الجيش الذي يشكل قوة في تغيير الحكام والأنظمة السياسية، وتعكس القلعة حالة من الخوف في نفوس مرتاديها، نظراً لما تشكله من هواجس وآلام ارتبطت تفاصيلها بتضاريس هذا المكان فظهرت عند بعضهم وجهاً سلبياً يمثل الحبيبة المفقودة التي استبيحت؛ فقد ظهرت في كوامن

شخصـــية الإنســـان من خلال وصف السارد كلي العلم عنصراً يبعث على الخوف، ويذكر بالموت (421).

ز. البيوت :

يعد البيت أحد التفاصيل الأساسية في بناء المجتمع الإنساني ولا سيما الروائي فهــو المــلاذ الآمــن الذي تنطلق من خلاله الشخصية؛ لممارسة دورها المجتمعي، والبيــت كمــا يــرى أحــد الدارسين: "هو واحد من أهم العوامل التي تدمج أفكار وذكــريات الإنســانية . ومــبدأ هــذا الدمج وأساسه أحلام اليقظة، ويمنح الماضي والحاضــر والمســتقبل، البيت ديناميات مختلفة، كثيراً ما تتداخل أو تتعارض، وفي أحــيان تنشــط بعضــها بعضاً، في حياة الإنسان ينحى البيت عوامل مفاجئة ويخلق استمرارية، ولهذا فبدون البيت يصبح الإنسان كائناً مفتتاً" (422).

لقد مثّل البيت بداية الانطلاقة في حياة الإنسان، إذ إنَّ تحضير البيت والاهتمام بتأمين متطلباته، يشكل انتقال الفرد إلى نمط من الاستقلالية والاستقرار، وهذا الأمر شــكل دافعاً رئيسياً في حياة الإنسان العراقي لم تغيره ظروف الغربة عن القيام بهذا الــدور الرئيسي، انطلاقاً من أن البيت في نظره هو مبعث الأحلام الكثيرة التي تملأ مخيلــته (423). ولم يقف دور البيت في مجتمع "أرض السواد" عند كونه عاملاً لألفة الأفــراد، واستقرارهم بل انثنى عن هذا الدور، إذ شكل في كثير من الأحيان ملمحاً اقتصــادياً، فغالــباً مــا تخرج البيوت عن إطارها المجتمعي لتعكس حالة من التأزم الاقتصادي ، فنقل البضائع إلى البيوت بطريقةٍ حذرة وتحت جنح الظلام يشي، بعدم مشــروعية هــذه البضــائع على وفق ما يرى السارد، ويخرج البيت هنا عن دوره الأساسي فيصبح دافعاً لسياسة الاحتكار وإيجاد الطبقية في المجتمع(424).

ويمــثل البيت لدى الفرد جانباً من العزلة والغربة تجاه المجتمع المحيط، أملا في عدم مواجهة مشاكل العالم الخارجي، ولعلّ في التصاق الإنسان بالبيت وملازمته له ما يشي بالثورة، والعجز عن استيعاب متطلبات العصر المتجددة(425).

إن البيت العراقي متعدد الدلالات، فهو لا يقف عند حدود كونه ديكوراً هندسياً يلبــي متطلبات النص الروائي، فقد أشار البيت إلى حياة البذخ والرفاه، فالناظر في الســراي أو بيوت المتنفذين، والداخل في أروقتها يستطيع أن يسجل دون عناء مدى

الغـنى الفـاحش الـذي تتمتع به طبقة قليلة دون غيرها في المجتمع الروائي، وهذا الغـنى قـد يأتي موروثاً أو عن طريق الجهد الفردي الخالص من خلال التجارة أو الـزراعة، وقـد يأتي من خلال المتاجرة بالأعراض والسرقة(426). ومهما يكن فإنّ البيـت عـند منيف لم يقف عند حدود الإطار الخارجي، وإنما هو أيضاً دال وصفي مطعم بالمدلولات النفسية، ومستند وصفي لمنظومة القيم والعادات والتقاليد –والأمثلة علـى ذلك كثيرة– وحسب القارئ الدخول في السرايا ومقارنتها ببيوت العامة، حيث ينتقل فجأة من قمة الرفاه والغنى إلى القاع حيث الجوع والموت!!.

الفصل الخامس

الرؤية السردية في "أرض السواد"

1.5 مَدْخل :

يمكن القول إن مصطلح "وجهة النظر" من أبرز القضايا الفنية التي برزت في مجـال النقد الروائي؛ إذ لا يكاد كتاب يخلو من الإشارة إلى هذا المصطلح السردي المهـم الذي يحمل دلالات متعددة، فتعبير "وجهة النظر" أو ما اصطلح البعض على تسـميته بـــ "Point Of View" متعدد الدلالة، إذ يعني فلسفة الروائي، أو موقفه الاجتماعـي أو السياسي أو قد يكون بمثابة "العلاقة بين المؤلف والراوي وموضوع الـرواية"(427). وقـد بقـي مصـطلح "وجهة النظر" من المصطلحات الشائكة لدى الدارسـين إذ يـرى "فيليـب ستيفيك" أنّ هذا المصطلح بحرفيّته لا يبدو موفقاً، ففي الوقـت الـذي يشير فيه إلى الاتجاه العقلي لعمل ما أو إلى موقف المؤلف الوجداني الـذي يتضح من النغمة "Tone" المتبناة نحو الموضوع الذي يعالجه أو إلى الزاوية التـي يروى منها العمل القصصي إذ يظل المعنى الأخير ثابتاً رغم ما تم استحداثه مـن مصطلحات بديلة كـ "بؤرة السرد" مثلاً، ويخلص ستيفيك إلى أن وجهة النظر ما هي إلا "نقطة التجمع" للحركات المختلفة في المجتمع الروائي(428).

لقـد شـكلت وجهـة النظر أو الرؤية السردية ميداناً خصباً للدارسين،ولعلّ الدواعـي لذلـك مـتعددة إلا أن أبـرزها: ارتباط هذا المصطلح بأحد أهم مكونات الخطـاب السردي، وهو الراوي وعلاقته بالعمل السردي بوجه عام؛ انطلاقاً من أن الحكـي يسـتقطب عنصرين أساسيين بدونهما لا يمكننا التحدث، وهما القائم بالحكي ومتلقـيه "الـراوي والمروي له"، وتتم العلاقة بينهما حول ما يروي "القصة" وهذان العنصران الخطابيان هما الأساس الذي ينطلق منه الباحثون في مجال نظرية السرد (429). ولا يمكـن بـأي حال من الأحوال إغفال الدور الذي يلعبه السرد في الرواية والـذي لا يقف عند حدود الترتيب التصاعدي للأحداث وفق انسجامها مع الواقع بل يتعدى ذلك إلى وظيفةٍ أخرى تكمن في ترتيب هذه الأحداث بطريقةٍ تتوخى الجمال، الأمر الذي دفع النقاد إلى التمييز بين الحكاية أو القصة المتخيلة أو التخيل والخطاب وبين عملية سردها والتي أطلق عليها بعض النقاد مصطلح المبنى الحكائي في مقابل

المتـــن الحكائي الذي يعني مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها، التي يقع إخبارنا بها أثـــناء العمـــل، الذي يمكن أن يعرض بطريقة عملية حسب النظام الطبيعي، بمعنى الـــنظام الوقتـــي والســـببي للأحـــداث، وباستقلال عن الطريقة التي نظمت بها تلك الأحداث أو أدخلت في العمل (430).

يقـــوم المبـــنى الحكائي على تقديم الأحداث وفق ظهورها في العمل الأدبي، وهـــذا الـــدور ينســـجم مع ما ذهب إليه "فورستر" الذي يرى أن الجمال في الرواية يرتـــبط بالحبكة، ويؤكد على ذلك بثلاث جمل يوردها للحكاية والحبكة، فقولنا "مات الملـــك، ثم ماتت الملكة بعد ذلك" هو مجموعة من الأحداث مرتبه ترتيباً زمنياً، أما قولـــنا:- "مات الملك وبعدئذٍ ماتت الملكة حزناً عليه" فهو حبكة يقع التأكيد فيها على الأســـباب والنـــتائج مع الاحتفاظ بالترتيب الزمني للحكاية، ويضيف "فورستر" جملة ثالـــثة هـــي "ماتت الملكة ولم يعرف أحد سبباً لموتها، حتى أكتشف أنها ماتت حزناً علـــى وفاة الملك". وهذه الجملة في نظره هي حبكة وبها سر غامض يمكن أن يلغي الترتيب الزمني، ويبتعد عن الحكاية(431).

تعـــددت المســـميات التـــي أطلقت على الأسلوب السردي، وكان اختيار هذه المســـميات نابعـــاً من مفاهيم الباحث ودلالاته الخاصة، ومن المسميات التي عرف بهـــا:- وجهـــة الـــنظر-الـــرؤية- الـــبؤرة-حصر المجال-المنظور-التبئير، ولعلّ مصـــطلحي وجهة النظر والرؤية السردية هما الأكثر شيوعاً في الكتابات الأنجلو-أمريكـــية التي تركز في معظمها- رغم بعض الفروقات البسيطة على الراوي الذي من خلاله تتحدد" رؤيته إلى العالم الذي يرويه بأشخاصه وأحداثه، وعلى الكيفية التي من خلاله يبدو في علاقته بالمروي" (432). ويعرف "بوث" زاوية الرؤية بقوله: "إننا مـــتفقون جميعاً على أن زاوية الرؤية، هي بمعنى من المعاني، مسألة تقنية ووسيلة مـــن الوسائل لبلوغ غايات طموحة" (433). غير أن هناك تداخلا بين مصطلح زاوية الـــنظر ومصـــطلح الموقع إذ إنّ كليهما يشير إلى علاقة ما بين الراوي والمروي ، لكـــن وجـــود مثل هذا التداخل لا يعني بالضرورة أن المصطلحين يعادلان مفهوما واحـــداً(434). ويمكـــن القـــول إنّ اســـتعمال مصطلح "زاوية النظر" يندرج في نظام مفهومي نقدي يميل إلى التعامل مع النص الأدبي كبنية قائمة بذاتها لا مرجعية لها ،

ومـــن هذا المنطلق ينظر أصحاب هذا النظام إلى الراوي فقط كعنصر تقني معزول عـــن الروائي الكاتب، وبذلك يتحدد المرئي لا كتعبير أدبي حامل لفكر أو أيديولوجية معينة، بل كمرئي يتمثل في المساحة والمجال الفضائي الذي يقع عليه النظر (435).

تقـوم آلـية السـرد وفق رأي "توماشفسكي" على نمطين من السرد : سرد موضـوعي ، وسرد ذاتي . والسرد الموضوعي يفضي إلى أن يكون الكاتب مطلعاً علـى كل شيء، حتى الأفكار السردية للأبطال، أما السرد الذاتي فأننا نتتبع الحكي مـن خـلال عيني الراوي أو طرف مستمع متوفرين على تفسير لكل خبر ، ويكون "توماشفسكي" قد سبق غيره إلى تحديد زاوية رؤية الراوي على أسلوب السرد الذي يختاره لروايته (436). وقد أدى التغير الذي طرأ على طبيعة الراوي إلى تطور في صـياغة القصة الأمر الذي أدى إلى ظهور مسألة "اختفاء الراوي" انطلاقاً من منهج جمالـي نادى به "فلوبير" وقد أدى ذلك إلى ظهور بواكير التقنيات التي قامت عليها الـرواية مـن تحديـد المـنظور القصصي، وابتكار صيغ أسلوبية عرفت فيما بعد بالأسلوب غير المباشر الحرّ (437). ويعيب "هنري جيمس" على الراوي لعبة محرك الدمـى فـي الـرواية؛ داعياً إلى ضرورة مسرحة الحدث وعرضه لا قوله وسرده وضرورة أن تحكي القصة ذاتها لا أن يحكيها المؤلف، ولم يقف الأمر عند "جيمس" بـل جـاء بعده "لوبوك" الذي أخذ يميز بين العرض والسرد مؤكداً أنه في العرض يـتحقق حكي القصة نفسها بنفسها، وأن في السرد راوياً عالماً بكل شيء، ولا يقف "لوبـوك" عـند حـدود الوصـف بل يتجاوزه إلى الحكم من المنظور الذي مارسه "جـيمس" عـن طريق الانحياز إلى جانب الراوي "الممسرح" بالضمير الغائب، فإنّ القـارئ فـي هذه الحال يجد نفسه واقعاً داخل القصة ونرى هذه الأحداث من خلال هذا الذهن، وفي الوقت ذاته تجري الأحداث وتبرز أهمية هذا الشكل حسب "لوبوك" فـي أن كل شيء يبدو ممسرحاً سواء كان ذلك على مستوى الحدث أو الشخصية أو ذهـنها، ويكتسـب سمة الموضوعية على عكس ما هو بارز في التقديم البانورامي (438).

لقد قسم "جان بويون" الرؤى إلى ثلاثة أنواع، هي:

أ. الـــرؤية من الخلف : وتتميز الشخصية فيها بأنها لا تخفي شيئاً عن الراوي، فهو يعرفها معرفة تامة ويخترق جمجمتها، ويتنبأ بأفكارها.

ب. الـــرؤية مع :- ويطلق عليها أحياناً الرؤية المجاورة وتتميز هذه الرؤية بأن معرفة الراوي فيها تكون مساوية لمعرفة الشخصيات.

ج. الـــرؤية مـــن الخــــارج :- وتقتصــــر معــــرفة الـــراوي هنا بوصف أفعال الشخصيات، ولكنه في الوقت نفسه يجهل أفكارها ومعتقداتها (439).

والـــرؤية مـــا هـــي إلا تعبير عن الطريقة التي اعتبر بها الراوي الأحداث عند تقديمهـــا، ومصـــطلح الرؤية والراوي متداخلان لا ينفصلان إذ إنّ كلاً منهما يدعم الآخر، فلا رؤية بدون راوٍ، ولا راوٍ بدون رؤية(440). وتتصل مسألة الرؤية السردية بقضـــية صـــياغة التعبير إذ يميز "جيرار جنيت" بين الرؤية والصوت، فبينما تتعلق الرؤية بالعين وبالنفس اللتين تخبران العالم التخييلي، فإنّ الصوت هو الصياغة على المستوى التعبيري اللغوي. فقد يرى الراوي بعين الشخصية ولكنه يقوم بعملية القص ونقـــل المادة القصصية فينشأ القص الذاتي(441). ولا بد من الإشارة إلى أن قضية الصوت قديمة في الأدب، إذ استخدمت من قبل "أفلاطون"؛ وذلك للتفريق بين القص والمحاكاة والقص لديه إما أن يكون قصاً صرفاً أو محاكاة أو مزيجا من الأسلوبين، والقـــص الصرف يفرض على القاص أو الشاعر التحدث بصوته ولا يحاول إخفاء نفســـه، أمـــا المحاكـــاة فـــإنّ القاص يكون بمثابة المقلد للشخصية المتناولة، وهذان الجانـــبان "الســـرد والمحاكـــاة" متعلقان بمسألة السرد والحوار، لذا فإنّ الشعر قص صـــرف والمســـرحية محاكـــاة صرفة، والملحمة مزيج بين الأسلوبين، ويقابل هذه التقسيمة على المستوى اللغوي أسلوب مباشر وأسلوب غير مباشر، وأساليب القص لم تقف عند حدود معينة إذ صاحبت ظهور المنظور "مع" أشكال جديدة في التراكيب اللغويـــة والأســـلوبية على المستوى التعبيري جعلت صوت الراوي يخفت، وصوت الشخصية يرتفع(442).

إنّ قضـــية تعـــدد الرؤى في جانب "وجهة النظر" دفعت بالضرورة إلى تعدد الـــرواة، فظهرت أشكال مختلفة منهم حسب معرفتهم واتصالهم بالعمل الروائي وفي هذا الجانب يميز "تودوروف" بين ثلاثة رواة وهم:

أولاً: الـــراوي أكـــبر الشخصية الحكائية، وهنا يكون الراوي عارفاً أكثر مما تعرفه الشخصـــية الحكائية، إذ يستطيع الوصول إلى كل المشاهد عبر جدران المنازل، كما يـــدرك كل ما يدور في خلد الأبطال، وتتجلى سلطة الراوي هنا في أنه يستطيع أن يدرك رغبات الأبطال الخفية تلك التي ليس لهم بها وعيٌ هم أنفسهم (443). ويرفض "فـــريدمان" تســـمية "الراوي كلي العلم" بسبب محدودية معرفة أو وجود هذا الراوي ويصـــطلح عليه بـــ"الراوية المتنوع" ويحدد خصائصه بأنه لا يقيم في كل مكان في وقـــت واحد، بل يكون مرة هنا ومرة هناك، لذا فهو مقيد بالزمان والمكان وهو وفق نظـــرة "فـــريدمان" غـــير شـــديد الـــتعمق إلا أنه متعدد المهارات، خفيفاً في نقلاته المجازيـــة، لأن تحـــوله المسرحي جزئي، وهو يستدعى مثلما يستدعى لاعب الدمى النشيط (444).

ثانياً: الراوي يساوي الشخصية الروائية:

وفـــي هـــذا الـــنمط يـــبرز الـــراوي انطباعاته ووجهة نظره على الأحداث والشخصيات، ويستعين الراوي هنا بضمير المتكلم "أنا" عند عرضه لعالمه الروائي، ويـــنطلق الراوي المشارك من منظور السرد الذاتي على عكس ما نراه في الراوي الكلـــي العلـــيم الذي يعتمد على السرد الموضوعي، وهذان الأسلوبان يتنازعان فن الـــرواية، وعنهما تفككت الأساليب الأخرى من خلال الاختزال والمزاوجة والمثاقفة بيـــن الأســـلوبين (445).والراوي في هذا المجال يبدو مقيداً بحركات الشخصية إذ لا يمدنـــا بتفســـير للأحـــداث قبل أن تصل إليها الشخصيات وقد يتبع السارد ويتعقب شخصـــية واحدة أو شخصيات كثيرة وقد يتعلق الأمر بسرد واعٍ من طرف شخصية روائية (446).

ثالثاً: السارد أصغر الشخصية الروائية:

وهـــنا تكون شخصية الراوي حاضرة، لكنها لا تميل إلى التدخل في مفاصل أحـــداث العمل الروائي، وإن تجاوزت دورها ذلك إلى نقل الأحداث، فإنّ هذا النقل

يبدو مرهونا بواسطة، وهذه الواسطة تنفي الحضور إلا أنها في الوقت نفسه لا تسقط المســافة بيــن الراوي والأحداث(447). وهذا الأمر يبدو من وجهة نظر "تودوروف" نمطاً من المواضعة؛ ذلك لأن سرداً ينحصر في مثل هذا الوصف الحسي/ الخارجي الســمع والرؤية- غير معقول إلا أنه موجود كنمط من أنماط الكتابة، إذ إنّ السارد بمثابة الشاهد لا يعرف شيء، ويرفض معرفة أي شيء (448).

يمكــن القول إنّ الراوي ما هو إلا جملة من الشروط الأدائية التي تمكن من يــروي بــأن يروي كما ولو كانت في إطار الحدث وتفصيلاته، ولهذا يظل الراوي الظل الفني للكاتب، إذ لا يعدو كونه شخصية يمرر من خلالها أدواته السردية كاشفاً بذلــك أســاليبه ووســائله الإبداعــية التي تميزه عن غيره من الروائيين(449). وفي التوظــيف الدقيق في آلية عمل الراوي تقوم المسافة الفنية اللازمة لاستقلالية العمل، واستقلالية الشخصيات وهذا يكمن في قدرة الكاتب على إبداع شخصيات حية قادرة على النطق بصوتها لا بصوت الكاتب، وغير خاضعة لسلطة الكاتب ولا واقعة تحت سطوته(450).

إنّ دراســة الرؤية داخل إطار النص الروائي تشكل بعداً أساسياً في بنية هذا النص؛ وذلك انطلاقاً من كونها المظهر اللفظي الأول والتي تنهض بمهمة تنظيم بنية العــالم الفني للرواية والذي يمدها بقوة دلالية خاصة في ميدان الحدث والشخصية؛ انطلاقاً من أن ترتيب الحدث يشكل إحدى التمفصلات الأساسيّة التي تواجه الروائي، فمشــكلة بناء الحدث تكمن في ترتيب الوقائع التي تشكل مهمة الحدث، ترتيباً متتالياً أو متناوباً أو متداخلاً وفي عرضه يكون خاضعاً لتسلسل زمني صاعد، أو متقطع أو متراجع، ويبقى الحدث آخذاً في الاعتبار الحلقات الأساسيّة التي تضبط نظامه، وهي التوازن وانعدام التوازن والتوازن الجديد (451).

2.5 الراوي في "أرض السواد":

إنّ الراوي المهيمن في "أرض السواد" هو المؤلف الضمني، أو ما أطلق عليه دارســو الرواية بــ "الراوي كلي العلم"، وهذا الراوي يبدو لدى الباحثين بأنه "يمتلك قــدرة غــير محــددة يَكْشــف الأبعاد الداخلية والخارجية للشخصيات، وهو حسب

"توماشفسكي"له القابلية على كشف الأفكار السردية للأبطال،وعرف هذا النمط من الرواة في الملاحم ؛ لأن الراوي في الملحمة يعد وسيطاً بين شخصياتها والقارئ " (452) بيد أن هذا الراوي لا يمتلك حضوراً فيزيائياً، ولا يمكن بأي حال من الأحوال تكوين صورة ماديّة له، وهذا الراوي يعرف ما يعرفه المؤلف انطلاقاً من قدراته الكبيرة على التحليل والاستنتاج(453). وقد أطلق البعض على هذا النمط من الرؤية تسمية "الرؤية المجاوزة" واصفاً معلومات الراوي عن شخصياته فيها بأنها تندرج ضمن مراتب عديدة، وذلك وفق ما يتوائم مع مساحة الحقائق التي يعرفها الراوي ويجهلها أبطاله، ابتداءً من رغباتهم الشعورية الدفينة إلى أقدارهم المحتومة، وما يدور في خلد كل منهم عن نفسه وعن الآخرين (454). وهذا النمط متأصل في الرواية حتى فيما يسميه البعض الروايات الدرامية، إذ سرعان ما تتخلق عبر النص لوحة ضمنية لمؤلف يظل خلف المسرح، كمدير له وموجه لحركته، وهذا المؤلف الضمني يختلف عن الرجل الحقيقي أو الواقعي، إذ يخلق نسخة أسمى لنفسه "أنا ثانية" تنمو بقدر ما تنمو الرواية (455). والضمير المستخدم في هذا النمط من الرؤية يتمثل في الضمير "هو" والذي يحيلنا إلى زمن سابق لزمن الكتابة، وبالتالي يفضي إلى خدعة سردية تجعل المتلقي في وضع تصديقي، ويقدم ضمير الغائب فصلاً بين النص وناصه وبالتالي يقع القارئ تحت وطأة اللعبة الفنية الإيهامية (456). وتجدر الإشارة هنا إلى أنني ترسّمْت خطا الدكتور محمد الشوابكة في تحليله لرواية النهايات وأخذت من دراسته .

لقد اعتمد منيف في نقله لمجتمع "أرض السواد" على الرؤية الموضوعية وهذا التوجه لم يمنعه من تقديم بعض أصوات الآخرين بين الفينة والأخرى عن طريق الحوارات التي كانت تجري في أماكن محددة، تشغل المقاهي والأسواق والمؤسسات الرسمية الجانب الأكبر منها، والراوي في "أرض السواد" يصف الإنسان العراقي وينقل سلوكياته في أوقات الفرح والحزن، ويسهب في الحديث عن جغرافية الأرض وتقلبات المناخ وانعكاسات ذلك على سلوك الإنسان وردود أفعاله، ولا يقف الأمر عند هذا التوجه بل نجده يسهب في الحديث عن العادات والتقاليد والقيم التي تسود المجتمع، وهذا ما يجعلنا نقف أمام جداريّه اجتماعية تصف

المجـــتمع العراقي بأدق مكوناته، والقارئ لمجتمع "أرض السواد" يجد نفسه أمام راوٍ قادرٍ على الرصد والتأويل وتتبع تحركات الشخصية بكل تفصيلاتها وهكذا فإننا أمام راوٍ واعٍ لمجـريات الـتاريخ السياســي الذي مرت به "أرض السواد" ينقل أحوال المجـــتمع السياســية والاقتصـــادية والاجتماعية أيام "سعيد باشا" وما طرأ عليها من تغيــير فــي عهــد "داود باشا"، فهذا الراوي استطاع تتبع مسيرات المجتمع المؤيدة لسياسة الحكام، واستطاع أن يدخل إلى أعماق القصور مصوراً صراع الأفراد على الحكـم ومكـائد النســاء، كما رافق الجنود في حملات الشمال والجنوب مصورا أحوالهـم والأخطـار التي يمرون بها، وراصدا كذلك برؤية موضوعية طبائع البدو ومكـائدهم فــي إعاقــة الدولــة العراقية، ومثلما كان هذا الحضور باديا في مواقع الاضــطراب والقلق، بدا جلياً في مواقع الاستقرار والرخاء، فقد دخل إلى القصور مصــورا الحفلات الرسمية واصفا زوايا المكان، وطبيعة الأطعمة المقدمة وفي هذا الوقت لا يَغْفَل عن نقل النماذج التراثية المتمثلة بالموسيقى والغناء العراقي المتنوع، وإذا كان الراوي موفقا في نقل منظومة الحراك على المستوى الجماعي، فانّ هذا لا يعنــي قصوره أمام نقل الحراك الفردي الذي ساد واقع الفرد دون الجماعة؛ لذا فقد صور لنا الفرد في جميع أحواله كأنه ظله اللصيق الذي لا يفارقه للحظة ، فقد رافق الــراوي "زينب كوشان" أثناء رحلتها النهرية إلى السراي في محاولة الحصول على حقها في الأرض التي فقدت ملكيتها ، ورافق "الآغا" في رحلته إلى الشمال، وما ساد حــياته مــن ألــم وأنـــات جراء البعد، ورافق " جيمس ريتش" في حركة الكشوف الجغرافــية ، فدخــل الموصــل والسليمانية ورأى الآثار والكهوف، ودخل الكنائس ووصـــف لوحـــة "الثور المجنح" وغيرها من الشواهد الأثرية التي تدل على تعاقب حضــارات كــبرى ســـادت أرض العراق، ودخل بيت "روجينا" واصفا ما ساد هذا المكـــان من علاقات إباحية ومؤامرات سياسية، ورافق كذلك الأفراد داخل سجونهم راصدا ما ينتابهم من أحاسيس ومشاعر.

يرصـــد الـــراوي الكلـــي العلم في حديثه عن مجتمع " أرض السواد " طبائع الناس وسلوكياتهم ، وانعكاس هذه السلوكيات على واقعهم اليومي ، ولا يغفل في هذا

بقيمـــته، ولـــيس من منطلق الموجودات المادية التي تحيط بنفسه وتقيد حياته، وهذا الإصرار النفسي متجل في قول الراوي :

> لا شك أن الناس في صوب الكرخ أقل غنى ، لكنهم أكثر اعتزازاً بانتمائهم لهذه الجهة من المدينة ، فالأحياء التي تبدو ضيقة ويظهر عليا القيم وتوحي بالفقـــر أيضاً ، إلا أن البشر الذين يمتلكونها يمتلكون قلوباً من ذهب ، كما يقـــول الذيـــن يحبونهم ، ويتصفون بالكثير من الطيبة والبساطة، ويتميزون أيضـــاً بالصخب والأصوات العالية والمرح، إذا اعتبرت مثل هذه الصفات مـــزايا! أمـــا علاقـــاتهم مع الغرباء فإنها أقرب إلى الدفـء والمودة، لكنهم بالإضافة إلى ذلك يتصفون بالحذر، وبغير قليل من الانتباه، حتى إذا وثقوا وتأكدوا أصبح هؤلاء الغرباء جزءاً من المكان ومن ناسه(460).

يفـــيض الراوي في تأكيد تصوراته حول طبيعة الإنسان داخل المكان، فيستند فـــي ذلـــك إلـــى مرجعية من التراث والأقوال المأثورة التي تلفظ بها الأجداد، وهذا الأمـــر يبدو جلياً فيما ساقه الراوي قائلاً:- "الكرخي مثل الحجارة... تغيب عنه سنة ومية ، وترجع تلقاه بنفس المكان وبنفس الوضعية "(461) .

يتـــناول الـــراوي جانـــب الطبـــيعة فيقدم مظاهرها من طقس ومناخ ونبات وحيوان وفق آلية قائمة على التصوير الدقيق ، والوصف المفصل ، فنجد أنفسنا أمام متخصـــص يزخر بعلوم ومعارف متنوعة، و"أرض السواد" تحفل بالنماذج المتعددة التـــي تكشف عن قدرة الراوي ، وسعة إحاطته بالظواهر الكونية، والكائنات الحية، ولا سيما الطبيعة الحيوانية حيث يذكر لنا تفاصيل هذه الكائنات، وطبائعها وسلوكها، وطبـــيعة عيشـــها ونشـــاطها على مستوى البيئة، وفي هذا الصدد، يقول الراوي في حديثه عن الخيول:

> الحصـــان الذي أرسل إلى السراي بعد ثلاثة أيام من زيارة خلف، وهو من أكـــرم الخـــيول وأجملها، لم يكن من اللائق رفضه، كما جرى رفض النقود التـــي حملهـــا اثنان من زملاء بدري، لأن ذلك لو حصل، كما قال قدوري، لاعتبر الباشا الأمر إهانة وعداوة... (462).

لا يقـــف وصـــف الـــراوي عند الخيول بل تتعدى معرفته بعالم الحيوان إلى حديثه عن طيور الحجل، واستخدامها في المباريات الرياضية، وما يسودها من هياج أمام مرأى الناس، وذلك بقوله:

ورغم المشاعر المتناقضة ، وهو يرى حفلات عراك الحجل تتكرر مرة بعد أخـرى ، فقد كان حريصاً على أن يستكمل المعلومات حول طريقة القبض علـى الحجل ثم تدريبه ، قيل أنه يجب أن يتم اصطياد الحجل من العش ، وأن يـدرب مـن قـبل محترفين ، ولا بد أن يجوع يوم العراك، أما أيام الصيف فيلزم أخذه إلى الجبال...وإلا ضاعت مزايا هذه الطيور(463).

ينقل الراوي حديثه عن الطواويس إذ يصفها بقوله:

ورغم أن الطواويس الأربعة الموجودة في الباليوز تتردد أصواتها، وتسمع في منطقة واسعة من المدينة طوال النهار، فإن تلك الأصوات الحادة، والتي لا تخلو من نشاز، أثارت الكثير من الاهتمام، وكان يشفع لها جمال ريشها، وتلك الخيلاء في المشي والحركة حين تبدأ استعراضها في الحديقة الغربية، الأمـر الذي كان يدفع الكثيرين إلى الاقتراب لرويتها والتعبير عن إعجابهم الشديد...(464).

يـنقل الـراوي مشاعر الخوف التي تغلف نفوس الناس؛ جراء الطبيعة وما تحملـه مـن فعـل سـلبي، ويبدو هذا جلياً في تعليقه على المشاعر الإنسانية إزاء الفيضـان فلم تكن هذه الظاهرة إحدى منجزات الطبيعة بل شكلت عنصراً يهدد حياة الفرد والجماعات الإنسانية من حين لآخر ، وهذا ما تلفظ به الراوي صراحةً بقوله:

ومـع أن هاجس الفيضان أصبح الهاجس الأقوى خلال هذه الفترة ، خاصة للذيـن يسـكنون على الضفة اليسرى من النهر، إلا أن الخوف الكامن في القلـوب؛ والـذي يتكرر كل سنة، امتد إلى الأخرين هذه المرة وبسرعة ، وكأنـه يغلـف مشاعر أخرى كثيرة يحسها الناس دون أن يعرفوا لها سبباً واضحاً أو محدداً ...(465).

يـبرز الراوي من خلال حديثه اثر المناخ وتقلبات الطقس على الإنسان الذي يـؤدي بـه في أحيان كثيرة إلى الموت ، وهنا يرسي الراوي القانون الطبيعي الذي يحكـم الوجـود الإنسـاني علـى الأرض والذي يدعو من فترة لأخرى إلى التجدد والتـبدل؛ انسـجاماً مع القانون الإلهي الذي يحكم مسيرة المجتمعات البشرية . وفي هذا الصدد يقول الراوي :

المسنون الذين حشدوا كل قواهم من أجل مقاومة البرد، واستطاعوا، على تفاوت فيما بينهم ، أن يجـتازوا ذلك الامتحان القاسي، ما أن بدأت بوادر الدفـء، ودبت الحياة في جسد الأرض، حتى اضطربت أحوالهم، وأخذوا يترنحون، استطاع بعضهم المقاومة وواصلوا الحياة وكثيرون غيرهم حاولوا، لكن لم تسعفهم قواهم فماتوا بهدوء...(466).

يبدو أن الراوي راصد لأحوال الطقس والمناخ، عليم بتفاصيل الجغرافيا التي تهيمـــن على " أرض السواد" ، وهذا يتَّضح من وصفه الدقيق لشهور السنة مصوراً انعكاساتها النفسيّة والسلوكيّة على أفراد المجتمع الروائي: " ودخل نيسان تلك السنة ثقـــيلاً ، ببخار الماء الذي ملأ المدينة ، وبتلك الحرارة الكثيفة التي تسبب الضيق في الصدور ، وبذلك الدوي الذي لا يزال يولد الأحزان نتيجة الأيام الصعبة التي مرت "(467) . ومـــن المشـــاهد التي يقدمها الراوي من مخلفات المناخ على حياة الإنسان، خاصـــةً الشـــتاء الـــذي يظهر شعور الإنسان فيه ممزوجاً بين الراحة والخوف؛ لما يحمله من ثنائية الفعل وهذا يبرز من خلال الحالة التي يستفيض الراوي في الحديث عنها بقوله:

> وأقـــبل الشـــتاء مبكراً هذه السنة، هطلت الأمطار بغزارة لكن ما إن صحا الجو حتى اندفع الفلاحون للزراعة، وخرجت القطعان إلى البراري، وزادت الـــتوقعات أن تكون هذه السنة من سنوات الخير، ومع أن الأمطار كسرت حـــركة الـــبدو، إلا أن الفقراء استمروا يرددون أن برودة بغداد قاسية إلى درجة لا يوجد لها مثيل في مكان آخر!...(468).

كانـــت معظـــم أحاديث الراوي عن معاناة الناس في " أرض السواد " ترتكز علـــى الفيضـــان والجفاف والمرض إلاَّ أنه فيَ الوقت نفسه، يبرز الجانب المشرق لحياة المجتمع المتمثلة بالأغاني والموسيقى التراثية التي استطاع المجتمع من خلالها أن يعـــبر عن الألم والحزن ويدفع بالمعاناة والقلق ولو لحين، وهذا ما برز صراحة من خلال ما قدمه الراوي من منطوق سردي:

> وإذا تمـــيز موقـــف النســـوة تجـــاه الموسيقى بالحياد، وتجاه الرقص بالغيرة والخـــوف والحسد، وان تستر ذلك بإظهار القرف والاستهجان، فإن مواقفهن تجـــاه غـــناء ثامـــر المجـــول كان بالغ الانفعال والتجاوب، حتى أن أصوات مشاركتهن في لحظات معينة ، وصلت إلى أسماع الرجال وأطربتهم...(469).

تمكـــن الـــراوي في "أرض السواد" من الغوص في أعماق النفس الإنسانية؛ محـــاولا سَـــبْر أغوارها، وما يدور في باطنها من أحاسيس ومشاعر كامنة، وهناك شواهد عدة تؤكد معرفة الراوي بأهداف الشخصيات وما تحب وما تكره، والمستقبل

الذي ترنو للوصول إليه، وما يسود علاقتها الاجتماعيّة من تجاذب وتنافر، وما تتسم بـــه من سلوكيات نفسية واجتماعية، فهو يدخل في أفكار الشخصيات ناقلا ومصوراً دقيقا لما يجول في بال الشخصية وموقفها من الحياة والإنسان على حد سواء معتمدا علـــى تقنية الحوار الداخلي " المونولوج" ومن أمثلة ذلك، حديث الراوي عما انتاب نفســـية داود من مواقف سياسية بقوله: " قال داود لنفسه بعد أن توالت الأخبار عن قاسم ، ثم تأكدت :

> هؤلاء البدو يعرفون شيئا واحداً ، وقد أتقنوه لفرط ما أدمنوا عليه :- اشغال الدولة . انهم لا يعرفون الحرب، صحيح انهم يقاتلون، لكنهم لا يستطيعون التميـيز بيـن النصر والهزيمة وربما لا تعنيهم هذه القضية. فقط يريدون خصـماً، حـتى لـو كـان وهماً، كي يحاربوه وبهذه الطريقة يشعرون بوجودهـم وأهميـتهم، أمـا إذا غاب الخصم فعندئذٍ يأكلون أنفسهم إلى أن يتلاشوا ، ويبدو أنهم لا يريدون التلاشي على الأقل الآن (470).

لا يكتفـي الــراوي بدخــول أعماق الشخصية، وبيان مخزونها الداخلي من الأحاســيس والمشاعر، بل يقدم لنا سجلاً بانورامياً للمسيرة التاريخية التي مرت بها الشخصــية العراقــية فــي "أرض السواد"، وهذه المعلومات التاريخية التي يقدمها الــراوي تشــكل مــرجعاً أساســياً يستند إليه المتلقي أثناء متابعته لحركة المجتمع الروائــي، ولا يقف الأمر عند ذلك، بل تشكل هذه الأرضية التاريخية ميداناً خصباً يتكــئ علــيه المتلقي في فهم وتأويل أبعاد الشخصية، والتغيرات التي تطرأ عليها ؛ وفقاً لتغير مسيرة حركة الزمن ،، ويظهر ذلك في قول الراوي :

> كانــت تطلق على هوبي قبل الحصار ألقاب عديدة :- هوبي الأعور ، أبو القراقــيع ، هوبي ورور ، أطلق عيه أيضاً هوبي عكس ، لأن الضربةَ من كوعــه يمكن أن تخلف اصابة دائمة ، وقد تقتل ! لكن فجأة غابت الألقاب جمــيعها أثــناء الحصار ، وأصبح اسمه هوبي كريم، وقد برر رجاله هذه التسمية " أن عينه راحت فدوى للفقرا" ... (471) .

أحــياناً يقــدم الــراوي في سياق حديثه عن الشخصيات الإنسانية خلاصة تجاربـــه وأفكـــاره إذ يظهـــر لنا بين الفنية والأخرى نظريات خاصة به يدعونا من خلالها إلى التمثل والاقتداء. وهذا بارز في قوله:

حـــتى المكـــر الخفي الذي تلجأ اليه المرأة في محاولة معرفة أي شيء عن الـــرجل الذي تحب، تقابله بلادة أقرب إلى الغباء لدى الرجل، إذ يعجز عن التصـــرف، عن التفكير السليم، من أجل الوصول إلى بداية من أي نوع مع المـــرأة التي يحب، يلجأ إلى استمرار العذاب، إلى الانشغال بنسج الأحلام للـــيال طـــوال، لتخيل هذه الأحلام وتتلاشى مع أول أضواء نهار جديد، ثم ليبدأ مرة أخرى، وينتهي إلى نفس المصير! (472).

ومن أمثلة غوص الراوي في أعماق الشخصية مبرزاً أحاسيسها ومشاعرها والتـــي يجهلهـــا الطـــرف الآخر، ما صرح به عن حقيقة مشاعر فطيم زوجة سيفو المحمود، بقوله:

كانت ترقبه وهو يأكل . كانت في أعماقها تحبه ، لكن تعتبر من الضعف ، وربمـــا من الخفة ، أن تظهر له هذا الحب . أن تحوله الى مجرد كلمات . أكـــثر من ذلك ، كانت تحاول ، بعض الأحيان ، أن تناكده ، أن تثيره ، اذ بهـــذه الطـــريقة ، والتي يتخللها بعض الشتائم ، تحمله على الكلام ، وهي تعـــرف أنـــه لا يعنـــي الشـــتائم التـــي قد يتفوه بها، إذ تعتبرها جزءاً من مستلزمات الحديث! (473).

ومن أمثلة المعرفة الكلية بدواخل النفوس، ما قدمه الراوي عن بدري العلو ولم يقف عند ذلك، بل قدم صورة استشرافيَّة لما ستكون عليه الشخصية في المستقبل معتمداً بذلك على آلية الاستباق ويظهر ذلك من خلال حديث الراوي:

وإذا كانـــت ريـــاح الماضـــي، والذكـــريات، حملته بعيداً، فإنَّ الخوف من المستقبل، أو بالأحرى ما يجب عليه أن يفعله ليواجه هذا المستقبل، لم يغب عـــن بالـــه، فهـــو، الآن، شخص مختلف، فما أن تلحق به زكيه سيصبح مســـؤولاً عـــن عائلة، وبعد سنة سيصبح أباً، وقد لا تمر بضع سنين حتى تكـــبر العائلـــة ولا يعـــرف هل يبقى في العسكرية أم يجب أن يفكر بعمل آخر...(474).

بـــيد أننا في الأمثلة التي اخترناها حول قدرة الراوي على الغوص في أعماق الـــنفوس وعرضها، نشعر أنه قدم إدراك الشخصية، ونظرتها تجاه الناس والأشياء؛ ممـــا جعلـــنا نـــدرك من خلاله لا من خلال الشخصيات هذه التقنية؛ إذ تنتفي "الأنا" وتســـمح للآخر بالإفصاح عن دواخل الناس وما يعتريها من السلوكيات النفسية التي تفـــرض عليها تبني الموقف، وترصد إدراكها بل نستمع إلى صوت الراصد، وحتى

في بعض المواقع التي يفسح الراوي المجال فيها للشخصية للتعبير، نجد هذا التعبير مصاغاً بلغة الراوي، فهو الذي يقف في العلو يشاهد ويصور، ولا يكاد يترك مساحة للشخصيات لتقديم روايتها إلا نادراً، وهذا ينطبق إلى حدٍّ كبير على رواية "النهايات" كما يستنتجه محمد الشوابكة في تحليله للبنية السّردية في رواية النهايات (475) ومن مظاهر معرفة الراوي لمسيرة الشخصية ما قدمه من حديث أثناء تحليله النفسي لشخصية القنصل البريطاني؛ معتمدا في طرحه للاحتمالات على كثير من الأسئلة التي تحمل معاني عميقة، وهذا التساؤل لا يبدو عنصراً جلياً في هذا الموطن بل يبدو مترسخاً في كثير من أقوال السارد كلي العلم، وهذا ما يفصح عنه المقطع السردي التالي:

> قد تنقضي أعوام، عشرات الأعوام، ولا يأتي للعراق مثل كلوديوس جيمس ريتش. شخصية نادرة، تراث تراكم عبر الأيام والسنين. حالة من الغواية الآسرة للسيطرة على الآخرين، فهو في نظرته للناس والبلاد مزيج من الكراهية ورغبة السيطرة، وقد انصهرا معاً، بحيث لم يعد يعرف كيف التحما ثم اتحدا ليصبحا واحداً. هل حلمت أمه ذات ليلة، وكان جنيناً في شهره السابع، أن الشرق البعيد موطن ألف ليلة وليلة، هو الذي ينادي ابنها ليكون نبياً جديداً ويبدأ مسيرته من هناك؟...(476).

في المقطع السردي السابق نشعر أن الراوي هو المدرك، وليست الشخصية، إنّ الشخصيّة موضوعاً للحديث وليست متحدثة أو فاعلة أو مقدمة لإدراكها، وغالباً لا يشير الراوي في "أرض السواد" إلى مصادره التي يستقي منها معلوماته، فيسرد الخبر ويؤكد حدوثه ويظهر أنه المتفرد وحده، يتحكم بمصائر الشخصيات وأقدارهم، ومن أمثلة ذلك ما تلفظ به قائلاً:

> وجاء بدري في زيارة جديدة إلى بغداد، ونتيجة إلحاح الأسرة والمعارف وكثير من الأصدقاء، أعلن أخيراً استجابته لرغبة الزواج، فأخذت تجتاح محلة الشيخ صندل، وإن بشكل خفي، حركة حافلة موارة، رغم أن حياة المحلة استمرت، في الظاهر أو كما يراها الغريب، مثلما هي، ومثل الأيام الأخرى. وهذه الحركة لا تهدأ رغم التستر والإنكار، تبلغ ذروتها مرتين يومياً، عند الضحى ثم في المساء المتأخر...(477).

نلمح أنَّ الراوي في نصّه السردي السابق، يضع القارئ في صورة معلومات جديدة لم يألفها مسبقاً سواء من شخصية بدري نفسه أو ما يسود المجتمع من عادات وطـبائع اجتماعـيّة خاصـة في مناسبات الزواج. فرغبة بدري بالزواج، وحركات النسـوة فـي زيارة البيوت يصرح عنها الراوي علانية، ولا يعرفها غيره رغم ما يسـود هذه الأمور من طابع التكتم والسرية. ومن مظاهر عدم إفصاح الراوي عن مصادر معلوماته، وهذه طبيعته في الغالب الأعم قوله:

الآن وهـم يسمعون ما يقوله، يكتشفون أنهم نسوا علاقة الآغا بالقنصل في الفترة الأولى من حكم سعيد، إذ كان على وشك أن يعدم بسبب تآمره، لولا أن القنصـل، هـذا القنصل بالذات،هو الذي شفع له عند سعيد، وتعهد أن يسـجنه في الباليوز، ثم اتفق وسعيد أن يسفر للبصرة للتخلص منه، وكيف ذهب من الشرق وجاء، بعد رحلة طويلة، من الشمال! (478).

يكشـف الراوي في نصه السابق شبكة من العلاقات السرية التي تربط الآغا بالقنصـل الإنجلـيزي، ومـا يدبره الاثنان من مؤامرات تستهدف العراق وخيراته، ورغـم هـذا النقل إلا أن الراوي يصر على عدم الكشف عن مصادره المعلوماتية، ومن جملة المعلومات التي قدمها الراوي دون الإشارة إلى ناقلها قوله :

فقـبل أسابيع قليلة من وصول ريتش إلى اسطنبول، اضطرب رجال الحكم فـي دار السلطنة، بعد أن توفرت معلومات أثبتها الشهود، وأكدتها الوقائع، أن خـالد أفـندي عميل إنجليزي، وأن له علاقات بلندره، ثم بالسفارة في اسطنبول منذ وقت طويل. ولأنه كان كذلك فقد أساء إلى أقصى حد، سواء بالمعلومـات التـي قدمها، أو بالآثار التي خلفها ، مما ألحق أضراراً بالغة بسمعة السلطان وبمصالح الدولة السنية ... (479).

يملـك الـراوي القـدرة على الانتقال من مكان إلى آخر دونما إحساس من القارئ إزاء ذلك، والانتقال المكاني يدعو في الغالب إلى انتقال زماني خلال فترات وحقـب زمنية مختلفة، والراوي في هذه التقنية التي يمارسها بخفة ومهارة لا يجعل القـارئ يقـع في الإرباك أو يقطع تواصله الفكري مع النص، والشواهد الدالة على المهارة المكانية والزمانية التي يمارسها الراوي متعددة ومتنوعة في "أرض السواد"، وأبرز ما يوضح هذه التقنية، قوله:

وتذكــر ســعيد. انفعــل وهو يتذكره، كان سعيد في البداية محبوباً. وكان سليمان الكبير مثل خيمة تحميه من الأعداء. حتى الإنجليز وافقوا أن يكون والــياً، قالوا نعم، لأن ذلك الكورسيكي، نابليون، أتعبهم، وكانوا يريدون أن يخلصــوا مــنه، ولم يلتفتوا إلى أحد آخر، وسعيد بدل أن يعيد أمجاد أخيه، انشــغل بحمــادي وأمثاله، وترك الولاية لأولئك البدو الذين لا يحللون ولا يحرمون...(480).

يلمــح مــن المقطع السردي السابق أن الراوي عاد بذاكرته إلى فترة زمنية سابقة لفترة مجتمعه الروائي، ولا سيما زمن داود باشا عن طريق تقنية الاسترجاع، إذْ اســتطاع إضــاءة فترة تاريخية تفيد قارئ "أرض السواد" في الربط بين الأحداث لــتوافر عنصــر التواصل الزمني الذي يصعب الوصول إليه في كثير من الأحيان. ومــن أمثلة ما استفاضت به ذاكرة الراوي أثناء حديثه عن الزمن الماضي، ما نطق به عن بدايات القنصل البريطاني، بقوله:

فمــع أنه أصغر موظفي القنصلية سناً صار رئيساً للبعثة، أي القنص العام، أمــا مــا يقــال أنه من بلد محافظ، فقد كان أكثر ثورية وتحرراً من الذين ســاهموا بإسقاط لويس الرابع عشر! إذ ما كادت تمر شهور على استلامه العمل حتى أصبحت القنصلية البريطانية، أو الباليوز كما أطلق عليها الناس فــي بغــداد، تضــاهي السراي بل وتتفوق عليها في كل شئ :- "التأثير، العلاقات، الأهمية، ومعرفة كل ما يدور في المدينة (481).

ومن أمثلة انتقال الراوي داخل الأمكنة دون اعتبار لحدود الجغرافيا وعراقيل الطبــيعة ما قدمه من حديث أثناء رصده لحياة بدري العلو في محلة الشيخ صندل، فقــد فاجأ القارئ بانتقاله إلى منطقة كركوك راصداً تفاصيل حياة بدري الشخصية، وواقعها المعيشي في المكان الجديد، وهذا ما أفصح عنه قائلاً:

"كانــت قــد مضت فترة، سبعة شهور وبضعة أيام على إقامة بدري في كركوك حين وصل إلى هناك الآغا سيد عليوي، وصل فجأة ونزل في القلعة، مع عدد من السرايا للمــرافقة والحماية..."(482). وكذلك كان الراوي يرافق الأسطة عواد وسيفو المحمود في رحلتهم المضنية أثناء محاولة قراءة رسالة حسون، فقد دخل معهم إلى بيت ذنون مقدماً وَصْفاً دقيقاً له:

كان يسكن على طرف النهر في بيت تظهر عليه آثار نعمة قديمة، إذ رغم اتساعه إلا أن الإهمال لحق بكثير من جوانبه، وترك عليه الزمن علامات تتبدى بوضوح من الألوان، من تراكم أشياء كثيرة في الزوايا، ومن البلى الذي لحق الأبواب والنوافذ والأدراج، ولأن الرجل أعزب ويعيش وحيداً، فقد تزايدت الفوضى وظهرت في كل ناحية (483).

يمكن القول إنَّ الراوي في "أرض السواد" لم يكن مهيمناً بالإطلاق على نصه الروائي؛ إذ نلمس بين الفينة والأخرى سماع بعض الأصوات التي تنقل بعض الأحداث، ولم يقف الأمر عند ذلك بل قامت الحوارات بين الشخصيات ومن خلال هذه الحوارات استطعنا أن نظفر بملامح الشخوص وتوجهاتها ومواقفها من الحياة، ومن أوضاع النظام السياسي والاجتماعي القائم في المجتمع العراقي آنذاك. ومن الأصوات التي قدمها الراوي نيابة عنه صوت "عَزْمي أفندي" الذي تولى ذكر تفاصيل عملية قتل "سعيد باشا" من قبل الآغا ورجاله، وجاء هذا النقل بعد حديث تفصيلي من قبل الراوي، وجاء صوت الشخصية المساند بمثابة التأكيد على ما قدمه الراوي للقارئ إضافة إلى ذكر تفصيلات حركية لم تؤثر في بنية الحدث الرئيسي وهو القتل. وأحياناً لم يكن الراوي يشير لمصادر الروايات المتعددة التي يذكرها إذ يكتفي بالقول "ويضيف آخرون أو ويرى البعض" إلى غير ذلك من الروايات المنسوبة بشهود غير معروفين، ويتجلى مثل هذا النقل في مواطن متعددة من النص الروائي، ومن أمثلة ذلك ما نقله الراوي عن سلوك الآغا وطبائعه (484) والروايات التاريخية عن الحَالة التي ألمت بالخاتون بعد مقتل سعيد باشا والتي توزعت بين المرض والجنون والسفر(485). وكذلك ما نقله الراوي عن سلوك الكيخيا في حملة الجنوب، وتضارب الآراء حول تعامله مع الأسرى(486) ولكن الأمر البارز الذي ينبغي الإشارة إليه أن هذه المساحة من الحرية في التعبير ظلت مرهونة بإرادة الراوي الكلي العلم وهيمنته .

الخاتمة

وبَعْدُ ، فيتضح من العرض السابق جُمْلَةٌ من الملاحظات أوجزها بما يلي :

يعد عبد الرحمن منيف من أبرز الأدباء العرب على صعيد الكتابة الروائية؛ وذلك انطلاقاً من الموضوعات الإنسانية والقومية التي طرحها في أعماله الروائية

ابــتداءً من رواية " الأشجار واغتيال مرزوق " وانتهاء بــ "أرض السواد" التي هي محــور الدراسة ؛ سواءً أكان النظر في إنتاجه على مستوى الرؤية أم على مستوى التشكيل .

تمثل رواية "أرض السواد" مرحلة مكملة لمسيرة عبدالرحمن منيف الروائية، فهــي ذات صــلة مباشرة بالقضايا التي طرحها في أعماله الأخرى كغياب الوعي الديمقراطــي فــي المجتمع العربي ومفردة السجون وامتدادها وآثارها النفسية على الإنســان العربــي، إضـــافة إلى الحديث عن أزمة الثقافة العربية وما يعتري حامل لوائهــا من ظلم واضطهاد وتعذيب، و"أرض السواد" في هذا الميدان لا تحمل تغيراً في مواقف منيف من قضايا المجتمع بل هي تجسيد صارخ يؤكد عمق المبادئ التي آمن بها الكاتب على الدوام مهما تغيرت الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

تكشــف روايــة "أرض الســواد" عــن وعي من لدن الكاتب تجاه مفردات المجتمع العراقي من عادات وتقاليد وقيم اجتماعية، فتتعدى الرواية دورها الفني إلى أن تصــبح جدارية إنسانية تؤرخ لفترة زمنية عاشها العراق بكل أجناسه ومعتقداته بأسلوب فني لا تاريخي توثيقي .

تكشــف روايــة "أرض السواد" عن مدى استيعاب الكاتب للتقنيات السردية المتمــثلة بالزمــن ســواءً مــا كان منه فيزيائياً أم نفسياً يتحكم بمصير الشخوص ومعتقداتهم، وكذلك المكان الذي يجد فيه القارئ نفسه أمام رصدٍ لدقائق المكان التي تعكــس وعــياً ثقافياً يجسد إلمام الكاتب بجغرافياً الأرض العراقية، ولم يقف تصور عــبد الرحمن منيف عند هاتين التقنيتين بل نجده من خلال الرؤية السردية راصداً دقيقاً لمفردات الإنسان والزمان والمكان على حدٍّ سواء ما كان متعلقاً منها بالطبيعة العراقية ومعطياتها أو ما يغلف شخصية الإنسان العراقي من طبائع ومعتقدات .

قائمة الهوامش

1. سيد بحراوي . علم اجتماع الأدب ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، القاهرة ، ط1 ، 1992م : 8 .
2. ســـي رايت ميلز. الخيال السوسيولوجي ، ترجمة صالح جواد الكاظم ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 1987 : 347 .
3. راكـــز أحمد . الرواية بين النظرية والتطبيق "مغامرة نبيل سليمان في المسلة "، دار الحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية ، ط1 ، 1995م : 18 .
4. إبراهيم الخطيب وآخرون. مدخل إلى علم الاجتماع ، الشركة الأهلية للطباعة والنشر والتوزيع ،(د.م) ، ط1 ، (د.ت) : 33 .
5. عبد الرحمن منيف . أرض السواد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت،ط3 2002م : 22 .
6. نفسه: 1 / 55-56.
7. نفسه: 1 /94 .
8. نفسه: 1 /214 .
9. نفسه: 1 /130.
10. نفسه: 1 /313 .
11. نفسه: 1 / 314-315 .
12. نفسه: 1 / 109 .
13. نفسه: 2 / 360 .
14. نفسه: 1 / 109 .
15. مدخل إلى علم الاجتماع : 89 .
16. الرواية 2 / 183 .
17. نفسه: 2/381-382 .
18. نفسه: 2 / 456 .
19. نفسه: 1/ 168 .
20. نفسه: 1 /166-167 .
21. نفسه: 3 /15 .
22. نفسه: 1 /320-322 .
23. إرفـــنج زايتلن. النظرية المعاصرة في علم الاجتماع ، ترجمة محمود عودة وإبراهيم عثمان ،(د.م) ، 1989م :61 .

24. الرواية: 2/ 158 .
25. نفسه: 235/2 .
26. نفسه: 1 /70-71 .
27. نفسه: 2/ 83 .
28. نفسه: 2/ 307 .
29. نفسه: 2/ 308 .
30. نفسه: 2 /477 .
31. نفسه: 2/ 235 .
32. نفسه: 1/ 69-70 .
33. نفسه: 1/ 245 .
34. نفسه: 1/ 16-17 .
35. نفسه: 1 /94.
36. نفسه: 1 /79 .
37. نفسه: 1 /112.
38. نفسه: 3/ 83.
39. محمــد علــي الشــوابكة. النفط والتحول الاجتماعي –دراسة في مدن الملح –مجلة دراسات ، الجامعة الأردنية ، مجلد 19 ، عدد 1 ، سنة 1992م :286 .
40. الرواية: 2 /322 .
41. نفسه: 2 /443 .
42. نفسه: 2 /282 .
43. توفـيق مرعي و آخرون . الميسر في علم النفس الاجتماعي ، دار الفرقان للتوزيع والنشر ، عمان ، ط2، 1984م : 128 .
44. الرواية: 448/2 .
45. نفسه: 1/ 448 .
46. نفسه: 1/ 526 .
47. خـالد حسـين حسين: شعرية المكان في الرواية الجديدة – الخطاب الروائي لإدوارد الخراط نموذجاً – مؤسسة اليمامة الصحفية ،الرياض، 1421هـ : 14-15 .
48. الرواية: 2 /321 .
49. نفسه: 52/3 .
50. نفسه: 3/ 307.

51. نجــوى الرياحي . الحلم والهزيمة في روايات عبد الرحمن منيف ،مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، مجلد (111) ، العدد (8) ، 1995م : 20-21 .
52. سلامة موسى . أحلام الفلاسفة ، الشركة القومية للنشر والتوزيع ، تونس ، 1961م : 7-8 .
53. الكاتب والمنفى "هموم وآفاق الرواية العربية : 134 .
54. الرواية: 138/3 .
55. نفسه: 1 /310 .
56. نفسه: 11/3-12 .
57. عبد الرحمن منيف. شرق المتوسط ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1 1983م :
58. عبدالرحمن منيف . الأشجار واغتيال مرزوق ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 1983م : 123 .
59. الحلم والهزيمة في روايات عبد الرحمن منيف :36-37 .
60. عبد الرحمن منيف. الكاتب والمنفى هموم وآفاق الرواية العربية ، دار الفكر الجديد ، بيروت ، 1992م :245 .
61. الرواية: 1/ 306 .
62. الشخصية الروائية بين الحب والكراهية : 244 .
63. الرواية: 1/69-70 .
64. الشخصية الروائية بين الحب والكراهية : 244 .
65. الرواية: 2/ 215 .
66. مصطفى الخشاب . دراسات في علم الاجتماع العائلي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981م : 22-23 .
67. ملاك احمد الرشيدي ، الأسرة وجهود الخدمة الاجتماعية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، المجلد11 ، العدد2 ، 1984م : 569 .
68. الرواية: 1/ 282 .
69. نفسه: 178/2 .
70. نفسه: 192/1 .
71. نفسه: 1: 199-198 .
72. نفسه: 1: 429 .

73. سمير الحاج شاهين . لحظة الأبدية ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر ، بيروت ، 1981م : 16.
74. فـراس السـواح . مغامـرة العقل الأولى "دراسة في الأسطورة في سوريا وبلاد الرافدين" دار علاء الدين ، دمشق ، ط1 ، 1997 :127 .
75. غالـب طعمة فرمان . عبد الرحمن منيف والإنسان العربي المقهور ، مجلة الآداب ، بيروت ، عدد6 ، 1981م : 215 .
76. الرواية: 3 / 118-120 .
77. نفسه: 132/3 .
78. نفسه: 3 /116-117 .
79. نفسه: 3 / 119 .
80. عيسـى قويـدر . عـبد الرحمن منيف روائياً ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ،(د.م)،(د.ت) : 38 .
81. الرواية: 132/3 .
82. نفسه: 389/1 .
83. نفسه: 164/2 .
84. نفسه: 65/2-66 .
85. نفسه: 69/2.
86. نفسه: 68/2.
87. نفسه: 448/2 .
88. نفسه: 47/3 .
89. نفسه: 140/3 .
90. نفسه: 152/3 .
91. نفسه: 77/3 .
92. نفسه: 475/2-476 .
93. نفسه: 280/3 .
94. نفسه: 305/2 .
95. محمـد علـي الشـوابكة . البنـية السردية والدلالية في رواية النهايات ، بحث غير منشور، (د.د) ، (د.ت) : 210-211 .
96. الرواية : 3 / 277.
97. نفسه: 277/3 .

98. نفسه: 276/3 .
99. نفسه: 277/3-278 .
100. محمـــد الرميحـــي . الثقافة ذلك السهل الممتنع ، مجلة العربي ، العدد 482 ، كانون الثاني ،1999م : 18 .
101. ســـماح ادريس . المثقف العربي والسلطة ، " بحث في رواية التجربة الناصرية " ، دار الآداب ، بيروت ، ط1 ، 1992م : 207.
102. صالح ولعة . المثقف في روايات منيف ، جريدة العرب اليوم ، ملحق اليوم السابع ، عدد2428 : 16 .
103. الكاتب والمنفى "هموم وآفاق الرواية العربية" : 206.
104. نفسه : 207 .
105. الحلم والهزيمة في روايات عبد الرحمن منيف : 289-290 .
106. نفسه: 290-291 .
107. المثقف في روايات منيف : 16 .
108. الحلم والهزيمة في روايات منيف : 295 .
109. شرق المتوسط : 196 .
110. الحلم والهزيمة في روايات عبد الرحمن منيف : 205 .
111. نفسه: 306 .
112. شرق المتوسط : 197 .
113. جـــان بـــول سارتر. مواقف الآداب الملتزم ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الآداب للنشر ، بيروت ، 1965م : 60 .
114. عـــبد الرحمـــن منـــيف . حين تركنا الجسر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 1983م : 127 .
115. الحلم والهزيمة في روايات منيف : 307 .
116. نفسه: 315 .
117. نفسه: 317 .
118. المثقف في روايات عبد الرحمن منيف : 17 .
119. الرواية: 140/3 .
120. نفسه: 83/3 .
121. نفسه: 84/3 .

122. جـــون مـــاكوري . الوجودية ، ترجمة إمام عبد الفتاح ، عالم المعرفة ، العدد58 ، 1982م : 318 .
123. الرواية: 182/3 .
124. نفسه: 187/1 .
125. نفسه: 322/1 .
126. نفسه: 24/2 .
127. نفسه: 304/2 .
128. نفسه: 10/2 .
129. الحلم والهزيمة في رواية عبد الرحمن منيف : 113
130. الرواية: 2 /149 .
131. المثقف في روايات منيف : 16
132. جـــورج لوكـــاش . الـــرواية كملحمة برجوازية ، تعريب جورج طرابيشي ، دار الطلـــيعة ، بـــيروت ، ط 1989م : 25 . وانظـــر وادي (فاروق) ثلاث علامات في الـــرواية الفلســـطينية " غســـان كنفاني ، ايميل حبيبي ، جبرا إبراهيم جبرا " المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، (د.ت) : 13.
133. عبد الرحمن روائياً : 50
134. الرواية: 258/1.
135. نفسه: 98/1 .
136. نفسه: 101/1 .
137. نفسه: 195/3 .
138. نفسه: 195/3 .
139. نفسه: 399/1 .
140. نفسه: 259/1 .
141. نفسه: 259/1 .
142. نفسه: 264/1 .
143. نفسه: 296/1 .
144. نفسه: 297/1 .
145. نفسه: 295/1 .
146. نفسه: 98/1 .
147. نفسه: 215/3.

148. نفسه: 87/1 .

149. توفيق الحكيم . عصفور من الشرق ، مكتبة الآداب ومطبعاتها ، القاهرة ، (د.ت) : 96 .

150. الرواية: 258/1 .

151. نفسه: 259/1 .

152. نفسه: 260/1.

153. نفسه: 298/1 .

154. نفسه: 52/3 .

155. نفسه: 59/3 .

156. عـبد الرحمن منيف. سباق المسافات الطويلة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 1983 : 76 .

157. الرواية:381/1 .

158. نفسه: 395/1-396 .

159. نفسه: 127/3

160. نفسه: 163/3-183.

161. نفسه: 393/1 .

162. نفسه: 393/1 .

163. نفسه: 394/1 .

164. نفسه: 85/2.

165. نفسه: 71/2 .

166. نفسه: 51/2.

167. نفسه: 76/2 .

168. نفسه: 104/1 .

169. نفسه: 105/1 .

170. نفسه: 52/2 .

171. نفسه: 59/2 .

172. نفسه: 72/2 .

173. نفسه: 72/2-73 .

174. نفسه: 92/2 .

175. نفسه: 101/2 .

176. نفسه: 267/1 .
177. نفسه: 2/53-54 .
178. نفسه: 57/2 .
179. نفسه: 76/1 .
180. مصطفى حجازي .التخلف الاجتماعي "مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقبور" ، معهد الإنماء العربي ، لبنان ، ط4 ، 1986م : 13 .
181. الرواية: 77/1 .
182. نفسه: 83/1 .
183. نفسه: 83/1 .
184. نفسه: 1/151-163 .
185. صالح سليمان عبدالعظيم . سوسيولوجيا الرواية السياسية "يوسف القعيد نموذجاً " ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ، 1998م : 114 .
186. الرواية: 25/1 .
187. نفسه: 2/ 10-17 .
188. سوسيولوجيا الرواية السياسية : 114 .
189. محمد الدقس . التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، عمان ، 1988م : 202-211 .
190. الرواية: 59/2 .
191. نفسه: 115/3 .
192. نفسه: 79/1 .
193. نفسه: 83/1 .
194. نفسه: 310/1 .
195. نفسه: 513/1 .
196. نفسه: 189/1 .
197. نفسه: 519/1 .
198. نفسه: 1/151-163 .
199. نفسه: 195/2 .
200. نفسه: 343/1.
201. نفسه: 503/1 .
202. نفسه: 37/3 .

203. نفسه: 3/140-152 .

204. نفسه: 2/431 .

205. نفسه: 2/441 .

206. نفسه: 3/13-14 .

207. نفسه: 3/77 .

208. نفسه: 1/173 .

209. نفسه: 1/173 .

210. نفسه: 1/174 .

211. نفسه: 1/175 .

212. نفسه: 2/7-17 .

213. يوسف خليف. الشعراء الصعاليك في الشعر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، (د.ت) : 121-148.

214. الرواية: 1/138 .

215. نفسه: 2/441 .

216. النفط والتحول الاجتماعي "دراسة في مدن الملح" : 295 .

217. الرواية: 3/130 .

218. مراد عبدالرحمن مبروك . بناء الزمن في الرواية المعاصرة "رواية تيار الوعي نموذجاً 1967-1994" ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ، 1998م : 50 .

219. هانز بيرهوف. الزمن في الأدب ، ترجمة أسعد رزوق ، مراجعة العوضي الوكيل ، سجل العرب ، القاهرة ، 1972 : 9.

220. سيزا القاسم .بناء الرواية "دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ" ، دار التنوير للطباعة والنشر ، لبنان - بيروت ، ط1 ، 1985 : 33 .

221. سعيد يقطين . تحليل الخطاب الروائي "الزمن-السرد-التبئير" منشورات المركز الثقافي العربي ، بيروت- الدار البيضاء ، 1989 : 61 .

222. إبراهيم جنداري .الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا، دار الشؤون الثقافية العامة "آفاق عربية" ، بغداد ، ط1 ،2001م : 44 .

223. غاستون باشلار .حدس اللحظة ، تعريب رضا عزوز وعبد العزيز زمزم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1986 : 33.

224. عبدالرحمن بدوي .الزمن الوجودي ، دار الثقافة ، بيروت ، ط3 ، 1973 : 100 .

225. جلال الخياط .الشعر والزمن ، وزارة الإعلام العراقية ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1975 : 113 .

226. نـيقولاي بردياتف .العزلة والمجتمع ، ترجمة فؤاد كامل ، مراجعة علي أدهم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، (د.ت) : 123 .

227. الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا : 116 .

228. نفسه: 113 .

229. ألكسيس كاريل .الإنسان ذلك المجهول ، تعريب شفيق اسعد فريد ، مكتبة المعارف ، (د.م) ، ط3 ، 1980 : 190 .

230. البنية السردية والدلالية في رواية النهايات : 98-99 .

231. محـبة حـاج معـتوق .أثر الرواية الواقعية الغربية في الرواية العربية ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ط1 ، 1994م : 105 .

232. سمير روحي الفيصل.نهوض الرواية العربية الليبية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، ط1 ، 1990م : 135 .

233. الرواية بين النظرية والتطبيق : 64 .

234. الرواية: 36/1 .

235. نفسه: 37/1 .

236. نفسه: 130/1

237. نفسه: 92/2 .

238. نفسه: 128/3.

239. نفسه: 364/2.

240. عـبد الحمـيد المحادين.التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ط1 ، 1991م: 61.

241. محمود أمين العالم .زمن الرواية، مجلة فصول، مجلد12،عدد1، سنة 1991م:215 .

242. حمـيد لحمداني .بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2 ، 1993م : 76.

243. نفسه : 77.

244. تزفتـيان تـودوروف .الشعرية، ترجمة شكري المبخوت و رجا سلامة، دار توبقال للنشر- الدار البيضاء، ط2 ، 1990م : 47.

245. نفسه: 49 .

246. محمد أسويرتي .النقد البنيوي والنص الروائي، دار توبقال ، الدار البيضاء ، 1991م : 9-10.

247. البنية الدلالية والسردية في رواية النهايات : 80 .

248. البنية الدلالية والسردية في رواية النهايات : 84-85 .

249. جـــيرار جنيت .خطاب الحكاية "بحث في المنهج" ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلبي، المجلس الأعلى للثقافة،(د.م) ، ط2، 1997م : 47.

250. حسن البحراوي .بنية الشكل الروائي "الفضاء – الزمن – الشخصية"، المركز الثقافي العربي، بيروت ، 1990م : 121.

251. بناء الرواية "دراسة في ثلاثية نجيب محفوظ" : 54.

252. طـــه وادي . دراســـات فـــي نقـــد الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، 1989م: 36.

253. سمير المرزوقي و آخرون . مدخل إلى نظرية القصة- تحليلاً وتطبيقاً، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986م : 77.

254. خطاب الحكاية "بحث في المنهج" : 55 .

255. الرواية: 1/222-223.

256. بناء الرواية "دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ" : 54.

257. الرواية: 1/534.

258. بناء الرواية "دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ" : 58.

259. الرواية: 1/535.

260. نفسه: 3/115.

261. نفسه: 1/435- 436.

262. نفسه: 2/185.

263. نفسه: 2/194.

264. نفسه: 2/163.

265. نفسه: 3/94.

266. نفسه: 3/61.

267. نفسه: 1/296.

268. نفسه: 1/301.

269. نفسه: 1/362.

270. نفسه: 1/406.

271. الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا : 120.

272. بناء الرواية : 61.

273. مدخل إلى نظرية القصة : 82.

274. أحمد النعيمي. إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ط1 ، 2004م : 39.

275. الرواية: 108/1.

276. نفسه: 132/1.

277. نفسه: 134/1.

278. نفسه: 232/1.

279. نفسه: 406/1.

280. نفسه: 529/1.

281. نفسه: 229/2 .

282. نفسه: 256/2 .

283. نفسه: 376/2 .

284. آمنة يوسف . تقنيات السرد في النظرية والتطبيق ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية ، ط1، 1992 : 70 .

285. الرواية: 2/65-78 .

286. نفسه:196/3.

287. نفسه:1/35-42، وانظر 1/55-63.

288. نفسه: 47/1 .

289. نفسه: 47/1 .

290. نفسه: 258/1 .

291. نفسه: 162/2 .

292. تقنيات السرد في النظرية والتطبيق : 82 .

293. بناء الرواية: 78 .

294. عبدالفتاح إبراهيم . البنية والدلالة في مجموعة حيدر حيدر القصصية (الوعول) ، الدار التونسية للنشر ، 1986م : 113 .

295. الرواية: 417/1 .

296. نفسه: 170/2 .

297. نفسه: 3/114-128 .

298. نفسه: 35/1 .

299. تقنيات السرد بين النظرية والتطبيق : 84-85 .

300. يمنى العيد. تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي ، دار الفارابي ، بيروت ، ط2، 1999م : 82 .

301. الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا : 133 .

302. الرواية: 82/1 .

303. نفسه: 253/2 .

304. نفسه: 87/1 .

305. نفسه: 48/3 .

306. الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا : 133 .

307. الرواية: 38/3 .

308. الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا : 135.

309. بناء الرواية : 90-91 .

310. بيرسي لوبوك. صنعة الرواية ، ترجمة عبد الستار جواد ، دار الرشيد للنشر ، وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، المركز العربي للطباعة والنشر ، بيروت ، 1981 : 73 .

311. الرواية: 40/1 .

312. نفسه: 286/2 .

313. انظر الرواية: 252/3 .

314. نفسه: 268/2-269 .

315. تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي : 83 .

316. البنية السردية والدلالية في رواية النهايات : 127 .

317. مدخل إلى نظرية القصة – تحليلاً وتطبيقاً – : 88.

318. الرواية: 414/1 .

319. نفسه: 68/1 .

320. نفسه: 65/1 .

321. نفسه:28/1 .

322. إبراهيم نمر موسى. جماليات التشكيل الزماني والمكاني لرواية الحواف ، مجلة فصول ، المجلد 12، العدد 2 ، القاهرة ، 1993م : 313.

323. الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا : 167 .

324. انظر يوسف كرم. تاريخ الفلسفة اليونانية ، دار القلم ، بيروت ، (د.ت) : 142 .

325. الفضاء الروائي : 168-169 .

326. نبيلة إبراهيم. خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حسين ، مجلة فصول ، المجلد9 ، العدد 1-2 ، 1990م : 49 .

327. عبد الحميد المحادين. جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 2001م : 20 .

328. محســن البــاردي. الرواية العربية الحديثة ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا ، 1997م : 232 .

329. عــبدالعزيز شــبيل. الفن الروائي عند غادة السمان ، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة ، 1987م : 47 .

330. ياســين النصــير. الرواية والمكان ، الموسوعة الصغيرة – 195- منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1986 م : 17 .

331. ياســين النصــير. إشــكالية المكان في النص الأدبي -دراسات نقدية – دار الشؤون الثقافية العامة ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، ط1 ، 1986م : 7 .

332. بــدري عــثمان. بــناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ ، دار الحداثة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط 1 ، 1986م : 94 .

333. بناء الرواية: 102 .

334. بنية الشكل الروائي : 20 .

335. صــبري حــافظ. الحداثــة والتجسيد المكاني ، مجلة فصول ، المجلد 2 ، العدد 4 ، القاهرة ، 1984م : 65.

336. غاســتون باشــلار. جمالــيات المكــان ، ترجمة غالب هلسة ، دار الجاحظ للنشر والتوزيع، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، 1980م : 7 .

337. أســماء شــاهين. جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا ، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1، 2001م :19.

338. شــاكر النابلســي. جماليات المكان في الرواية العربية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ،ط1 ، 1994م : 92.

339. نفسه: 92-93 .

340. حســن نجمي. شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، 2000م : 48 .

341. إشكالية المكان في النص الأدبي : 8 .

342. مـــنى محـــيلان. التجريب في الرواية العربية الأردنية (1960-1994) ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 2000م : 160-161.

343. شعرية المكان في الرواية الجديدة : 109.

344. صلاح صالح. قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر ، دار شرقيات ، القاهرة ، ط1 ، 1977م : 135.

345. جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية : 33.

346. بناء الرواية : 107.

347. الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا : 176.

348. بناء الرواية : 108.

349. إنجيل بطرس سمعان. دراسات في الرواية العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1987م : 39.

350. جماليات المكان في الرواية العربية : 292 .

351. بوريس اوسبنسكي. وجهة النظر في الرواية على مستوى المكان والزمان ، ترجمة سعيد الغانمي ، مجلة فصول ، المجلد 15 ، العدد4 ، 1997م : 258.

352. نفسه: 260.

353. بناء الرواية : 110 .

354. الان روب جريـــيه. نحو رواية جديدة ، ترجمة مصطفى إبراهيم مصطفى ، مراجعة لويس عوض ، دار المعارف المصرية ، القاهرة : 129 .

355. الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا : 181 .

356. بناء الرواية : 111 .

357. نفسه : 111 .

358. الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا : 182 .

359. نفسه : 182 .

360. الرواية: 40/1 .

361. نفسه: 370/1 .

362. 407/2.

363. الرواية: 306/2 .

364. محمـــد جابـــر الأنصـــاري. تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1994م : 38 .

365. الرواية: 289/1 .

366. نفسه: 1/289-290 .

367. نفسه: 1/290 .

368. نفسه: 1/323 .

369. نفسه: 1/327 .

370. جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية : 49 .

371. نفسه: 47 .

372. إبراهـيم خلـيفة. علم الاجتماع والمدينة ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، 1983م : 6 .

373. حسين رشوان. المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، 1982م : 45 .

374. الرواية: 1/77.

375. انظر الرواية: 1/154.

376. الرواية: 1/288 .

377. نفسه: 1/288 .

378. نفسه: 2/50-51.

379. نفسه: 2/96 .

380. نفسه: 2/439 .

381. نفسه: 2/522 .

382. نفسه: 3/59 .

383. نفسه: 3/198 .

384. نفسه: 3/212 .

385. نفسه: 2/65 .

386. نفسه: 3/196 .

387. نفسه: 3/171 .

388. نفسه: 3/174 .

389. نفسه: 2/315 .

390. نفسه: 2/315 .

391. نفسه: 2/290 .

392. نفسه: 1/131 .

393. نفسه: 2/440 .

394. نفسه: 203/3 .
395. نفسه: 131/1 .
396. نفسه: 56/1 .
397. نفسه: 59/1 .
398. نفسه: 287/1 .
399. نفسه: 287/1.
400. نفسه: 291/1 .
401. نفسه: 509/1 .
402. نفسه: 519/2 .
403. نفسه: 8/3 .
404. نفسه: 124/3.
405. نفسه: 256/3 .
406. نفسه: 280/3.
407. نفسه: 209/1-210 .
408. نفسه: 228/1 .
409. نفسه: 227/1 .
410. أحمـــد محمـــد عطية. الرواية السياسية "دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية" ، مؤسسة مطابع معتوق ، بيروت ، (د.ت) : 39 .
411. الرواية: 120/1 .
412. نفسه: 120/1 .
413. نفسه: 151/1 .
414. نفسه: 526/2 .
415. نفسه: 532/2 .
416. نفسه: 265/1 .
417. نفسه: 312/1 .
418. نفسه: 531/1-532 .
419. نفسه: 86/1 .
420. نفسه: 105/1.
421. نفسه: 466/1 .
422. جماليات المكان : 38.

423. الرواية: 239/2 .

424. نفسه: 441/2.

425. نفسه: 503/2.

426. نفسه: 300/2.

427. دراسات في الرواية العربية : 38 .

428. نفسه: 91 .

429. سعيد يقطين. تحليل الخطاب الروائي ، "الزمن- السرد – التبئير" المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط2 ، 1993 : 283 .

430. شجاع مسلم العاني. البناء الفني في الرواية العربية في العراق ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1994م : 8 .

431. نفسه: 90 .

432. تحليل الخطاب الروائي: 284 .

433. حميد لحمداني. بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط2 ، 1993م : 46 .

434. تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي: 112-113 .

435. نفسه: 113 .

436. بنية النص السردي: 47 .

437. بناء الرواية: 180 .

438. تحليل الخطاب الروائي: 284-285 .

439. شجاع مسلم العاني. في أدبنا القصصي المعاصر ، دار الشؤون الثقافية العامة ، "آفاق عربية" ، بغداد ، ط1 ، 1989م : 24 .

440. البنية السردية والدلالية : 154 .

441. بناء الرواية : 183 .

442. نفسه: 184 .

443. بنية النص السردي : 47 .

444. في أدبنا القصصي المعاصر : 24 .

445. عبد الله إبراهيم. المتخيل السردي "مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط1 ، 1990م : 119-120 .

446. البنية السردية والدلالية في رواية النهايات : 155 .

447. تقنيات السرد الروائي : 90 .

475. البنية السردية والدلالية في رواية النهايات : 70 .

476. نفسه 1 : 85 .

477. نفسه 2 : 165 .

478. نفسه 3 : 28 .

479. نفسه 3 : 55 .

480. نفسه 1 : 164-165 .

481. نفسه 1 : 86 .

482. نفسه 2 : 31 .

483. نفسه 2 : 131 .

484. نفسه 1 : 207 .

485. نفسه 1 :233 .

486. نفسه 3 : 126 .

المراجع

إبراهيم، عبد الفتاح، (1986)، **البنية والدلالة في مجموعة حيدر القصصية "الوعول"**، الدار التونسية، (د.م).

إبراهيم، عبد الله، (1990)، **المتخيل السردي "مقاربات سردية في التناص والرؤى والدلالة**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1.

إبراهيم، نبيلة، (1990)، **خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حسين، مجلة فصول، المجلد 9، عدد1-2، (د.ط).**

أحمد، راكز، (1995)، **الرواية بين النظرية والتطبيق "مغامرة نبيل سليمان في المسلة"**، دار الحوار، اللاذقية، ط1.

إدريس، سماح، (1992)، **المثقف العربي والسلطة "بحث في رواية التجربة الناصرية"**، دار الآداب، بيروت، ط1.

أسويرتي ،محمد، (1991)، **النقد البنيوي والنص الروائي**، دار توبقال، الدار البيضاء.

الأنصاري، محمد جابر، (1994)، **تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

أوسبسنكي، بوريس، (1997)، **وجهة النظر في الرواية على مستوى المكان والزمان، ترجمة سعيد الغانمي، مجلة فصول، المجلد 15، العدد 4.**

الباردي، محسن، (1997)، **الرواية العربية الحديثة**، دار الحوار، اللاذقية.

باشلار، غاستون، (1980)، **جماليات المكان**، ترجمة غالب هلسة، دار الجاحظ، بغداد.

باشلار، غاستون، (1986)، **حدس اللحظة**، تعريب حنا عزوز وعبد العزيز زمزم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد .

بحراوي، حسن، (1990)، **بنية الشكل الروائي "الفضاء، الزمن، الشخصية"**، المركز الثقافي العربي، بيروت.

بحراوي، سيد، (1992)، **علم اجتماع الأدب**، الشركة المصرية العالمية، القاهرة، ط1.

بدوي، عبد الرحمن، (1973)، **الزمن الوجودي**، دار الثقافة، بيروت، ط3.

بردیانف، نيقولاي، (د.ت)، **العزلة والمجتمع** ترجمة فؤاد كامل، مراجعة علي أدهم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

بيرهوف، هانز،(1972)، **الزمن في الأدب**، ترجمة أسعد رزوق، مراجعة العوضي الوكيل، سجل العرب، القاهرة.

تودوروف، تريزقان، (1990)، **الشعرية**، ترجمة شكري المبخوت ورجا سلامة، الناشر دار توبقال، الدار البيضاء، ط2.

جرييه، الآن روب، (د.ت)، **نحو رواية جديده**، ترجمة مصطفى إبراهيم مصطفى، مراجعة لويس عوض، دار المعارف، القاهرة.

جنداري، إبراهيم، (2001)، **الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1.

جنيت، جيرار، (1997)، **خطاب الحكاية بحث في المنهج**، ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الازدي وعمر حلبي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط2.

حافظ، صبري، (1984)، **الحداثة والتجسيد المكاني**، **مجلة فصول**، **المجلد2**، **العدد4**، القاهرة.

حجازي، مصطفى، (1986). **التخلف الاجتماعي "مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور"**، معهد الإنماء العربي، لبنان، ط4.

حسين، خالد حسين،(1421هـ)، **شعرية المكان في الرواية الجديدة "الخطاب الروائي لادوارد الخراط نموذجاً**، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض.

الحكيم، توفيق، (د.ت)، **عصفور من الشرق**، مكتبة الآداب ومطبعاتها، القاهرة.

الخشاب، مصطفى،(1981)، **دراسات في الاجتماع العائلي**، دار النهضة العربية، بيروت.

الخطيب، إبراهيم ، وآخرون، (1984)، **مدخل إلى علم الاجتماع**، الدار الأهلية، عمان.

خليفة، إبراهيم، (1983)، **علم الاجتماع والمدينة**، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية.

الخياط، بلال، (1975)، **الشعر والزمن**، وزارة الإعلام العراقية، دار الحرية للطباعة، بغداد.

الدقس، محمد، (1988)، **التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق**، دار مجدلاوي، ٦٢٢٥٠٠ عمان

الرشيدي، ملاك احمد محمد، (1984)، **الأسرة وجهود الخدمة الاجتماعية**، جامعة الملك سعود، الرياض.

الرميحي، محمد، (1999)، **الثقافة ذلك السهل الممتنع**، مجلة العربي، العدد 482، كانون الثاني، الكويت.

الرياحي، نجوى، (1995)، **الحلم والهزيمة في روايات عبدالرحمن منيف**، مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد (111)، العدد (8).

زايتلن، إرفنج،(1989)، **النظرية المعاصرة في علم الاجتماع**، ترجمة محمود عودة وإبراهيم عثمان ، (د.م) .

سارتر ، جان بول، (1965)، **مواقف الأدب الملتزم** ،ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت.

سمعان، إنجيل بطرس، (1987)، **دراسات في الرواية العربية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

السواح، فراس، (1997)، **مغامرة العقل الأولى دراسة الأسطورة في سوريا وبلاد الرافدين**، دار علاء الدين، دمشق.

شاهين، أسماء،(2001)، **جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1.

شبيل، عبد العزيز، (1987)، **الفن الروائي عند غادة السمان**، دار المعارف للطباعة، القاهرة، ط1.

الشوابكة، محمد علي، (د.ت)، **البنية السردية والدلالية في رواية النهايات**، بحث غير منشور، (د.م).

الشوابكة، محمد علي، (1992)، **النفط والتحول الاجتماعي "دراسة في مدن الملح"**، **مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، المجلد 19، العدد 1.**

صالح، صلاح، (د.ت)، **قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر**، دار شرقيات، القاهرة، ط1.

العاني، شجاع مسلم، (1994)، **البناء الفني في الرواية العربية في العراق**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

العاني، شجاع مسلم، (1989)، **في أدبنا القصصي المعاصر**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1.

العالم، محمود أمين، (1991)، **زمن الرواية، مجلة فصول، المجلد 12، العدد1.**

عبدالعظيم، صالح سليمان، (1998)، **سوسيولوجيا الرواية السياسية (يوسف القعيد نموذجاً)**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

عطية، أحمد محمد، (د.ت)، **الرواية السياسية "دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية "**، مؤسسة مطابع معتوق، بيروت.

العيد، يمنى، (1999)، **تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي**، دار الفارابي، بيروت، ط2.

فرمان، غائب طعمه، (1981)، **عبدا لرحمن منيف والإنسان العربي المقهور**، مجلة الآداب، بيروت.

فضل، صلاح، (1996)، **بلاغة الخطاب وعلم النص** ، الشركة المصرية العالمية، الجيزه، ط1.

الفيصل، سمير روحي، (د.ت)، **نهوض الرواية العربية الليبية**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، ط1.

القاسم، سيزا، (1985)، **بناء الرواية " دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ"**، دار التنوير، بيروت، ط1.

قويدر، عيسى، (د.ت)، **عبد الرحمن منيف روائياً**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية.

كاريل، الكسيس، (1980)، **الإنسان ذلك المجهول**، تعريب شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، القاهرة، ط3.

كرم، يوسف، (د.ت)، **تاريخ الفلسفة اليونانية**، دار القلم، بيروت.

لحمداني، حميد، (1993)، **بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2.

لوبوك، بيرسي، (1981)، **صنعة الرواية**، ترجمة عبدالستار جواد، دار الرشيد، بغداد.

لوكاتش، جورج، (1989)، **الرواية كملحمة برجوازية**، تعريب جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت.

مبروك، مراد عبد الرحمن، (1998)، **بناء الزمن في الرواية المعاصرة "رواية تيار الوعي نموذجاً 1967-1994م "**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

المحادين، عبدالحميد، (1999)، **التقنيات السردية في روايات عبدالرحمن منيف**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1.

المحادين، عبد الحميد، (2001)، **جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1.

محيلان، منى، (2000)، **التجريب في الرواية العربية الأردنية "1960-1994م**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1.

مرتاض، عبد الملك، (1998)، **نظرية الرواية "بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، العدد 240، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1.**

المرزوقي، و(آخرون)، (1986)، **مدخل إلى نظرية القصة – تحليلاً وتطبيقاً**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

مرعي، توفيق و(آخرون) ، (1984)، **الميسر في علم النفس الاجتماعي**، دار الفرقان للتوزيع، عمان، ط2.

معتوق، محبه حاج، (د.ت)، **أثر الرواية الواقعية الغربية في الرواية العربية**، دار الفكر اللبناني، بيروت ، ط1.

منيف، عبد الرحمن، (2002)، **أرض السواد**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط3.

منيف، عبد الرحمن، (1983)، **الأشجار واغتيال مرزوق**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2.

منيف، عبد الرحمن، (1983)، **حين تركنا الجسر**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1.

منيف، عبد الرحمن، (1983)، **سباق المسافات الطويلة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1.

منيف، عبد الرحمن، (1983)، **شرق المتوسط**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1.

منيف،عبد الرحمن،(1992)، **الكاتب والمنفى هموم وآفاق الرواية العربية**، دار الفكر الجديد ، بيروت.

ميلز، سي رايت، (د.ت)، **الخيال السوسيولوجي**، ترجمة صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية، بغداد.

موسى، سلامة، (1961)، **أحلام الفلاسفة**، الشركة القومية للنشر والتوزيع، تونس.

النابلس، شاكر، (1994)، **جماليات المكان في الرواية العربية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1.

نجمي،حسن، (2000)، **شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1.

النعيمي، أحمد، (2004)، **إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1.

نمر .موسى، إبراهيم، (1993)، **جماليات التشكيل الزماني والمكاني لرواية الحواف، مجلة فصول، القاهرة، المجلد 12، العدد 2.**

النصير، ياسين، (1986)، **إشكالية المكان في النص الأدبي**، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط1.

النصير، ياسين، (1986)، **الرواية والمكان**، دار الحرية للطباعة، بغداد، ط2.

وادي، طه، (1989)، **دراسات في نقد الرواية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة.

ولعة، صالح، (2004)، **المثقف في روايات منيف**، مطابع صحيفة العرب اليوم، ملحق اليوم السابع، العدد (2428).

يقطين، سعيد، (1993)، **تحليل الخطاب الروائي (الزمن - السرد - التبئير)**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2.

يوسف، آمنة،(1992)، **تقنيات السرد في النظرية والتطبيق**، دار الحوار، اللاذقية، ط1.